

زهدي ياسين شامية
الفتحل



محاكاة ساخرة



زهدي ياسين شامية

الفتحل

مركز الحضارة العربية



وجه أن تعرف لك بانك صفت هرة خرافية على السحرة والتحكم
بفلس عوازل صميم لم أواجه مع أي كانت آخر
إلهة صورية عظيمة: إذ أتمنى أن تشبهها لأنها لا تترد أبداً ولا تنف
عند حد، وقد صيغت بصوت عالٍ وأنا أقرأ بعض الفقرات التي إن بهم
ولها لا الفاضي.

فؤاد الثعلب

من رسالة شخصية إلى السيد:
الفاضل

ذكارتنا رواية "الفتحل" لزهدي ياسين شامية بالقرن القديس، الإشارات
التي فيها مع صوت السحرة في صوت آخر في رواية، ولا أظنها سحرية
لغوية فنية صامتة خفية، بل هي في الواقع التي يتخفاها الفؤاد من مقلبه
ويقال أي أن زهير شامية يروي حياة مقله على الطريقة الشعبية، مرافقة
التيبة والهجعة العراقية.

ياوم زهير شامية يعلق صميم الحظيفة، إلا أن شلال أوجها يحسن سمود
التمساح، كعد أن الشمس المشقة والأحاديث فظها، العوضي أي الفاضل
قبل كل شيء، لكن خارج الفن ملة والرائس ماسية، فالكتاب يملك كما الرتبة
حامل التوبة الذي يرضي مقله بشئ الإصافات يروا شعري، فطرصات
وعالية الخ، إن فؤادنا الفؤاد، تنضم إلى شئ التحركات التي تجعل أقر
من القصور والمعد.

إن زهير شامية مبلغ هنا ليس بالمعروفات العربية القديمة فحسب بل
الأخرى كطرسية والعربية والأكثرية خاصة، وهناك ملاحق الشمس باليد،
في مشقة من أوقات الجلائل التي تبهطرون والقوميات والزيارات
والوطنيين الذين يرون فيهم.

صفا الديار



لجنة نقباء الفنانين العرب - المغرب

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي المغربي
مصطفى جباري! المحمدية، المغرب!
شكر خاص وتحية له بمناسبة ذكرى إصدار
محاكاة "الفتحل" على موقع القصة العراقية
قبل ثلاثة عقود تقريباً.

حقوق النشر للمؤلف

لا يُسمح بإعادة الإصدار التصويري أو الإلكتروني أو أي شكل من الاستنساخ والنشر والاقتباسات الطويلة والتوزيع بدون أخذ الموافقة الخطية من المؤلف الدكتور زهير ياسين الشليبه بموجب اتفاقات Copy-Dan دان كوبي السارية.

Fotografisk, mekanisk, eller anden form for gengivelse eller mangfoldiggørelse er kun tilladt ifølge gældende Copy-Dan aftaler.

The Genius

Den Geni

Sharq Gharb forlaget, Danmark

شرق غرب للنشر

الطبعة الأولى 2009

1. udgave

Danmark 2009

Copyright: Zouhair Shlaiba

Omslag: Mustafa Jabbari

ISBN 978-87-985964-7-9

زهير ياسين شليبه

الطفل

محاكاة ساخرة
ونصوص سرديّة مفتوحة
حقوق النشر للمؤلف



الكتاب:

الفطحل

الكاتب: زهير ياسين شليبه

(الواق - الذنمرك)

الناشر: مركز

الغلاف

وحدة الغلاف: الفنان المغربي: مصطفى جبيري
تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني:

وحدة الكمبيوتر بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد
تصحيح: وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: 2008/22691

الترقيم الدولي: ISBN: 977-291-945-1

الذنمرك: ISBN: 978-87-985964-7-9

شليبه، زهير ياسين.

الفطحل: محاكاة ساخرة ونصوص سودية

مفتوحة/زهير ياسين. - ط1. القاهرة:

مركز الحضرة العوبية للإعلام والنشر

الواسات، 2008.

240ص؛ 20سم.

تدمك: 1-945-291-977

1- الأحاجى والفكاهات العوبية.

أ- العوان 817

الإهداء

إلى زوجتي فريدة

إلى أبطال قصصي الذين أحبهم كثيراً!
معكم أسخِرُ لا منكم.

إلى أبطال قصصي الذين يعرفون أنفسهم أكثر من
غيرهم، أقولُ لهم قولَ الشاعر:

إذا الشعر لم يطربك عند سماعه
فليس خليقاً أن يُقالَ له شعراً

وأنشدَ بعضهم في تقسيم الشعراء:

الشعراء فاعلمنَّ- أربعة
فشاعرٌ يجري ولا يُجرى معه
وشاعرٌ يُنشدُ وسط المعمة
وشاعرٌ من حقّه أن تسمعه
وشاعرٌ من حقّه أن تصفحه

يجب أن أعترف لك بأنك تملك قدرة حقيقية على السخرية
والتهكم بنفس عراقي صميم لم أواجهه مع أي كاتب آخر.
إنها سخرية "مطلقة"، إذا أمكن أن نسميها، لأنها لا تترك أحداً
ولا تقف عند حد، ولقد ضحكْتُ بصوتٍ عالٍ وأنا أقرأ بعض
الفقرات التي لن يفهم دلالتها إلا العراقي.

الروائي العراقي الكبير

فؤاد التكرلي

من رسالة شخصية إلى المؤلف بتاريخ

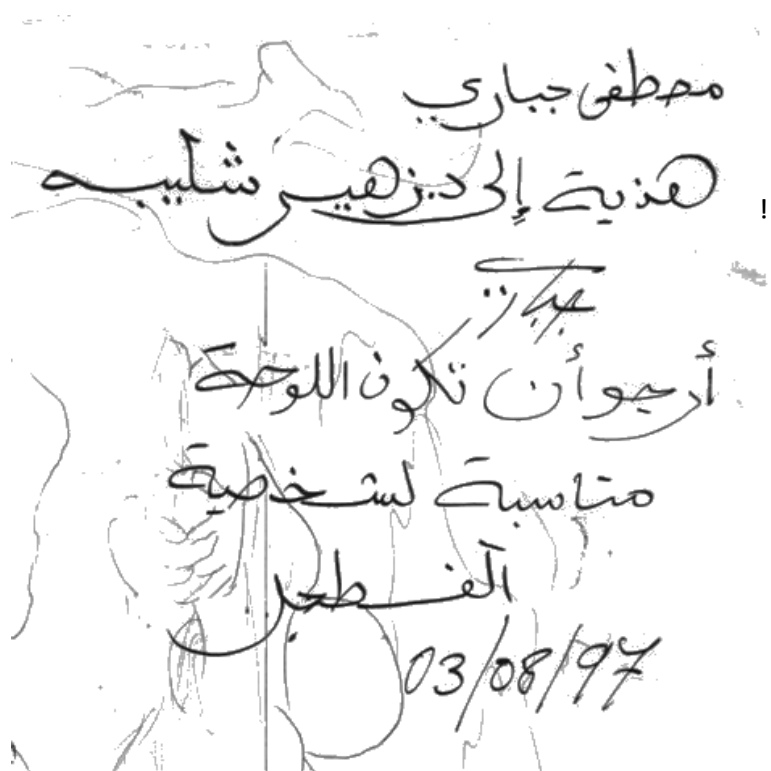
1999/07/01

تونس

المحتويات

9	مقدمة الأستاذ عدنان المبارك
13	مقدمة الطبعة الثانية
15	قصيدة إهداء
القصص		
17	الاستباحة
36	الكلب والسيدة القتيلة
كتاب الفطحل، محاكاة ساخرة		
47	تُوزن تاك
56	تَقْلِبَاتِ الفطحل
126	النفاق
137	الشجار
146	الأمسية الشعرية
152	عودة الفطحل إلى ربوع الوطن الشامخ
203	الفطحل في مغامرة بصراوية
213	ديوان الفطحل
249	قالوا عن الفطحل

شكر خاص للفنان المغربي مصطفى جبار على لوحته
المكرّسة لمحاكاة الفطحل



قراءة في رواية زهير ياسين شلبية "الفتحل"

رصد ساخر لنموذج بشري دائم

عدنان المبارك

تذكرنا رواية "الفتحل" لزهير ياسين شلبية بالسِير القديمة. لا يشرك المؤلف هنا مع صوت السخرية أيّ صوت آخر في روايته. ولا أظنها سخرية تقليدية، فثمة تعاطف خفي، رغم كل المواقف التي يتخذها المؤلف من بطله. ويخال إليّ أن زهير شلبية يروي حياة بطله على الطريقة الشعبية: بمرافقة الربابة واللهجة العراقية.

قسّم الراوي مرويته إلى فصول لا تجمعها أيّ من أدوات الرواية التقليدية لكن ظاهرياً فحسب. فثمة خيط متين، رغم دقته، يمسك بكل ما حدث لهذا البطل. ولا أظن أنه، أي الكاتب، قد عنون عن طريق المصادفة، فصول الرواية وأعطاهها مثل هذا التسلسل الذي يذكرنا بأبرز الأعمال الأدبية المكرسة لمثل هذا النموذج البشري. فالفصول اعتمدت، بشكلٍ بيّن، على تقنية الفلاش باك.

يقوم زهير شلبية بخاطٍ عجيب للحقيقة بالاختلاق فيما يخص سيرة الفتحل. أكيد أن لكلمتي الحقيقة والاختلاق ثقلهما النوعي أي التاريخي قبل كل شيء، لكن خارج الفن عامة والروائي خاصة. فالكاتب يفعل كما الرواية حامل الربابة الذي يزيّن صورة بطله بثّتي الإضافات: برواز شعري، مقرنصات بلاغية إلخ، بل يقودنا المؤلف بنفسه إلى شتى التخيّلات التي تحتمل أكثر من تفسير واحد.

إن زهير شلبية مسلح هنا ليس بالمرويات العربية القديمة فحسب بل الأخرى كالروسية والفرنسية والإنكليزية خاصة. وهناك ملامح تلمس باليد، في فطحله، من أولئك الأبطال التشيخوفيين والغوغوليين والرايبليين والفولتيريين والديدرويين وغيرهم. ولا أجدني مبالغاً إذا

قلت بأني عثرت على لمحة هنا وهناك في الفطحل مستعارة من رجال الجوف لإليوت. وعليّ أن أستدرك هنا: نحن لا نعثر، بالطبع، لدى فطحل زهير شلبية على ذات النسغ الفلسفي الإليوتي. ف"فطحله" مثال تقليدي لثنتى الأنوات التي يعرفها كل مجتمع يعاني من صعود وهبوط مفاجئين، أي محرومين من الإيقاع والوتيرة، في بارومتر الحضارة المادية.

وقبل كل شيء يكون الفطحل عينة مخيفة لنبتة خرجت من أرض يصعب تحديد موقعها، فهي في تنقل شبه أبدي بين قحولة ومشروع نماء. وفي الحقيقة لا يمثل بطل زهير شلبية أيّ فئة اجتماعية محددة. فالمؤلف تعمد تعليقه في فراغات عدة وليس في فراغ واحد.

أعودُ إلى رجال إليوت الذي جعل منهم نموذجاً شمولياً لإنسان هذا العصر الذي روّضت مشاعره وتلافيف مخه أقانيم هذه الحضارة المادية. فالإليوت الذي صار كاثوليكيّاً وتقبّل الكثير من دوغماها، وجد أن القدح المعلى في حضارتنا "الفطاحلة" الذين هم ليسوا بحاجة إلى إيمان وأيّ كان. وكما قلت فـ "الفطحل" يحشر نفسه وبحركات بالغة الطبيعية بين رجال إليوت خاصةً أنه مثلهم لا يعرف الابتسام:

نحن الرجال الجوف

نحن الرجال المحشوين

يتكئ أحدنا على الآخر

الرؤوس حُشيت بالقش، واحسرتاه!

أصواتنا التي جُفّت

حين نهمس لبعضنا بعضاً،

هادئة و بلا معنى

كالريح على غصنٍ يابس

أو قائمة جردني على هشيم زجاج

في قبونا الجاف. (الأبيات من ترجمتي).

بالطبع لا يمكن إطالة "فطل" زهير شلبية ولا تضخيمه كي يصبح رمزاً يتخطى حدودَ محليته، أي على العكس من رجال إليوت (الشاملين). وقد تبدو المقارنة بين الفطل ورجال إليوت قسرية أو مفتعلةً لكن حجتي هنا تشابك جذور كل الظواهر في عصرنا بشكلٍ خاص (ربما كان الكاتب قد قرأ إليوت) ومن ثم عثر رجاله الجوف على حيزٍ ما في لا وعيه). ومرة قرأتُ كتاباً عن إليوت بحثَ مؤلفه عن منحدر عنوان قصيدة إليوت الشهيرة هذه. وظاهرياً يبدو هذا موضوعاً آخر لكن ليس تماماً. فلقد جرى البحث عن أصل "الرجال الجوف" وتبين أن من المحتمل أن يكون للعنوان ثلاثة أصول: مقال وليم موريس W. Morris بالعنوان نفسه، وقصيدة لروديارد كيبلينغ R.

Kipling بعنوان The Broken Men

أو من "يوليوس قيصر" لشكسبير الذي استخدم النعت نفسه في مسرحيته هذه. وفي الحقيقة توائم الأوصاف الشكسبيرية الأخرى الإليوتية. فشكسبير يقول:

الرجال الجوف

هم مثل الخيل الناري في الظاهر:

مظهر رائع

يعلن عن النار.

لكن أعطها مهمزاً،

سترى كيف

يسقط هذا الحيوان

مثل حصانٍ عجوز. (هذه ترجمتي أيضاً).

لا أظن أن تأثيرات مباشرة في تكوين شخصية الفطل جاءت من الأدب الروسي لكن من الصعب أن نطرد هنا بعض الروائح

التشخوفية والغوغولية خاصةً. المهم أنها لم تترك بصماتها اللوحة على أصالة "الفتحل". لكن هل بقي هناك كلام عن التأثيرات؟ أكيد أنها مسألة مفتوحة. إذ لا شيء أصيل تماماً في الأدب والخلق الفني عامةً بل في كل خلق.

ففي الختام لا بد من التنبيه إلى نفور زهير شلبية من الأفتعة ونرفزته مما نسميه في العراق ب"الكلام المصقّط". وواضح أنه لا يلجأ هنا إلى أيّ قانون للسرد الأدبي سواءً أكان تقليدياً أو "محدثاً".

كما بوسعي القول إن "فتحلّه" قد مدّ جذوره في أكثر من تربة. ولو كنت ناقداً متفرغاً أو أفخر بمؤهلات نقدية ما، لأخذتُ بالبحث الأكاديمي عن جميع أزمنة وأمكنة هذه الجذور. لكنني مجرد قارئ تمتع كثيراً بقراءة "الفتحل" الذي ذكرني بعبقرية الأدب الروسي أيضاً.

لقد قام زهير ياسين شلبية في "الفتحل" بتدوير عدد من علنا العراقية، (وفي الواقع هي ليست عراقية فقط) ورشّ خليطاً مدهشاً من توابله عليها!

لقد جاءت "الفتحل" محاولة جريئة لتعريب أكثر من بعد نفسي بل هي، بالأحرى، تعريب لذوي البعد الواحد. وأكرر مرة أخرى تهنتتي للصديق المؤلف على هذا العمل المتميز في حصيلتنا الأدبية.

نيكيوينغ

15 تشرين الثاني 2005

المقدمة

لا أميل إلى كتابة مقدمات النتاجات الإبداعية ولا قراءتها، فأنا لا أبا لي لمثل هذه الأمور ولا أضع أهدافاً أمام القارئ بل أتركه حرّاً في التفكير، مبدعاً في القراءة، متفاعلاً معها ومع سخريّة هذه المحاكاة من خلال اللعب بالكلمات وما بين السطور. ولكنني مع ذلك أشعر بضرورة توضيح بعض الجوانب الفنية بالذات لكتاب الفطحل.

هذه النصوص هجين من المحاكاة والسردي فهي ليست قصصاً ولا روايةً تقليدية فلا يوجد هنا التزام حرفي بالأبعاد الثلاثة، بل حكايات اجتماعية ساخرة.

تقترب هذه المحاكاة "بارودي Parody" من بعض أنواع الكتابات الاجتماعية الانتقادية الفاضحة والصحفية الساخرة مثل "فليتون" مع شيء من الاختلاف. إنها بلا شك عمل سردي طويل بمواصفات غير تقليدية.

وأنا عموماً لا يهمني التصنيف الأكاديمي لهذا الكتاب محاكاة أم رواية أم مجموعة قصص بقدر ما يشغلني رأي القارئ.

صورتُ المجتمع العراقي وظواهره الاجتماعية السلبية من خلال أبطال القصص وشخصية الفطحل السطحية المسالمة والآخرين الذين لا همّ لهم غير تهميشه والسخرية منه. هذا هو موضوع هذه القصص.

محاكاة الفطحل ليست وثائقية مكرّسة لشخص معين حقيقي كما هو المفروض في هذا النوع الأدبي، إذ إن معظم ما فيها من نسج الخيال ومن تجربتي الشخصية والواقع ومما سمعتُ وقرأتُ والتقيتُ وأُهمتُ. أما قصائد الفطحل فما هي إلا محاكاة ساخرة لبعض ما يُنشر في الصحافة العربية.

هذه المحاكاة الساخرة مكرسة لشخصية نموذج لأولئك الذين يرسمون لأنفسهم أدواراً دونكيشوتية كبيرة فيبدون بهلوانيين، وللطريقة القاسية، العراقية بامتياز في التعامل معه بحيث صارت و بمرور الزمن تتردد بين أوساط المثقفين مصطلحات مثل: بهلوان، طرطور، عبقرى، فطحل، طفيلي، مهووس، وإلخ عن أولئك الذين يحبّون الظهور والوصول بأي ثمن وبدون جهود ومعاناة ومثابرة حقيقية.

لا بد من الإشارة إلى أنّ أغلب أبطال هذه المحاكاة والقصاص الأخرى من العراقيين والعرب المقيمين في الخارج ولهذا فإنهم لا يتحدثون بلهجة عراقية خالصة بل خليطة إلى حدٍ ما.

كذلك فإني تقصدت أن أمسك العصا من وسطها من خلال تقريب المحكيّة العراقية إلى اللغة العربية المكتوبة كي تكون مفهومة لكل قراء العربية، فاستخدمت يحكي بدلاً من يحجي وقال بدلاً من كأل وهيك أو هيكي بدلاً من هيج أو هيجي ولعدم توفر حرف الجيم الفارسي المستخدم في اللهجة العراقية أصلاً في مفاتيح حروف الكومبيوتر.

أسجّل هنا اعتذاري لمحبي اللهجة العراقية.

سبق لي وأن نشرت هذا الكتاب بشكلٍ محدود وعلى مواقع الإنترنت وهأنذا أعيد نشره.

زهير ياسين شلبية

2008 الدنمرك

إلى الشاعر كلاوس ريفيه

الأول:

لم يغيره شئٌ

لم يغير شيئاً

لا ميدأه، لا صاحبه

لا مأكله

لا مشربه

لا مكتبه لا مادبه

لا إبريقه ولا ريقه

الثاني:

غير اسمه وبقي جلده

الثالث:

غير اسمه ودهن جلده

ونسي مأكله

لم يداهن غير نفسه

بقي أميناً على بريقه

الرابع:

غير اسمه، دهن جلده

ونسي مأكله

وبريقه

وريقه

وداهن غيره

وغير سيره

ومادبه

الخامس: غير اسمه، نزع جلده

ونسي مأكله ومأنسه

السادس: تجاوز نفسه

عرف قدره

حاورَ غَيْرَه

هو الأول والأخير.

1991

الاستباحة

وجدَ نفسه فجأةً يكتبُ. راحَ يكتبُ ويكتبُ هلوساتٍ شعريَّةً. قال لنفسه: "هذا الهديان يمكن أن يكون بدايةً جميلةً لقصة مليئة بالتداعيات. بداية "جهنمية"! ومع ذلك، ضَجَرَ منها. مزقها كلَّها. "كل البدايات"؟ هذه حقًّا عبارة لطيفة. وقال لنفسه لو كنتُ شاعرًا حدثويًّا "فحلاً" من الجهابذة لألقيتُ ما تبقى من هلوساتي الممزقة شعراً:

مزقتُ
كلَّ البداياتِ
إلا بدايتي
إنها أنتِ
يا سيدة العصور
والقصور
والبحور
والدهور.
وراح يدوّنُ البداية.

كان قلقاً في تلك اللَّيلة. سمعَ كمًّا هائلاً من الأخبار الزفت كما يقولون، كلَّ المحطات ووكالات الأنباء صارت تتناقل اسم بلاده الصغيرة بالسوء. قال لنفسه "الله أكبر، ما بقي بالعالم غير العراق؟". أراد أن يزيحَ هموم الأخبار من رأسه. قرر أن يقطع التفكير بها. أغمض عينيه وأدارَ رأسه إلى حيث الجدار والظلام عساه يهرب من الواقع. وكان يشعر أنه سيبقى طوال عمره قلقاً. كانت ليلة مليئةً

بالمتابع والإرهاصات. "الإرهاصات" هذه طلعت روحه هي والمتشدقون بها، ولكن ماذا عساه أن يفعل بها وبهم؟

مرت في خياله صورة تلك الفتاة العراقية الشابة، التي عثت فيها الأيدي القاسية وكانت تضربها ضرباً مبرحاً أمام عينيه ولم يقو على أي فعل. وشعر بالغصة وهو يراها تُضرب أمام ناظره دون أن يحرك ساكناً، دون أن يرفع يديه مدافعاً عنها، بقي مكتوف اليدين، كان مكبلاً بالأصفاذ لا يقوى على الحراك. تذكر تلك البنت العراقية قابضة تحت الغول، أغمض عينيه متوسلاً الرقاد مودعاً إياها. لم يعد يذكر اسمها لكنه كلما كان يهرب من الهموم اليومية وسرّ التكوين العراقي يواجه همّها وقلقه العميق عليها. إنها صورة الذل، والهوان، والعدوانية، والاستباحة.

ما هي الإلحظات حتى ظهرت أمامه صورة شابة أخرى، من هي؟ ليس المهم من هي وما اسمها؟ المهم في الأمر أنها امرأة مقبلة على الحياة، دخلت عليه من الذكريات وحصادها بالصدفة. ذكرى هذه البنت الحلوة لها شكل ثانٍ. وراح يندن "شكل ثان حبك أنت!". كانت الفتاة طالبة جامعية نرويجية تلبس الأزرق الفاتح والأرجواني، تتمايل، توزع الابتسامات، سخرتها عينا هذا الشاب القادم من بلاد النهرين، حطت على أهدابها الطويلة كعصفور صغير بلّله المطر.

مرت عليه مشاهد تلك الليلة التي قضاه معها في قطار لينينغراد كالبرق.

كان يسميها ليلة القطار. هذه فتاة كانت تلهو، تلعب مستأنسة بحياتها وتلك البنت العراقية الحنطوية مستباحة، تئن تحت جسد الغول الجاثم على صدرها، أي شعب هذا يتلذذ في ممارسة القبح والدمار؟! أيعقل أن تكون هذه الكائنات في هذا التكوين الناري كلها مصابة بهوس القهر والطغيان؟

كان أحد معارفه يحدّثه عن رجلٍ، عاش حياةً مأساويةً. كان محدّثه يحكي له هامساً، متلفطاً يساراً ويميناً بين الفينة والأخرى خوفاً من أن ينتصت إليه أحدٌ ما كأنه يتصور أن للحيطان أذاناً وكان يقولُ شاعراً بتأنيب الضمير:

- "أستغفرُ الله، أستغفرُ الله، الله لا يجعلها غيبة، إن بعض الظن إثم"، يعني باختصار كان هذا الرجل، الذي أحكي لك عنه الآن يلتقي زوجةً صديقه ليلاً. كان صديق العائلة هذا يعيش في بيتٍ واحدٍ معهم. وكان يسكن في الغرفة الصغيرة المظلمة بينما كانت العائلة تسكنُ في الغرفة المجاورة.

كانت الزوجة العاشقة تتسلل إلى عشيقها من فراشها ماشيةً على أطراف أصابعها، بالضبط مثل بطة "الأحمر والأسود" ونساء القصص الرومانسية.

- لا، بسّ عاد هذا خيال زوجها وشكوكه لا أكثر ولا أقل. الرجل كان صديق العائلة وهو مناضل سياسي محترف رجل وطني وقومي ومختفٍ عندهم، هذا رفيقه ومو من النوع اللّي يمكن أن يخونه، وزوجته معروفة بطيبتها وإخلاصها، يكفي عاد الطعن والشك. هكذا اعترضَ على كلامه بطريقة لا تخلو من السذاجة. ردّ عليه محدّثه وعيناه تبخقان فيه مؤكداً:

- أي كلام هذا؟ شكوك؟ أقول لك مسكها مسك اليد.

ثم أردف مترجعاً وهو ينفخ دخان سيجارته:

- لا، هو في الحقيقة لم يكشفها بالفعل، أقصد لم يمسكها مثلبسةً بالجريمة كما يقول أهل القانون. اسمع القصة باختصار شديد وأرجوك لا تقاطعني:

في إحدى الليالي كان الزوج نائماً، قامت زوجته من فراشها، فتحت الباب، فرّ من نومه كما لو أنه وُجَزَ بإبرة، صرخ بها:

- وبين رايحه؟

- أروح أسأل جارتنا عن حبوب صداع، ما أقدر أنام... صداع..

أجابته في لهجة يبدو عليها التعب. عادت بعد لحظات، قالت له إنها لم تجد الحبوب. نامت الزوجة وبقي الزوج يعاني من الأرق وبلوى القلق.

في اليوم التالي حدثت الزوج المصدوم صديقاً آخر له عن الأمر، قال له صديقه "العبقري": كان المفروض أن تتظاهر بالنوم حتى تكتشف سرها بنفسك وتقطع الشك باليقين.

حبّل الكذب قصير، لم تدم اللعبة طويلاً حتى اكتشفها زوجها، حسب أقاويل الناس. صدم بعلمها بهذه "الخيانة الزوجية" المزعومة واحتار للأمر هل يقتلها ويغسل عاره أم يكتفي بطلاقها.

نصحه صديق آخر له بأن يتريث، لم يسمع كلامه طبعاً وصار يردد قائلاً لنفسه "أي تريث هذا؟ هذه الأمور لا تحتاج إلى انتظار وفلسفة وتفكير، أي كلام سخيف هذا؟ بالعكس لازم أتخذ القرار وأني راسي حار ودمي فاير، "أطرق الحديد وهو ساخن!"، لازم أصدق مشاعري وأحاسيسي وأثق بها، وأبت بالموضوع، حتى لو كنت متهوراً".

طلق هذا الرجل العصبي شريكه حياته على الفور! لم يقتلها ولم يغسل عاره كما جرت العادة، بل تركها في الحضيض وسط الشائعات والسمعة السيئة أو في أسفل السافلين كما يقال!

ودارت الأيام دورتها، ثم قيل إنها قُتلت في ليلة زفافها إلى عريسها الثاني، كان المشهد مروعاً، دوت صرختها عالياً بأذنه، استيقظ من نومه العميق، وجد نفسه وحيداً في الظلمة الحالكة ما عدا تلك النائمة إلى جنبه.

إذن كان كل ذلك حلماً أو بالأحرى كابوساً.

زوجته ترقد إلى جنبه! فرح للأمر، فهي سليمة لم تُمس بأذى، إنها جنبه. تذكر أغنية "تعالني جنبي، تعالي جنبي!". ابتسم.

تَمَّتْ بين نفسه "راح تبقى طول عمرك سخيماً. استمر، احك قصتك، التي بدأتها عن "الخاننة"، القتيلة في عرسها الثاني".

كانت زوجته تغط في نوم عميقٍ عندما فرَّ من الرقاد وكان الغطاء منحسراً قليلاً عنها، أراد أن يأتي بجهاز التسجيل ليسجل شخيرها لكنه عدل عن فكرته وتراجع مركزاً كلَّ اهتمامه على مشاهد قصة قتل العروسة.

فكر بأن تسجيل الشخير لن يجدي نفعاً ولن يقلل منه ولن يحميها عن التراجع قيد أنملة أو التنازل والرفض، وستبقى تنكر أنها تشخر. فكَرَّ بالموضوع وهو لا يزال ممدداً في فراشه.

وعاد إلى ديدنه، أراد أن يتذكر العروس المقتولة، كيف حدثت الجريمة؟ تراءت في مخيلته صورة السكين، ذات النصل العميق، يلمع، يُغرس ثم يُستل، فتساقط القطرات الحمراء. قال لنفسه متسانلاً "أهو العراق هذا الدم المراق؟".

وقف محتاراً أمام تشابك الأفكار وتقاطع الصور. نسي ما أراد أن يقول، ضاع في دهاليز الذكريات ومشاهد الأحلام. تناول قلمه ودفتره وبدأ الكتابة. كتب حتى اشتبكت الأحداث واختلطت عليه الأمور. شعر بالتعب، والصعوبة، والتأزم والإحباط. ورغبة الحركة، نهض من فراشه.

قال لنفسه: "أريدُ أن أسترجع كلَّ شيء في الرؤيا، لازم أعرف الحقيقة، كل الصور بلا استثناء، أريد أن أستمتع باستعادتها. راح أحاول أن أحكي المقاطع وأنا أمشي. أعتقد أن هذا أفضل لي وأسهل حتى أتابع سَيْرَ الأحداث". ثم تمت هامساً "لازم أحل لغز التكوين العراقي، هذه حفلاتي اليوم. هذه هي طقوسي الاحتفالية العراقية. هذا هو السر العراقي".

بقي لوهلة واقفاً وسط الغرفة. سمع صوتاً آخر يهمس في أذنيه: "طيب، طيب توكل على الله، ولكن بالله عليك لا تخلط علينا الأمور

والأوراق والقصص والمشاهد، الله يخليك لا "تكبير" رؤوسنا، نحن لا نركز".

أخذ يروح ويجيء في الغرفة محدثاً نفسه بصوتٍ يكاد يُسمع:
"لأبدأ يا سيدي الحكي بوصف الصراخ، لا، لا، ما أتذكر ما أتذكر، ليش؟ ليش؟ ليش ما أذكر الصور الجهنمية والصراخ الغريب وبالمناسبة أنا لا أذكر لغة هذه المرأة العروس. هذا أمر عجيب، لم أعد أتذكر بأية لغة كانت القتيلة تحكي. ولكن هذا غير مهم عندي الآن. المهم هي إنسانة عراقية قبل كل شيء. هل هناك في هذا العالم الشقي أكثر أهمية من المخلوقة العراقية وصوتها الرهيف الحزين؟".

وكانت هناك سلة جميلة وقديمة تشبه تلك التي كانت جدتي تستخدمها للتسوق، كنت أقول لها مازحاً: سلّتك العراقية عمرها آلاف السنين، تبتسم، أقول لها موضعاً:
- بببي هذي السلّة اللّي على رأسك عمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

لم تفهم جدتي كلامي ولا مغزاه لكنها تبتسم ضاغطة على لثتين فارغتين من الأسنان زامة شفيتها اللتين صارتا سوداوين بعد أن بلغت من العمر عتياً. كانت السلّة مليئةً بالفواكه، كانت هناك رمانة كبيرة ناضجة، متضرجة بالحمرة، "مُفدّعة" كما كانت جدتي لأمي تقول، أي مفتوحة، كأن الرمانة تناديك: تعال وكُلني، فأنا لك والخضروات تفوح منها رائحة عبقّة، وهل هناك أروع من رائحة الجرجير والكزبر أو القسبر كما يسميه أهل شمال أفريقيا.

كلما أرى الخضروات الطازجة أتذكر شمال أفريقيا فأستميحك العذر من هذه الانتقالات أو التداعيات، وإلخ من المصطلحات اللوجستية و"الجيوفيزيائية".

تضحك من "الجيوفيزيائية"؟ الظاهر هذا المصطلح ما دخل بمزاجك؟ طبعاً لا، فأين الجيوبوليتيك أو الجيوفيزيائية من الجرجير،

وهل هناك أروع من قولهم عنه وأجمله: "لو عرفت المرأة ما في الجرجير لزرعته تحت السرير"، قال ذلك لنفسه مبتسماً لكنه أردف متمتماً بحزنٍ "لكن هذا سرير شمال أفريقي مو عراقي تعشعش تحته هموم الدنيا كلها وقهرها".

على أية حال لا أريد أن أدخلَ في تفاصيل الأحزان العراقية وشمال أفريقيا ولاجنوبها ولا نلسين مانديلا. لكني بدأت أتذكر الحلم، أها، دعني أتذكر اللقطات:

كانت السلة مليئةً بياقات الفجل الأبيض، ها، ليس الأمر كذلك، لم يكن الفجل أبيض، بل كان في النظرة الأولى يبدو أحمرَ قانياً ثم تغيّر لونه، إلى الأبيض، "الأحمر والأبيض وإلا الليموني؟".

أما القطرات فكنتُ ألاحظها بعيني "أين من عيني هاتيك الليالي يا عروس البحر يا حلم الخيال" كبقعٍ واضحةٍ على الفجل الأبيض، ولم أذكر أنني لاحظتُ أي بقعٍ حمراء على الفجل الأحمر!!

- وهل يعقل أن يرى الانسان بقعاً حمراء على اللون الأحمر؟ أنت فعلاً عقلك خفيف، ترللي! طبأكة! كما يقولون بالعراقية.

- طبعاً عقلي ترللي، لو كنتُ عاقلاً كان ما قعدت وإياك وقدّرتك واحترمتك وحكيت لك هذه المشاهد الرهيبة لأنك مو بهذا المستوى السردى! لا تقطع حبل أفكارى، مشكلتك أنك غير معتاد على هذا النوع من الحكى. أنت مستواك ضعيف وتريد أشياء واضحة وبسيطة وتقليدية وروتينية وساذجة.

أنا قلت لك من البداية إنى أتلذذ وأستمتع باسترجاع اللقطات والأحداث والانتقالات ولا أريد أن أقدمها لك دفعة واحدة، وأتمنى أن تشاركني استمتاعي وفرحي، بل احتفالي بهذه الاكتشافات والإمساك بخيوط الأحداث، أريدك أن تتفاعل معي وتلقف أفكارى وهي طائفة، بل تقرأ الممحى مثل ما يقولون، يجب أن تكون فطناً و"هاب ربح" على قولة العراقيين، واستمع لبقية القصة بتأنٍ وتركيز.

كانت السلة موضوعة على بلاط موزائيك أبيض يبدو وكأنه
مرصع ببقع سوداء متفرقة، كَوْنَت القطرات الحمراء شكلاً فنياً.
وأذكرُ أيضاً أنّ بنتاً شابةً شهيةً، طيبةً، تشبه الرمانه في السلة قد
طلّت على الدار وغطّى محيائها الجو كله. كانت وجنتها تشبه الرمانه،
ورديهً محمّرة، محيائها منشرح بخجلٍ أرجواني، كانت ناعمة الملمس
"هزّي يا نواعم شعرك الحرير"، خفيفة الظل، نحيفة الجسم، رشيقته،
ناحله الوجه، مفتوحة الشهية. يا سيدي، تدخل البنت البيت... هي
بعينها تدخل البيت... تفتح الباب بنفسها، نعم تفتح باب الحديقة بنفسها.

تسير البنت الجميلة على رصيف الحديقة الجانبية حافيةً متمائلةً،
"كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل"، تنورة
ملونة بالأحمر والأرجواني والأصفر والأخضر والأسود، مزركشة،
صيفية، كلوش فوق الركبة قليلاً.

كانت تمشي حافية القدمين على الأرض الإسمنتية وكان الرصيف
مبللاً قليلاً في بعض الأماكن، طبعات الأصابع وآثار القدمين على
الأرض الإسمنتية يزيد اللوحة جمالاً.

توقفت البنت الحلوة قليلاً عند شتلات ورد الجوري، اقتنفت وردةً
حمراء، شمّتها قليلاً. فتحت الباب الآخر مناديةً بصوتٍ فيه بحة مسرحية:

- أهل البيت! أهل البيت!

آه انقطع الشريط، لم أعد أتذكر، لكن أعتقد من الأفضل أن أترك
الكلام وألجأ إلى الكتابة فيما بعد حالما يأتيني المزاج وتنطلق بي
أجنحته إلى الفضاء الواسع. دعني آخذ استراحةً قصيرةً. أجل سأترك
الحكي هذه المرة. لا بد لي من استراحة قصيرة.

بعد دقائق بدأ الكتابة، عسى ولعلّه ينهيها ويخلصنا وينقذ نفسه من
هذه الورطة التي أوقعها والآخرين فيها، قال له مستمعاً:

- بس، رجاءً لا تحط بهارات كثيرة، يعني باختصار لا تكذب، ولا

يغرّك قولهم "أكذبُهُ أصدقُهُ"!

- لا، أبداً، وأرجوك لا تقاطعني كثير وتزيد ألامي، وإرهاصاتي ولو
أنا أعرفك ما تحب كلمة "إرهاصات".

والآن اسمع بقية القصة:

المهم يا سيدي هو: أذكر أنني رأيتُ سلحفاةً ولم أعد أتذكر القطرات
ولكن لا علاقة لهذه بتلك الحيوانات التي كنت أربّيها وأهتم بها في بيتي.
ماتت الزاحفة وصاحب البيت الذي تقيم فيه وما في اليد ولا حتى
الرجل حيلة.

كان الرسام الشاب نحيفَ الجسم، أطول قليلاً منها، خفيف الشعر،
كث الشاربين، صغير الوجه، تبدو عليه المعاناة والوجد والوَلَه والقلق
على المصير العراقي، أصفر "مصفرج"، يرتدي فانيلة صفراء
وبجامة زرقاء سادة "بلا سُرّ"، كانت عيناه تقولان لها: تعالي عيني
هنا، تعالي دادا هنا، هذا إشلون خير إجانه! يا هلا ومرحبا بالغيّاب
طابت والله جيّتكم، "مَرَحَبْ يا هَلَه بالغيّاب طالت والله غيبتكم!"
باختصار يعني: ترحيب حار!

- وبين سعاد؟

وأردفت قبل أن تسمع الجواب مبتسمةً متسائلةً بتودد ممسكة وردة
الجوري بيديها وفي عينيها فضول؟

- كنت ترسم؟

- إي، مثل ما تشوفين دا أرسم، سعاد راحت هي وأمي للسوق مرة
ثانية. أُمي نسبت تشترتي لها قطعة قماش للبدلة... دا أرسم أو
بالأحرى أجري أو أسوي تخطيطات.

لمعت عيناها بفضول عندما سمعت عن القماش والبدلة. زَمَّ شفّتيه
محرّكاً يديه بإشارات يصعب تفسيرها وكأنه يقول لها: لا أدري كيف
يجب أن أتصرف معك؟ ماذا أفعل لكّ وبكّ؟

قبل أن تخرج الجارةُ الشابةَ الجميلة من البيت اتجهت إلى الزاوية حيث سلة الخضروات، نظرتُ إليها، رفعت رأسها عالياً، تطلعتُ إلى اللوحة المعلقة على الحائط، نعم، كانت هناك لوحة بونارامية قوية معبرة، فيها أجساد بشرية نحيفة ترتدي ملابس ممزقةً ووجوه ناحلة ناتئة العظام بينهم فتاة في مقتبل العمر، لم يعد هناك شيء من ملابسها المتهرئة يستتر جسدها، كانت نظراتُ الشرطة مصوبة نحو صدرها العاري، تتعرض للضرب بسياط خيالة يقفون حول هذه الكومة البشرية العراقية، ثم أدارت البنثُ الشابةَ الجميلةَ وجهها إليه، التقت نظراتهما. شعر بدفئها، تشجع قليلاً متسائلاً بتوسل:

- تحبين أرسمك إلى أن ترجع سعاد من السوق؟ ما عندك مانع أعمل لك تخطيطات بينما تجي سعاد، وأمي، ها، شنو رأيك؟

قال عبارته الأخيرة في حركة فنية راقصة، ابتسمتُ الحلوة، اقترب منها قليلاً، كثيراً، كثيراً، انقطع كل شيء، أجل كل شيء، الصلات، العلاقات، لم يعد يذكر غير جذور الفجل الأبيض الذي تحول إلى أحمر واخفتت القطرات.

ترك القلم والورقة. دون كل ما خزنته ذاكرته، كل ما يعتقد أن ما فيها من هراء يصلح للتدوين! "عبقري، فطل زمانك!"، قال لنفسه: "أنت طول عمرك تدون وتدون ولكن ما من فائدة تُرجى منك. سبع صنایع والبخت ضائع!" ثم اردف مبرراً مواسياً لحاله، مؤازراً لنفسه: "شنو أسوي؟ لا أمي فنانة مشهورة ولا هي فرنسية ولا أبي إنجليزي أو من هذه الأصول الغربية، ولا عمي سمسار محطات تلفزيونية فضائية ولا صحفي ولا مخرج سينمائي أو تلفزيوني ولا خالي يمسح أكتاف! هؤلاء كلهم مطاردون "معترون" كما يقول أخواننا الشوام، يعني بالأصل وكما أعتقد معترون، يعني يعثرون في كل خطوة يقدمون عليها، هاربون، قابعون، خائفون، لائذون!! هذا الموجود. إذا كان يعجبك فأهلاً وسهلاً وإذا ما يعجبك فالباب توسع جمل!"

شَعَرَ بشيء من الانزعاج والإحباط لكن ليس الكآبة ولا اليأس،
رجع إلى فراشه، أراد أن ينام. كانت زوجته لا تزال تغط في نوم
عميق، مستمرة في شخيرها، أطفأ النور الخافت، حاول أن ينام، دون
جدوى!

ثم جَرَّبَ مرة أخرى أن يستسلم إلى الرقاد على أنغام الشخير.
أغمضَ عينيه. ضايقته كثرة الصور والأفكار في رأسه.

تعبَ منها، ودَّ لو يتخلصَ منها. وضعَ قطعةَ قماشٍ سوداء على
عينيه، علَّه يتخلص من الأرق والقلق واللقطات والفلاش باك لكن بلا
فائدة. صورٌ أخرى كثيرة انهمرت عليه مثل زخات المطر الغزير
وحوارات وهلوسات. قال لنفسه "لو كنتُ شاعراً عبقرياً، فحلاً لقلتها
شعراً متأثراً بما يُنشر في هذه الأيام".

في الليل، حين ينامُ البشر

والطيور والشجر

تستيقظُ الهموم

ويطغى الضجر

تَبُّثُ عليك السموم

ويُخَيِّمُ الوجود

وسطَ واحةِ العمر

حدَّثَ نفسه قائلا: "دَعَاكَ من الهلوساتِ الآن وعُدَّ إلى دَيْدَنِكَ الأول،
عُدَّ إلى رُشدِكَ وأكملَ قصَّتَكَ أو احتفاليَّتَكَ كما يحلو لك القول".

تذكَّرَ خيوطَ القصة. عاد إلى نفسه مرةً أخرى، علَّه يتذكر شيئاً من
الكابوس، رفعَ جَسَدَه متكناً على الوسادة والحائط باقياً في فراشه
الدافئ، بدأ يكتب من جديد بقلم ذي لونٍ آخر.

ألقي نظرةً على أوراقه ونصوصه، راقته له فوضى الكتابة بخط
اليد وكثرة الملحوظات والهوامش والإضافات بمختلف الألوان،

الأحمر والأزرق والأخضر، وانزعج قليلاً من فكرة زوال كلِّ هذا التنوع الموزائيكي و"الاحتفال اللوني" في النص الكومبيوتري.

- نعم، تذكرتُ، كانت البنثُ تبكي، دخلتُ البنثُ بيئها باكيةً.

- يا أخي لا تُهبطُ قلوبنا، من هي اللَّي تبكي هذه؟ وثم ماذا؟ "ظُط أو طز فيها هي وأميركا، والشعب العربي عرف طريقه"!

- اصغ لي أيها الغبي المتعجل، ولا تتسرع يا أهوج، دعني أكتب لك ما قد تعتبره ثرثرةً، وإن كنتَ تعدّ كلامي مجرد هراء فما عليك إلا الاستماع بتركيز وقرأة الممحي وما بين السطور، فأنا أعني ما أقول وما أكتب. ألم تقل لي أكثر من مرة إنك تقرأ الممحي؟ يله راويني شطارتك! عليك أن تتيقن بأن ما تقرأه وتسمعه فعلاً ثرثرة أم لا. عندها يمكن لك أن تقرر التواصل معي أو الكف عن ذلك. والآن الله يخليك أتركني لحالي أعبرَ عما في دواخلي من هموم، صدقني أنت لم تفهم بعد حجم الكارثة والمستنقع الذي نخوض فيه، فاتركني الله يخليك أصول المأساة:

- يبدو أن أمها سألتها عن سبب بكائها، ولم تُجب البنث. لاحظ أنه يضعُ النقاطَ والحركاتِ على الحروف لكي يفهمه بعض الأغنياء، العفو أقصد الأغنياء. خطأ مطبعي كومبيوتري ليس إلا.

- يبدو عليك انزعجت من كلمة الأغنياء. وبالمناسبة كلا الأخوين ضرّاط. معلّش لا تزعل ولا تأخذ على نفسك فأنت لا غني ولا غبي. لازم عليك أن تحكّم عقلك. وهل من المعقول أن تُفصح البنث بصراحة عن سبب بكائها وخاصةً عندما يكون ذلك في اللحم؟

- أجبنتي ببلاهتك المعهودة:

- الله أعلم ماذا حدث لها، كل شيء معقول في هذه الدنيا. فعلاً، "كل شيء معقول" كما يقول المغني الكويتي البلوشي. صعدتُ البنثُ إلى غرفتها في الطابق العلوي. أرسلتُ الأمُّ ابنتها الكبرى لتفهم وضع أختها الصغيرة، سألت الكبرى أختها النائحة:

- شنو صار بيك يا بنت؟

لم تسمع البنت الكبرى منها شيئاً غير العويل ولم ترَ غير الدموع ونزلت خائبةً. فُقدت الأم صوابها. يا ترى ماذا حدث لهذه البنت؟ علم الأب بالأمر. عُقدت مشاورات ومباحثات ومداولات بل بروتوكولات بين الوالدين.

فَكَرَّ الأبُ ملياً بأن يعرضَ ابنته على الطبيب. أخذت الأم تصرخ بالبنت وتزعق بها، شهت عليها السكين مهددةً إياها بالقتل غسلاً للعار إن لم تخبرها عن سبب بكائها أثناء نومها. أرادت الوالدة أن تعرف سرَّ الحلم.

- قولي لي! أكو شيء؟ صار ببيج شيء، يعني شيء خطير؟

شَعَرَ الأبُ بغصّة عميقة، تألم كثيراً لأمرٍ خطيرٍ، قد يكون حدث لابنته. فَكَرَّ بشرف العائلة. لكن هل يمكن للأمر الخطيرة أن تحدث في الأحلام؟

يا إلهي، حتى الحلم ممنوع علينا، حتى الحلم لم يخلص منا نحن العراقيين!

وسمع صراخ زوجته ونحيب ابنته الصغيرة. تحول الصراخ إلى عراك ونحيب وعويل، بل وَلَوْلَا وندب ولطم الصدور. تَوَقَّفَ كُلُّ شيء.

انقطع المشهد. لم يعد هناك شيء يتذكره. اختفت الأم والسكين وابنتها ولا يزال الوالدُ محتضناً ابنته الصغرى الثالثة. تألم لانقطاع المشاهد.

كان مندمجاً به، متماهياً مع روحه في ذلك العالم، مفكراً في خوف الأم على ابنتها مما شاهدته في المنام.

تريدُ الأم أن تعلمَ كلَّ خصوصيات ابنتها وتفصيلاتها مهما صغرت حتى حلمها على قاعدة "الولد وما ملك لأبيه".

أيُّ أم حديدية هذه؟! بل أيُّ حَوَاءٍ هذا الذي يعيش فيه هؤلاء البشر؟
وتذكَّرَ أحدَ المرضى النفسيين من القادمين من بلاد النفط والحرب
والدمار، سأله ذات مرّة:

- إشلون الوضع في البلد؟
أجابه يائساً:

- إشلون يكون يعني؟ بلد نفطي وقائد عِطفي! واحد زمال، مخبَل، حتى
النغل يريد يعرف أصله وعندك الحساب، هذا وضعنا.
ثم أردف قائلاً ضاحكاً بحسرة:

- تريد الصدق؟ جماعته كلهم زمايل ومخابيل، كلهم مسودنين، وهذا
الأرعن العِطفي مالنه ما طلع من زرف الحائط، أقدر أقول لك
في بيت كل عراقي أكو واحد مثله مدوّخ أهله ويضرب خواته
وأخوته الصغار، ويكسر أضوية الشوارع بالمصيدة ويسحل
البزازين ويضرب الكلاب "المتعاصمة"! عنف فظيع! نعم يبدو
هذه طبيعة عراقية.

تذكَّرَ بعضَ تفاصيل الرؤيا، بل الكابوس، نَهَضَ من فراشه مرة
أخرى، حرَّك جسمه حركاتٍ رياضيةً، جال بناظريه في الغرفة،
تحرك في أرجاء بيته. غَسَلَ وَجْهَهُ بماء بارد، شَعَلَ التلفاز، توجَّه
إلى محطة السبي أن أن، قرأ الأخبار المكتوبة بالإنجليزية علَّه يجد
خبراً مفرحاً عن بلاده العِطفية كما يقول ذلك المريض نفسياً.

عاد مرة أخرى إلى فراشه، تناولَ القلم وراح يعاود التدوين! بقلم
آخر ذي لون مختلف. سمع صوتاً يقول له متهمكاً:

- أي تدوين هذا بابا، يا...الظاهر بدأت تتفلسف وتتصور كل ما تكتبه
من خرابيط تدوينات؟ "إشكول إشكول ورد الباقلاء!!".

- ليش هذا الانتقال من ورد الباقلاء؟ هذه شنو موقعها من الإعراب؟
ومن سيفهمها غير العراقيين الشعبيين، وبالمناسبة أنا أستغرب

السخرية من الناس من خلال تشبيههم بورد الباقلاء! والله هذا تشبيه مضحك يذكرني بالمثل العراقي: "هَمْ عَاجِبِ الذَّبَانِ يَفْسِي" وكان الفسوف محلل للبشر ومحرم على الذباب. أليست هي حاجة بيولوجية؟

يا رجل، الاضطهاد والانتقاص من الآخرين وفيهم، من طبيعتنا نحن العراقيين لا أكثر ولا أقل. أرجوك دعني أدون اللحظة الجوهرية لمجتمعنا، دعني أعمل ذلك وإلا سأموت، لا تقاطعني!

أنا شخصياً نصياً بخصياً مخصياً لا أفهم معنى هذا التشبيه، وانت، هل عرفت سبب إصاق ورد الباقلاء في التشبيه السلبي؟!

- انت تقلد، إذا كنت تسأل بجد فأقول لك: المعنى في قلب الشاعر!

المهم ما في الأمر أنه أعاد الكرة، وأخذ القلم وبدأ بتسجيل الصورة أو الهرطقة الأخيرة من حياته كما يقول، لكن لماذا حياته؟ هو نفسه لا يدري لماذا ولكن لا بأس، لنر كيف سيستمر في الكتابة، لكن كل المحاولات باءت بالفشل وعادت قواعده إلى قواته سالمه، أقصد العكس.

عاد إلى فراشه مرة أخرى أملاً في أن "جيوش النعاس ستغلبه هذه المرة". ما هي إلا لحظات حتى بدأ يطلق أصواتاً مثل "خووووو" يعني شخير واختلطت مع أنغام زوجته ونام على هذه السمفونية حتى الفجر.

في الصباح، استيقظ والحمد لله كان لا يزال حياً، تذكر صديقه الرياضي أندريه، كان مثله الأعلى، في الكلام، كان يقول عنه إنه يحب الرياضة، يلعب كرة القدم والبوكر ويركض عند انبلاج الفجر.

فكر أن يقلد أندريه، لكنه قرر أن يذهب إلى الشارع، حاول أن يجبر نفسه على ارتداء ملابس الرياضة، لم يحصل شيء من هذا.

خرج إلى الشارع، كان الطريق "يصوصي"، لم يكن هناك أحد غيره وامرأة تنظف الدروب، ألقت عليه التحية مبتسمة ابتسامه الصباح:

- صباح الخير!

قالتها مشددةً على مخارج الحروف بدون أن تنتظر إليه، قال لنفسه "لعلها تريد من يشدد على مخارجها"، ثم أردف متمتماً عاتبا على نفسه "شوف بالله إشلون أفكار سخيفه وسقيمه عندك، العقل السخيف في الجسم السخيف". نظرأثها غنث له مقطعاً من أغنية ناظم الغزالي: "لا آني مجنونه ولا عقلي خفيف".

وبينما كان يستمتع بجولته الصباحية، يمشي محاوراً نفسه كعادته، تذكر مشهداً مهماً آخر من الرؤيا. عاد الى البيت بسرعه البرق. مسك القلم والورقة وواصل الكتابة:

أية عجز هذه؟ إنها ليست امرأة كبيرة في السن كما كنت أتصورها أو بالأحرى كما بدت لي في اللقاء الأول، إنها تبدو الآن شابه تغني بحزن، لا، لا، إنها تبكي، هؤلاء العراقيون فاقوا كل الأقوام في أحزانهم، إنهم مخلوقات بشرية نائحة خارقة للعادة، هؤلاء يغنون حزناً، النواح والغناء والطم والنحيب والندب والوعيل عندهم مثل السلاطه والحلويات والمكسرات، العراقيون يستلهمون أحيانهم من نفس الجذور، قال لنفسه مواسياً "لكن ما دخلي أنا في الموضوع، إنها أم الفتاة الاولى التي كانت تتحب، بالله لا أعرف اسمها ولا أتذكرها، يا إلهي، إنها بدأت تمزق لو حتي المعلقة على الحائط، أفنيث أجمل ساعات عمري ولحظاتي الشعرية من أجل إعادة خلق العالم من جديد.

لا بد أني سأواجه مهمة الانتحار والخلاص من هذا العالم بعد الذي حصل من إهانات للكون الفني الجديد الذي ذبت فيه. لوحتي الجميلة، لوحتي المعبرة، منعنتها الرقابة، وتمزقها اليوم امرأة مخبولة مهووسة ببيكاره ابنتها، أي جنون هذا؟ بل أي طغيان هذا؟

قالت لي هذه الأم المعتوهة إنني أفسدت ابنتها، لوحتي فيها ملامح جنسية، هي طبعاً لم تقل كلمة ملامح، هذه واحدة مجنونة لا تعرف مثل هذه التعابير لكنها قالت بالحرف الواحد: انت واحد عاق ترسم بنت شابة مصلخة بدون ملابس، حرّبت عقل بنتي الله لا يسامحك، أدخلت أشياء فاسدة في مخها، بل في كل رأسها و في أجزاء أخرى

من جسدها وهذا هو سبب بكائها في الحلم. قاطعتها متسائلا: ألا يحق لها أن تحلم؟

صفعتني، بل لطمتني لكمة بقي رنينها في أذني لمدة طويلة، ذكرتني بتلك الضربة التي تلقيتها على يد رجل الأمن في شبابي. ماذا فعلت في ذلك الحين؟ ولم هذه الصفعة؟ لم أعد أتذكر الأسباب، لكنها بالتأكيد ليست أخطر من المطالبة بحقي في الحلم مجانا.

نحن شعب عريق، موع بالصفعات، حكمته المرفوعة ليلا نهارا: اضرب أخاك ظالما أو مظلوما. أو اصفع حتى يرهبك الآخرون.

المهم ما في القصة كلها هو أنا الفنان الحساس هنا وما الكون من حولي إلا إرهاصات. الكون كوني وأنا كووون شاعررري! وهذا طبعا لا يريده الآخرون. راقت له عبارة "الكون كوني" وصار يردددها ملحنا إياها ململما شفتيه كما يفعل المغنون الرومانتيكيون:

الكون كوني، الكون كوني،

وأنا وأنا وأنا وأنا

كوووون شاعري،

وأنا كوووون شاعري ي ي!

هؤلاء الناس مهووسون بهواية الاستباحة ومصادرة الآخرين.

قلتُ لهذه الأم الجبروت:

- هذه رؤية جديدة للكون يا رجل، عفواً أقصد يا امرأة، هي تكوين خلاق وإبداعي للعالم، إي، نعم، هي تكويني الخاص بي، ثم أنني عمري ما أدت أي واحد، وأقولها لك بالعربي الفصيح أنا لم أؤد ابتتك، لماذا هذه العدوانية منك؟ بدأت تعتدين علي، بالله عليك اتركيني لحالي.

لكن دون جدوى، صارت هذه المرأة أكثر مرارة وشراسةً وأصعب مراساً، تحولت الأم إلى قطة، نمرة، لبوة جائعة، كلبة مسعورة، صارت

تخربشني، تهرشني، تنهشني نهشاً، تعبت بكيانى، بدأت تمزقني إرباً
إرباً، نالت من ألوانى، الأحمر والأزرق والأبيض، حتى الأسود لم يسلم
منها.

يا إلهي! إنها تمزق لوحتي من جديد، امرأة شريرة للغاية، شرّانية
تفدح عيناها بالشرر، شرُّ هذا أم غضب من الله عليها وأهلها وناسها، يا
إلهي ماذا حلّ بهذا القوم؟ نساؤهم، يقطرُ الشرُّ ورغبةُ الانتقام والدمار
من أجسادهم، مزقتُ اللوحة، بدأتُ بغرس سكينٍ في صدرِ شابّة يافعة
برزت مفاتيحها جرّاء اهتراء ملابسها وسيط الشريطة.

قالت هذه الأم الأقاقةُ العدوانيةُ: "هذا إغواء، هذا يفسد بنتي".

يا ربي! اللوحة، حتى اللوحة لم تنتج منها مرة ثانية، هشمتها،
كسرت إطاراتها صارت تضربني بها، إنها خشبية قوية، من النوع
الجيد والغالي، تضربني هذه المرأة المكلوبة المهووسة بها، كسرتها
على رأسي، كنتفي، ماذا سأقول لهذه النفوس البشرية الممزقة؟ إنها
روحي وكياني فماذا سأفعل بدونها؟ وهل لي أن أعيش وأتفلس وأفكر
بمعزل عنها؟

من أين سأحصل على مثيلٍ لها، من أين سأتي بلحظات التألق
والوجد؟ الإطارات تكسرت، تضربني بلوحتي، يا إلهي أية قسوة هذه؟
من أين لكم يا ناس مثل هذه القساوة؟ أين المحبة والأخلاق والتسامح،
التي تدعونها وتنادون بها صباح مساء؟ لم يعد لديها شيء تضربني
به، صالت وجالت في المكان، راحت عيناها تبحث عن شيء تكسر
به رأسي، وقعت عيناها أو بالأحرى مقلتها المجردتان من كلّ إنسانية
على سلة الخضروات الجميلة، أخذت السلة بيديها المتورمتين،
خزرتني بعينين صخريتين وكانت أرنبة أنفها ترتجف والعرق
يتصبب من صدغيها، تضربني بالسلة، يا إلهي، أخ رأسي، أخ رأسي،
ما علاقة رأسي بالموضوع؟ طيب، الله يطول عمرك أتركي رأسي
لي وخذي الباقي لك! رأسي قوي أقوى من السلة، لن أتخلّى عن رأسي
رغم الصداع اليومي، رغم الشقيقة، رأسي كيانى وشخصيتي، رأسي

الكلب والسيدة القتيلة

كان الشابُّ الملتحي يوسفُ يقولُ لنفسه أشياءَ كثيرةً. كانت زوجته تتكلم معه بحدّةٍ، تُوجّهُ إليه انتقاداتٍ مستمرةً، حاولَ معها كثيراً. لا جدوى من ذلك. خرجَ من البيت بعد خصام. كان لا يبالي بها، يأخذها على "قد عقلها" كما يقول المثل. باختصار قرّر أن يكون حاسماً هذه المرة. ولكن مع مَنْ؟

إنه نفسه لا يعلم فيما إذا كان عليه أن يكون حازماً مع نفسه أو الآخرين. يوسف شاب في الثلاثين من عمره، متفائل، منفتح على الناس، مقبل على الدنيا والحياة والآخرين، يثق بنفسه والبشر وكل من حوله ولا يحمل حقداً أو ضغينةً على أحد، لكنه ليس ساذجاً بل يدقق كل الأمور قبل أن يقدم على عمل شيء ويعاني من الوجد والقلق والحالات النفسية كما كان يكرر قائلاً عن نفسه.

قل أن يحسم يوسف أمره وأن يكون له كلام أو يضع النقاط على الحروف كما يقال، قرّر أن يخرج من البيت إلى الحديقة العامة. لم تكن الحديقة بعيدة عن بنايته السكنية العالية، ما هي إلا لحظات حتى وصلها.

جلس هناك على إحدى المصطبات لفترة من الوقت، شَعَرَ برغبةٍ في التدخين، لم تكن في جيبه سيجارة. توجّه نحو أحد الجالسين على المصطبة المقابلة، كان الجالس شيخاً سميناً، ضخم الجثة، يدخل بهدوء.

طلب يوسف من هذا العجوز سيجارةً. فرح الشيخ لقدم يوسف إليه مقدماً له سيجارة بكل رحابة صدر.

رجع يوسف إلى مكانه مدخناً سيجارته بعد أن أشعلها لدى العجوز.

كان مهزوز المشاعر، والألم بادٍ على وجهه، لكن سرعان ما ابتلعه عالم الذكريات.

عندما تزوجا قبل بضع سنوات كانت زوجته في تلك الأيام ملاكاً بالنسبة له. إنها الحنين إلى تلك الأرض "الطاهرة الزكية البعيدة الطيبة". كانت كوكباً منزهاً! ابتسم يوسف لهذه العبارة، والآن تغير كل شيء، صارت تصرخ كثيراً. عصبية المزاج.

نهض العجوز من مكانه يمشي متثاقلاً بخطى ثابتة نحو يوسف، وقف إلى جانبه، بدأ يحدثه وهو يمسّد لحيته البيضاء بينما بقي يوسف جالساً في مكانه.

قال يوسف مخاطباً نفسه "قطع العجوز الأشعث الشعر سلسلة أفكاري! أيّاه، "سلسلة أفكاره"! هو واحد مثلك عنده سلسلة أفكار؟"، ثم أردف متابعاً وكأنه يدحض ما قاله "حتى سلسلة الأفكار محرّم عليك أن تمتلكها، وكأنها ثروة، رأسمال!".

يبدو أن الشيخ تعب من الوقوف على قدميه. قال ليوسف:

- تسمح لي أن أجلس هنا، إلى جنبك.

ابتسم يوسف إليه مشيراً له بالجلوس متمتماً بين نفسه ساخراً "زُقُوقُ مرزوق تعالي جنبي، تعالي جنبي!"، كان لا بد لهذا الشيخ الأشيب السكر ذي الأنف الأحمر الكبير أن ينطق بشيء، يبدو أنه ملّ انتظارَ صديق له، اختار يوسف جليساً له.

تمتّ يوسف بين نفسه "الله يستر من دوخة الراس وكثرة الحكي"، بعض المرات، كان يوسف يقول لنفسه "يا ليت لو أقدر أتكلم كثيراً مثل بعض الناس، يمكن يصير مزاجي أحسن". حدّثه الشيخ بعض القصص، لم يشعر يوسف بالرغبة في التجاوب معه، قرّر أن يتركه لوحده يعبث بلحيته الكثّة. اقترح عليه الشيخ أن يشتركا في شراء قنينة فودكا بالمناصفة على الطريقة الروسية ويشرباها سوية، لم

يُعجب الشاب يوسف بالاقتراح ، خشي الإغراء في الوقت نفسه.
هرب من الشيخ وقصصه إلى مكانٍ آخر. احتار يوسف إلى أين سيذهب، إلى أين ستأخذه قدماه. خاف أن يستمر في المشي إلى ساحل البحر أو التوغل في الغابة فيضيع فيها بعد أن سكن الليل. قرر العودة.
"قرار" العودة هذا يتطلب التفكير ويثير العواطف. كانت تتردد في أذنيه ترنيمات من نوع "لا بد أن نعود، لا بد أن نعود". إلى أين نعود لا أحد يعلم.

قال لنفسه "هذه أيضاً أغنية؟" ثم أردف متمتماً "كلُّ شيء له علاقة بالعودة والحزن والبكاء والحب يمكن أن يكون أغنيةً، مثل "مافيش قلب يحب كثير زي قلب العصافير، بلاش تحب يا قلبي بلاش، بلاش تحب يا قلبي كثير، بلاش بلاش، بلاش تصير زي قلب العصافير" أو مثل: "قلب المحب مثل قلب السمك" على قولة واحد كان يسخر من قلوب العشاق!

هؤلاء الناس يغتفون عن الحب صباح مساءً، ويعادونه شرّاً عداء! وتاريخهم مليء بالعنف والانقلابات ومصادرة الآخرين والحروب والقتل والدمار، عجيب أمرهم!

لكن إلى أين يمكن أن يؤولي الإنسان وجهه؟ إلى أين يعطي هذا الكائن العراقي البائس وجهه ففي هذا العالم الغائص بالمهانات والمهاترات والملاسنات والاستلابات والاستباحات الروحية والمادية؟ إلى أين المسير؟ إلى متى يبقى البعير على التل؟ يبقى البعير على التل حتى المساء.

هذا هو المساء قد حل فما عليك أيها البعير إلا العودة "عائدون عائدون" عاد البعير إلى أدراجه كما يقول القصاصون، لكن يوسفًا ليس طويلاً ولا يملك قنبورة ليكون بعيراً، ولا يتحمل العطش ولا يبول كالبعير. على أية حال ما في اليد حيلة وها هو يعود فلا تثريب عليه.

تَنَحَّحَ وَتَنَحَّحَ وقال لنفسه بالنبرة البدوية "هكذا قالت العربُ " لا عليك يا رجلُ، لا عليك، قل كلمتك وامش."

لم تكن زوجته تسمعه ككل الغيبات البليدات، وهو الرجل البعل، لم تتحدث معه. لا مبالاة غير محدودة، ها؟ أليس كذلك؟ قال لنفسه "ألن تقول كلمتك وتجلس بدلاً من أن تمشي!؟"

نعم، قال لها كلمته، جلس، تحدت إليها، قاطعته بطلباتها اليومية، بينما كانت ماكينة الخياطة تشتغل، رجاها أن تصغي إلى آخر قصيدة كتبها. تظاهرت بالاهتمام. قرأ لها المقطع الأول والثاني، قاطعته قبل أن يبدأ الثالث قائلة له: لا تنس أن تشتري لنا اللحم والفحم وأن تصلح خزانة الملابس. يعاتبها على مقاطعتها إياه، تبرر ذلك بأنها كانت تصغي إلى كل الحديث.

لكنها استمرت في الخياطة وصوت الماكينة يعلو ويعلو، "صوت الحق يعلو ولا يعلو عليه، يعلو ويعلو، على وزن الأغنية المشهورة: "وطن يمتد ويمتد"، قال لنفسه: أشياء أخرى كثيرة يمكن أن تمتد إلا الأوطان، كيف يمكن أن تمتد الأوطان؟ أليست هذه مصيبة؟ وكأننا لا نزال نعيش عصور الفتوحات والغزوات.

مرةً حدته أحد الشعراء البولنديين قائلاً بأنه قرأ لصديقة أوروبية
حاملة هلوسة الفجر:

على الساحل

أنثر

حبات

الرمل

وعلى شعرك

أرقد

لن أبعدَ عنكِ

في الصباح أحكي لك أحلى الأحلام

الحكايات الصغيرة والكبيرة عن شهر يار والسندباد

ثم هام "الشاعر الولهان" في الساحل، عاد إليها والوجوم يخيم على وجهه، أدار إليها ظهره متجهاً بأبصاره إلى أفق البحر البعيد. قلقْتُ عليه تلك المرأة الحاملة سائلة إياه:

- ما بالك؟ بِمَ تفكر؟ هل لا زلت تفكر بتلك البعيدة، لا زلتُ لا أستطيع أن أنطق اسمها حتى الآن، ولكن أعتقد أنك أسميتها في إحدى قصائدك "عشتار"؟ بالله أخبرني.

نظر إليها نظرة شاعر يحبسُ آلامه، تلمس شعرها الأشقر بيديه "المكعبرتين"، الخشتنين السمرأوين، قرأ لها اكتشافاته العظيمة:

في الأوهام

يسكنُ القلبُ عند اللنام

يبحث عن عقلٍ رصين

وحزنٍ ركين

ورأسٍ لا كالنعام

في الأوهام كان الحزن يهيم

يبحثُ عن حبِّ الآلهة

عن الدين وقوتِ الفقراء المكونين

وعن سيد الكونين والشرقين والغربين في أمم النعام.

طارت من الفرح صديقته الأوروبية المهووسة بالشرق، جن جنونها كما يدعي شاعرنا الولهان، علّق متواضعاً، والعهد على روايته:

- هذه ثرثرة وليست شعراً بالنسبة لي.

لم تعبأ بكلامه. تركته يقرأ الشعر في الغابة القريبة من البحر حيث

يستمتعان بسماع أصوات تلاطم أمواج البحر وخرير المياه وخشخشة الحشائش والأشجار وتستمتع هي بترنيمات الشعر متخيلةً الريف الشرقي حيث سحر البشر وثغاء البقر ونقيق الضفادع وصياح الديكة ونباح الكلاب تحت ضوء القمر.

كانت الأوروبية تنظر ساهمةً إلى الأفق مبتسمةً، بينما كانت أصابعها تعبت بشعره الأسود سارحةً بذاكرتها إلى عوالم الفيئة والقردة والأسود وزئيرهم واللون الأسود والقوة والدفء والحياة.

لم يكن الولهان يدرك ما في خلد هذه الجميلة وإلهامها وحبها لبلاده المشوكة الغريبة، التي لم ينم فيها يوماً وهو مرتاح البال. أي تناقض هذا؟ بلادي وإن جارت عليّ عزيزة.

أخبر يوسف زوجته الخياطة السلاطة الزلاطة الطباخة النفاخة بقصة هذه الأوروبية الرومانتيكية، ردت عليه ببرودٍ خيالي:

- رُح لها، يجوز تسمع أشعارك.

والآن ماذا لو ذهبت إليها حقاً؟ من يدري؟ قد تحصل على مكافأة منها، تأخذك بالأحضان قائلةً "تعال يا حبيبي؟"

كلا لم يذهب إلى أي مكانٍ آخر غير فراشه، إنه مخدع الزوجية!

أراد أن يخلد إلى النوم بعد عناء يوم كاملٍ مليءٍ بالهموم. يغمض عينيه ويحكم إغلاق جفنيه عليهما، بل يضع خرقةً سوداءً عليهما، تتزاحم الصور العجيبة في الخيال وتتداخل بشكلٍ غريب يصعب تصويرها أو حتى التقاط خيوطها، "شليلة" خيوط وضائع راسها. حتى سلفادور دالي لا يلتقطها.

عاد إلى الحديقة العامة. التقى الشيخ الثرثار من جديد، فرح مرحباً به ترحيباً حاراً كأنه التقى شخصاً عزيزاً عليه بعد فراق طويل، حدثه الشيخ عن أيام زمان، الحرب وقصص النساء وخياناتهن والخمر والمهربة والسفر.

فجأة، سمعا صراخاً، هرعا إلى مكان صدرت منه أصواتٌ عالية مثل الطلقات، هرولا إلى هناك بسرعة البرق، حتى الشيخ ركض بكل ما أوتي من قوة، كما لو أنه يخزنها لمثل هذه الظروف.

كان المنظر مروعاً: امرأة رائعة الجمال والبهاء، في متوسط العمر، وكلب كبير مثل كلاب الشرطة مقتولان بالرصاص والدماء تسيل منهما.

كانت الصورة تخفي قصصاً سرية مثيرة للشكوك والعجب والشفقة والآلام في الوقت نفسه. كان الكلب ممدداً على فراش القتيلة كأنه فحل الفحول، بينما كانت الجميلة في ثيابها الشفافة السوداء ذات خصوصية غامضة. قال له الشيخ بثقة عالية:

- لا بد أن قاتلها هو زوجها العقيد المتقاعد، كان يغار على زوجته من الكلب الأسود ويشك بعلاقة غامضة بينهما.

لم يتحمل يوسف الموقف ومنظر الدماء، كان المشهد مخيفاً ومروعاً بالنسبة له، صاح وصرخ بصوت عالٍ ولكنه لم يسمع صراخه كما في كلِّ المرات الاعتيادية.

فرَّ يوسف من النوم لصراخه العالي. كان خائفاً مذعوراً، تلمس جسده، كل شيء في مكانه، نظَّر حوله، لم ير الضحية ولا العجوز المدمن في غرفته. إذن كان ذلك مجرد حلم. تنفس الصعداء.

نهض من فراشه، وجد كل شيء على ما يرام: الأطفال والأم ينعمون بنوم هادي. أراد أن يتلمس الأقدام والأجساد النائمة.

لم يعضها الكلب، الدماء لا تسيل منهما. نظر من الشباك المطل على حديقة البيت، رأى كلهم "سالماً منعماً".

رَدَّد هذه العبارة مبتسماً متذكراً نشيد بلاده "موطني، موطني، سالماً منعماً، سالماً منعماً". سمع صوتاً في داخله يناجيه معاتباً "أنت تسخر كثيراً، أنت شايف نفسك شوفة"، عاتبه: "مَنْ قال لك هذا وَمَنْ سمح لك

أن تذكرُ أموراً أو أفكاراً على لساني؟ ومن أعطاك الحق أن تفكر بدلاً عني، أو بالأحرى عنا نحن الجموع الغفيرة من المتهورين والمتفانين والله أنت أمرك عجيب؟".

عاد يوسف إلى فراشه بعد أن تناولَ قَدَحَ ماءٍ، ابتسمَ، تذكَّرَ ما قال له أحد زملائه وأصدقائه من رواد مستشفى الأمراض العقلية:

- أنت تسخر من كل الأشياء وهذا واضح من أسلوب كلامك وطريقة حديثك وتلاعبك بالكلمات والأصوات والحروف، أنت تخلط الأوراق والأمور الجديّة بالبسيطة، أنت إنسان أمرك عجيب بالنسبة لي وللآخرين الذين يعتبرونك مغروراً وغامضاً، هم لا يميزون حديثك عن سخريتك وهذا أمر خطير، وبالنسبة هذا ما قالته عنك أيضاً تلك البنت الشابة التي التقيتها البارحة في المكتبة، أنت إنسان سلمي، لا مبالي، عبثي، لا أدري، عدمي، حرس قومي، مقاومة شعبية، شعوبي، معيدي "تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه، شرگاوي، تبعيّة وكوسمبوليتي ولا يمكن الثقة بك من الآن فصاعداً.

واسمخ لي أن أصارحك بأنك تبدو سمجاً وسخيفاً وموتوراً ودبقاً ونزقاً وشبقاً فـي بعض المرات على الرغم من حداقتك ولباقتك ولياقتك وأناقتك وكياستك أحياناً، لكنك صادق وطيب القلب.

هذه هي الحقيقة ويجب أن تعلم بأن أكثر مشاكلك الحياتية واليومية والمستقبلية مصدرها عبثك، باختصارٍ شديد، أنت عبثي!

هذا هو رأيي بك وأحب أن أصارحك به باعتبارك صديقاً حقيقياً والمثل يقول امش وراء اللّي بيكيك، وأترك اللّي يضحكك. صحيح أنا "خبالو" كما يقولون عني، لكن تعلم أن تسمع الحقيقة من المجنون، يعني هذا نقد ونقد ذاتي ويجب أن تتقبله برحابة صدر وتدفع لي 100 روبلا حسب قدرتها الشرائية الرسمية القديمة، أي ما يعادل 120 دولار أميركي لا غير وممكن أكثر بقليل، فنحن لا نمانع القيام بكل

شيء من أجل رفاهية الإنسان والمجتمع.

هذه نقطة قديمة كان هذا الشاب المثقف الناقد المشاكس المعاند المتعب نفسياً يكررها باستمرار في ذلك العهد، عندما كان الناس يمثلون بل يلعبون أدواراً ويطنلون ويهرجون في كل شيء، بينما انتهى الأمر به في مستشفى الأمراض العقلية وهو الإنسان العاقل الحاذق.

كان يوسف لا يزال ممدداً في فراشه يعاني من الأرق بعد أن أفاق من النوم جزاء الكابوس، تذكر زميلَ دراسته المجنون في الفلسفة، الذي لم يترك شيئاً دون أن يحلله ويفلسفه، كان يقول بكل جدية:

- كل واحد يخطأ لازم ينتقد نفسه ويدفع خمسة روبلات.

ومرات يزداد المبلغ عنده إلى مئات الدولارات حسب فداحة الخطأ المُرْتَكَب. وعندما يسأله زملاؤه عن سبب تصاعد الغرامة، يرد ضاحكاً:

- معلوم لازم تكون الغرامة تصاعديّة، كلما كبر حجم الخطأ كلما ازدادت الفواتير مثل نظام الضرائب، "كل شيء بحسابه والعدس بترابه"، على قول المثل، وبهذه الطريقة سننظم سكننا ومطبخنا المشترك في مساكن الطلبة، تصوروا لو أن المسؤولين الكبار وبالذات في العالم الثالث يدفعون أيضاً بالدولارات لجرائمهم؟ صدقوني أن كلَّ شيء سيُتعدّل في العالم.

كان زملاؤه في الجامعة يحبونه وتنشرح صدورهم لأحاديثه ويتمنون حضور جلساته في غرفته أو أثناء توجههم نحو الجامعة.

كان يمزح كثيراً بهذه الأمور. كان يسخر من الأفكار والنظريات العظيمة بدءاً من آدم سميث وانتهاءً بالمُنظّر بونومارييف والبيغاوات!

كان يوسف مستأنساً لذكرياته عن صديق روحه، المعاني من الوجد، شعرَ بشيءٍ من الراحة والاسترخاء بعد صدمته بمنظر المرأة القتيلة هي وكلبها في الكابوس الذي رآه.

تذكّر كيف كان صاحبه الشاب المتفلسف يسخر من كل الناس المعليبين،

كما يقول الروس وأنطون شيخوف، والمؤدّجين والمؤدّجين، والمدجّنين والمدجّنين من الذين يعيشون حياتهم اليومية كما تسير القطارات على السكك، أو كالخيول الجامحة لا تنظر إلا إلى الأمام.

قال يوسف لنفسه "باختصار، انت لا تختلف كثيراً عن صديقك المجنون، انت أيضاً إنسان "دهري" كما يقول العراقيون، يعني تحكي كثيراً، تتفلسف فلسفةً سفسطائيةً أو بيزنطيةً وتناقش كثيراً وتنصّب نفسك حكماً على الآخرين، تصدر أحكامك عليهم: هذا معلب أو مربّع أو مقولّب كما يقول الروس والإسكندنافيةون، وذلك ملتزم، وآخر مرتد وغيره مرن، وآخر معادٍ وموتورٍ وبخيلٍ، وآخر دعيّ وذلك معي أو إمعة. مَنْ أنت لتطلق عليهم الأحكام؟ ولماذا تظن نفسك أقدّر منهم؟

وماذا يعني كل هذا وما هي الخطورة في الأمر؟ "أمر خطير! هذا هو أنا و"الله هو الغالب" كما يقول الليبيون. هل أستطيع أن أغيّر نفسي؟" تمتم بهوء، ثم أرفف متابعاً، "وفي هذه المناسبة أتساءل: أين هو بونامارييف الآن هذا ولم يُغيّر نفسه قبل البيريسترويكا وهو العارف الحاذق؟ ولكن المثل اليمني يقول: "الحاذق خرج من السوق وما اشترى شيئاً".

ربنا يكون في عونه هذا الحاذق "المارق" بونامارييف، لو كان يوسف يعرف عنوانه لبعث له بعض الأدوية أو على الأقل طعاماً لا يفسد في الطريق، معلبات مثلاً، لا بد أنه يعيش آخر أيامه بعد البيريسترويكا، لكن الأعمار بيد الله.

واستسلم يوسف للرقاد بعد سيل الذكريات التي شرحت صدره. في النوم حلم بأنه نائم ويحلم، وأنه ذهب في الرؤيا إلى البريد ليرسل طرداً بريدياً مليوناً بغذاء المعلبات إلى الرجل المقولّب بونامارييف.

عندما استيقظ من حلمه الأول وَجَدَ نفسه نائماً تحت شجرة كالبتوس عالية، نفس تلك الشجرة التي زرعا أمام دارهم قبل أكثر من عشرين سنة وحُرم عليه أن يعود ليراها! أي ذكرى حزينة وأليمة، ماذا فعل ليحرم من بلاده أكثر من عقدين من الزمان؟ أي كارثة وأي مصيبة

هذه؟ أي قسوة هذه؟ ومع ذلك فرحَ كالطفل لهذه الذكرى متطلعاً إليها
بفخرٍ واعتزاز، ثم رأى في منامه نفسه بأنه يكتب ما رآه في قصة.

في الرؤيا، التقى يوسف الرجلَ المُعَلَّبَ المُقَوَّبَ، "حمار الطمَّه"،
كان كالعادة يرتدي معطفه الطويل الصوفي المعروف في ظهيرة
تموزية بغدادية ساخنة، كان الأطفال يركضون وراءه، ساخرين منه:
هَيه، هَيه، مَحْبَل! هَيه، هَيه، مَحْبَل!

حزنَ يوسف عليه كثيراً، وقف في اليوم الثاني ينتظره عندما يعود
من عمله في المساء مرتدياً معطفه الشتوي وقبعته، وكان الثلوج تتساقط
عليه ولا يبالي لها ولا لسخونة تموز القائظ، الذي يجتئن العاقلين
والأسوياء، ولا يكثرث بالناس والأطفال ولا بسخريتهم، حاول أن
يساعده، يحدثه، قال له إنه يريد أن يساعده لأنه رجل غريب، قادم من
روسيا، أراد أن يخبره بأن الجو حار هنا ولا ضرورة لكل هذه الملابس
الصوفية، ولكن دون جدوى رفض الرجل المُعَلَّبَ المُقَوَّبَ كل هذه
الاقتراحات، ولكنه فجأة قال بلهجة عراقية وبدون أية لكمة:

- وَجَّرْ عَنْ طريقي لا أضربك بالعصا! وَجَّرْ! زمال! وَجَّرْ!

- معقول هذا يطلع منك يا مُعَلَّبَ يا مُقَوَّبَ؟ آني حمار يا حمار؟ إذا
تضربني أروح أخبر صاحبك أنطون تشيخوف، الظاهر هو ما
يعرفك زين! أنت أيضاً عدواني مثلهم!

- رُح اشتر بعقلك حلاوه آني معلَّب عراقي، إيدي والسكين، نَـكِّره
سِلف! تشيخوف إشجابه علي؟ رُح أخي سجِّل أحلامك، المثل
العراقي يقول:

الما عنده شغل وعمل... يلعب ب... سامحوني يا جماعة!

الدنمرك 1990-1994

تُوزن تاك

أنت تُوزن تاك. أنت توزن تنتاك، فكما ترى فإن لساني يتلعثم وأنا أتأثأ عندما أخاطبك. قد يكون هذا من شدة الصدمة وهولها. أنت الروح وروح الروح. لن توازيك كلمة بوحدها، أنت أنت وبس، لا غير.

أنت عبقرى، أنت فطحل زمانك. أنت فطحل الفطاحلة، فحل الفحول، جهبذ الجهابذة. أنت قصيدة. أنت معلقة! بل ملحمة!

أنت تُوزن تاك، أنت توزن تاك. يا ترى هل لا زلت تذكر توزن تاك؟ أنت تذكر كل الأشياء ولكنك كالعادة تنسى أو بالأحرى تنتناسى.

أنت كالعادة مشغول لكنك بالتأكيد لن تنسى طريق الأشعار والقطط الصغيرة المغرم بها. أنكرت كل هذا متظاهراً بالاستغراب متسائلاً "أي قطط، أي غرام؟".

أترك عنك هذه الادعاءات والإنكار، دعني أذكرك بالأمر ولا تتظاهر باللامبالاة. كُف عن التظاهر بالسهو أو ضعف الذاكرة. أنت ذكي بلا شك، لكنك لست دائماً أذكى من الآخرين، هنالك فطاحلة مثلك أيضاً ويجب أن تعطيهم حقهم، أو على الأقل أن تحذر منهم. ولكن مع ذلك دعني أذكرك بالقصة.

كنت منغمرأً في أحاديثك ومغامراتك وخططك الجهنمية والمعجيين بك ونشاطاتك المسرحية على سطح البيت مع "أولاد ينطبق عليهم المثل العراقي: شعيط ومعيط وجرار الخيط"، وبحثك عن الطرائد الوهمية تماماً مثل إبراهيم عرب البغدادي، أو بالأحرى مثل "الجد النفاخ" في أغنية السيدة فيروز، هل تذكر أغنيتهما: "يا جدي يا أبو ذيب، يدك وين كسرتها؟" فيردُ عليها: بالصيد، بالصيد" فتصرخ به فيروز: "جدي، جدي، جدي؟"

قتلَ هذا الجدّ السباعَ والضباعَ. قتالَ قَتْلَةً!

أراك تضحك من هذا المثل العراقي "شعيط ومعيط"، هل انزعجت منه؟ ألا تذكر بأني قلته لك آنذاك وضحكتَ منه، أذكر أنك قلتَ لي "هذا كلام شعبي نادر الاستعمال في هذا الوقت".

وطلبتَ مني أن أجمع لك كل هذه العبارات الشعبية الشائكة عفواً أقصد الشائعة لكي توظفها في صورتك "الإبداعية". قلتُ لك في سخرية مبطنة: أنت بحاجة إلى مكتب من الأذكىاء لكي يعملوا لديك. رمقتني بنظرة مندهشة قائلاً:

- من قال هذا الشيء.

- هذا ما كنت تردده، نسيتُ؟ كيف ذلك؟ ألم تطلب مني ترجمة قصصك إلى الإنجليزية؟ قلتُ لك أنا مشغول وهذا أمر يحتاج إلى وقت طويل. رددتَ على الفور:

- إذن تَرجمُ القصائد، هي سهلة، ولا تحتاج إلى وقتٍ كثير، ثم إنك موهوب وسريع الترجمة. وبصراحة والحكي بيننا هي قصائد قصيرة. في كل سطر كلمة وفي كل صفحة بياضات كثيرة لا تحتاج لترجمة صعبة.

قلتُ لك ساخراً حانقاً على طريقتك في الكلام عن الأدب:

- لا، أني سريع الاشتعال والاحتراق والوهج واللهب والالتهاب والعطب والعطل، ما أقدر على الترجمة، هي تحتاج إلى مزاج وخاصة البياضات والفراغات بين السطور والكلمات. قل لي بالله عليك إشلون راح أترجم قصيدتك التي هي عبارة عن ورقة بيضاء؟ أنت تعرف أني ما أترجم حرفياً!

صرتَ عصبياً وخفتَ من مسألة المزاج. على أية حال كنتَ أيام الصبا والشباب تحب قضاء الوقت على سطوح البيوت وترتاد المقاهي وتكره المدرسة والمعلمين، أليس كذلك؟

كان وجهك متغضنا، عيناك كانتا شاردين ومنطفئتين، رددت عليّ
بجفاء:

- خَاص، خَاص، انتهى الموضوع، ماكو داعي للترجمة.

تَجَهَّمْتُ ملامحُ وجهك كالطفل، حاولتُ مواساتك قائلاً:

- لكن شنو المشكلة؟ وليش الانزعاج من هذه الذكريات؟

كنتَ تقولُ لي إنك نسيت، ولا يهم لدي سواءً نسيت أو تناسيت.
وهل من المعقول أن تنسى كيف أضعنا الطريق؟ دعني أتذكر القصة.

كنا، أنت وأنا نمشي الهوينى إلى الأمام، نتقدم مجموعة من
الشامتين بك، الساخرين منك، كنت تسميهم الأعداء. كان عليك أن
تدّلم على عنوان مكان الأمسية، الذاهبين إليها، أضعت ولم يعد له
وجود في رأسك المحشّش هذا كما كنت نفسك تقول عنه. كنت خائفاً،
لائذاً بالفرار منهم، محتمياً بي ويقصائدك، تقرأها عليّ وأنا مُشْتَنَّتُ بين
هلوساتك وصداعي وسخریات أعدائك. يومها كنت مشغولاً بقراءة
قصيدتك في أذني وكنت أعاني من الصداع. هل أصغي إليك أم إليه؟
سينفجر يافوخي بالتأكيد.

أنا والصداع وأنت ودونكيشوتياتك وقصيدتك الجهنمية وكان
الطريق يأخذ بنا إلى الطريق، والحريق إلى الحريق.

كان الجو ساخناً ليس كعادته في هذه البلاد، ولكن أعصابنا كانت
في حالة تاهب قصوى! "خوفاً من ضربة منجنيق في بلادٍ ليس لنا
فيها صديق، ولا نعرف فيها الطريق".

هذه عبارتك وردت في قصيدتك وليست لي. كنا نسير في الشارع
بحثاً عن المكان بينما أنت لا تأبه لا بالجغرافيا ولا التاريخ، مشغول
أنت بالإلقاء، أنت تقرأ وأنا أسمعُ مطباتك وأنبهك بين فترة وأخرى

مؤنباً إياك كما لو كنت طفلاً صغيراً:

- انتبه إلى الطريق واسأل الناس عن عنوان المكان الذي نقصده،
السؤال مو عيب.

كان الجو ساخناً والعجائز يسرنَ متمايلات بملابسهن الزاهية في
الشوارع الجميلة، قلتُ لك متوسلاً:

- اسألهنّ يا رجل. أكيد يعرفن المنطقة هنا شبراً شبراً، يمشينَ بها
مغمضاتِ العيون دون أن يُتَهَنَ مثل ألكسندر بلوك في مدينته
بطرسبورج.

وحالما سمعتَ باسم بلوك بادرتِ قائلاً:

- بالله عليك احكِ لي عن بلوك وأشعاره.

- أنت صحيح بطران، اسألْ هذه العجوز يا أخي عن العنوان، خلينا
نروح نشوف المكان، تعبنا والجوع قتلنا.

كان الشامتون لا يزالون يمشون ورائنا، يتسلون بنوادهم عنك.
يصرخون بين فترة وأخرى "هذه أمسية أم قصة عنتر يا فطحل؟".

سألتِ امرأةً وفهمتُ منها تقولُ لك: إلى اليسار ثم إلى اليمين والخ،
كنتِ تنظر إليها، تقرأ القصائد في عقلك، تشهق أثناء الكلام مثلهم،
تشكرها:

- تُوزن تاك، تُوزن تاك، تُوزن تاك، يعني ألف شكر، ألف شكر.

أذكرُ أنني قلت لنفسي في وقتها: "يا ربي لك الحمد والشكر، أخيراً
راح نصل للمكان".

وسألتك متحرجاً:

- تفهم كلّ كلامهم؟ تعلمتِ لغتهم؟

أجبتني على الفور:

- معلوم، ولوّ، أني أكتب الشعر بلغتهم.

ولكن لم يبقَ شارعٌ إلا ودخلناه، لم يبقَ زقاق صغير إلا وسلكناه، لم تبق امرأة إلا وسألتهَا، ومع ذلك لم نعثر على المكان. الناس يقولون لك إن المكان المنشود قريب من هنا. وأنت تُصرُّ على إلقاء القوائد عليَّ بخطابيتك المعهودة. خرجتُ عن طوري قليلاً، قلتُ لك منزعاً وبالعربي الفصيح:

- يا رجل قصائدك عظيمة لكني تعبت من هذه الظاهرة الصوتية العربية كما أنك لست واقفاً على خشبة المسرح، وأنا أترف وأقر بأنك صووووتٌ وخبيبييرٌ من الدرجة الأولى بلغة أهل البلد، لكن أنا والله تعبت من المشي وهلكت ورجلي تقطعتُ، الله يخليك ارحمني. كنتُ ألح عليك، أقولُ لك:

- خَلِّني أسألهم بالإنجليزية.

ترفض، تردُّ عليَّ:

- لا، لا، هُمَّه ما يحبون الحكي بغير لغتهم.

- من قال لك هذا؟ بالعكس، أصلاً هذوله يتمنون ويحبون الحكي بالإنجليزية.

تعبتُ من المشي. جلستُ مقابل بنايةٍ في الظل، بينما جلستُ إلى جانبي قرأتُ قطعة البناية العالية. مكتوب عليها: دِنْ نورسك بَنُك. يعني بالعربي: البنك النرويجي. سألتك عن معنى كلمة دِنْ، أجبته بأن كل مفردة في هذه اللغة تبدأ بهذه الكلمة! سألتك: هل هي أداة تعريف مثل The الإنجليزية؟ هل هذا نفس الشيء؟

نظرتُ إليَّ نظرةً باهتةً بلهَاءَ، بعينين شاردين وجامدتين من خلف نظارتك المعتمة. أردتُ أن تلقي لي مقطعاً من مقاطعك الشعرية. سألتُك كأي أمتحك:

- أكو عندنا مثلها بالعربية؟

أجبتُ بسرعه وكان أمراً ما يشغلك:

- لا، اسمع هذا المقطع، أرجوك، طُرْ بكلمة "ين" و "دث" خَلينا من هذه الأمور الفارغة، أنتَ ليش تدوِّخ راسك بها؟

- بَسْ أَني أريد أعرف: هل هي، أقصد "دث" أداة تعريف؟

- سَأَلْتُكَ مُصْرّاً وكانت عينك تواصلان التهرب مني رغم اختلافهما خلف نظارتك، أُجِبْتَنِي شاردأً مشيحاً بوجهك عَنِّي:

- ها، يمكن، أعتقد، ولكن أكو اختلافات.

- ضحكتُ منك، استجبتُ لسخريتي منك، متسائلاً مجاملاً إِيَّاي:

- ليش تضحك؟

- أضحك من جوابك، وكأنك تبيع في بازار أو سوق من أسواق بغداد الشعبية، تقول: "اختلافات"! أخي هذا علم قواعد وثوابت ونكرة ومعرفة. هذه يا سيد يمكن تكون أداة تعريف، يبدو ذلك.

تماديت بالضحك قائلاً:

- إي شَسَوِّي لَكْ، انتَ تعرف أَني صفر بالقواعد ونسيت حتى النكرة والمعرفة، بالمناسبة هي شنو بالضبط هذي النكرة والمعرفة؟

- الله يسامحك، أديب وما تعرف النكرة والمعرفة، خَلينِي بالله عليك أسأل هذا الرجل عن المكان باللغة الإنجليزية، بيين عليه صاحي وما مآثرة عليه البيرة.

لكنك رفضتَ ورفضتَ. ادّعتِ أَن الناس هنا لا يصفون لك المكان بدقة وأردفتَ قائلاً:

- لا، لا، الطريق واضح ومعروف بالنسبة لي. أَني متأكد راح نصل، هذا الوصف أفضل من كل المرات السابقة.

قلتُ لك ساخرأً، ضاحكاً بلطافة تقبَلتَها برحابة صدر:

- انتَ فعلاً ينطبق عليك المثل العراقي: اللِّي ما يعرف يرقص يقول الكِّعاع عوجة! أسمعك تُكرّر: توزن تاك، توزن تاك، أصبحت

لازمة: ألف شكر، ألف شكر بلا فائدة. يبين عليك ما تفهم كلامهم!
كانك أطرش بالزفة!

ضحكت من المثل العراقي كعادتك، قلت لك متمادياً:

- وتضحك؟ إلك وجه تضحك به؟ فعلاً أنت غاسل وجهك ببولك كما يقولون عنك.

وأصبت بنوبات من الضحك، كنت مستهتراً عفواً أقصد متهتراً
وواصلت الضحك ونحن لا زلنا في ضياع وضياح، هل الأمر حقاً
بهذه الصعوبة؟

أصدقاؤنا السائرون وراءنا أخبرونا بأنك لم تفهم شيئاً مما كان
يُقال لك من شروح، لكنني لم أصدق هذا، أنا نفسي ضعيف بالجغرافية،
قلت لنفسي: "قد يكون هو أيضاً مثلي مصاب بالشروذ الذهني"، ولكن
تبيّن لي فيما بعد بأنك ضائع وغائب عن الدنيا، سارح وشارد من كل
شيء، "إمدولغ" ومقطوع من كل العالم! تعيش على هامشه ولا
يشغلك غير أمسيتك وإلقاء الشعر. والله حقك! فهل هناك شيء في
الحياة أجمل من تحقيق الذات. أنت جميل، أنا والله سعيد بك. أنت
فرحي الدائم والمفروض مني أن أكرّس وقتي لك. أنت شخصية فذة!
لم أعد أحتمل. أردت أن أسأل أحد المارة عن المكان بالإنجليزية.
مانعت، مشيراً بيدك اليمنى إلى بناية عالية، قلت:

- هذه هي البناية "بعينها وعيانها، هذا هو المكان اللّي نريده".

فرحت كثيراً وأشرت إلى الأصدقاء نحو البناية، تعالت زغاريدهم
ساخرين، وتخلّيت قدح ماء بارد كنت أحلم بشربه ليروي عطشي في هذا
الجو الساخن. فاجأتني بأنك تريد أن تأخذ تاكسي! قلت لك مندهشاً:

- لكن المكان قريب، ثم إن سيارة واحدة لا تكفينا جميعاً!

كنت تنظر إليّ ببلاهتك المعهودة، عينك الحقيقية صارت تشبه
الزجاجية الأخرى، بل أكثر لمعاناً، الآن فهمت نظراتك الكسيرة

المتوسلة، شعرت بالأسى والتعاطف معك، قلت لك حازماً جازماً:

- **خُني** أسأل عن المكان بالإنجليزية بنفسى أو الألمانية.

- لا، لا، لا، من الأفضل أن نحل المشكلة بالتاكسي. الجماعة تعبوا،
وبصراحة ضاع الخيط منى. احترق الفيلم.

قلت ذلك بارتباك وأسئ ملحوظين، وحرنتُ عليك، بينما كان
الآخرون يصرخون بين الفينة والآخرى:

- ها، لقيتمُ الكنز؟

تقدمتُ من امرأة لأسألها بدون أن أطلبَ أذنأ منك، لم تعترضْ
عليّ في هذه المرة، فرحتُ، على الأقل لكي لا تدفع تكاليف التاكسي.
كانت المرأة الشابة الشقراء تسير ببطءٍ مع طفلين صغيرين يشبهانها،
يبدو عليهما العز والدلال، ارتسمَ الحذر على وجهها. عندما اقتربت
منها، بادرتها بكلمة طيبة بالإنجليزية سبقتها ابتساماً:

- هل يمكنى أن أسألك؟

- بالتأكيد!

قالت بهدوء وثقة عالية بالنفس وعاد الاطمئنان إلى عينيها.

- هل يمكنك أن تدلينا على هذا العنوان يبدو أنه قريب منا إلا أننا
أضعنا الطريق؟

أجابت بتلقائية مبتسمةً بهدوء:

- ذلك هو شارع أوستر جاده.

قالت كلامها مشيرة بيدها اليمنى إلى الأمام وكان الشارع غير بعيد
عنا. ثم أضافت قائلة:

- وأعتقد أن البناية التي تريدونها، هي تلك الزرقاء ذات الطوابق
الخمسة، إنها تبدو واضحة من هنا.

- توزن تاك. ألف شكر!

تَقَلِّباتُ الفطحل محاكاة ساخرة

بداية المحاكاة

الأول... يبحثُ عن المبادئ.

الثاني... يعيش ولا يعيش، يلهث وراء الظلال.

الثالث... يشرب الشاي ليلاً نهاراً، الشاي خمر الثوار والمناضلين

الرابع... يداهن ويدخن غليونه.

الخامس.. يخون ويلهث وراء الآخرين

السادس.. فطحل، جهبذ، عبقرى، بهلوان، بتاع كله،

جاك! كيفما ترميه يقف،

أولاد آخر زمن!

والله يا زمن!

في أمسية شعرية جماهيرية ألقى الشاعر الفطحل قصيدة مطلعها:

اسألوا عنا في كل مكان نحن جهابذة هذا الزمان

يُقال إن هذا البيت من قصيدة ارتجلها الشاعرُ الفطحلُ، وقيل على لسان أحد الرواة المخضرمين إن المناضلَ الفطحلَ العبقرى لم يرتجلها بل نظمها نظماً وبقيت عنده أكثر من حَوْلٍ فعدت من الحَوَلِيَّات، ثم ظهر بها على الملأ وكان عجز البيت عنده "نحنُ فطاحلة هذا الزمان" وليس "جهابذة هذا الزمان" بسبب سخرية بعضهم ومثلهم من وقع هذه الكلمة وجربها لتكرارها في صحافتهم.

يتفق مع هذا الراوي المخضرمُ أغلبُ الرواة الآخرين بغض النظر عن اختلاف مدارسهم الأدبية ومذاهبهم الفقهية وطوائفهم ونحلهم

وملّهم وانتماواتهم الفكرية ومشاربهم وولاءاتهم الحزبية.

إنّ الفطحلَ طفلٌ حبيبٌ مثل نور العين والحياة والقلب والكبد وكل الإحساسات العاطفية وغيرها، ولا أدري إن أُجد في العالم مثل هذا النوع من المشاعر، لكنه على أية حال اصطلاحٌ أُستعير منه، ومَنْ عاشَرَ القَوْمَ أربعونَ عفوّاً أقصد أربعين يوماً صار منهم.

كلُّ هذه الأمور والظواهر مجتمعة في شخصٍ واحدٍ. أليس هذا وحده معاناة كبيرة؟ كيف يُمكن الكتابة عن هذه الشخصية العبقريّة بدون تذكّر قصة آلام فرتر الرومانتيكية الحزينة، وبدون أن تُذرف الدموع على الورق.

كيف يُكتب عنه بموضوعية؟ يبكي المرء لحال هذا المسكين المعاني من الحب والحياة والفقر والجوع والأنين والسياسة والنضال ومقاومة الطغاة.

قد يقال إنه الخيال الذي ذهب بهذا المهوس إلى أبعد المتاهات، خيال المجانين وجنون المتخيلين، الذارفين الدموع، ولكن يا فطحل قد تقول أشياء وأشياء أخرى كثيرة لم تصل إليها مخيلتي. على أية حال يحق لك أن تقول كل شيء، أو تفكر بكل شيء ولك الحق في أن تفقد الثقة بالآخرين وربما بي. وقد يقول قائل هامساً لي:

- لا بأس، لا بأس، هوّن عليك، يا أخ العرب، دَعُهُ وشأنه!

لا ريب في ذلك، لكن لا تظن أن ذلك يعطيني الحق لأن أهملك أو أهتيمك عفوّاً أقصد أهتيمك أو أخشى منك، بل بالعكس، فأنا أكسب العدو قبل الصديق بالنظرة قبل كل شيء. جرّب مرة أن تنظر إلى الكلب خائفاً أو شاكاً، من المؤكد أنه سيشم رائحة جسدك وسيعاملك بنفس الطريقة، إلا أنني لن أقوم بذلك وسأبذل قصارى جهدي من أجل خدمة الحزب والدولة.

ماذا تقول؟ غضبت على التشبيه بالكلب؟ ليتك كنت كالكلب في

وفائه! ألم يُشبهه الشاعر العربي أحد الخلفاء: "أنت كالكلب في وفائه
وكالتيس في ركب الخطوب!"

وأنت أيها الفطل، لا بدّ أنك ستكون أيضاً أحد القراء. ستقرأ
بالتأكيد هذه المحاكاة والمحاورات.

أنا أعرفُ أنك قليلُ القراءة وأعلمُ شيئاً آخرَ مؤلماً هو أنك لا ولن
تحدسَ الأشياء. يعني "لن تلتفها وهي طيارة" كما يقول المثل لأنك
لستَ خصبَ الخيالِ مهما حاولتَ الادعاء بالفنطازيا.

لو كنتَ فطحلاً حقيقياً لعرفتَ ذلك، ولكن ألم أقل لك دائماً وأبداً
بأنك ماركة مزورة!

ولهذا سأبقى أناديك بأعلى صوتي دائماً وأبداً:

فَط.....حَلْ، فَط.....حَلْ

وما عساي أعمل؟

هل تريدني أن أبقى مكتوف الأيدي أمام ظاهرة الفطحليزم وأغض
النظر عن فطحلياتك الكثيره؟ إنها مسؤولية الكتابة كما تقول أنت أيها
العزيز، هل تذكرُ أغنيةَ العنديلِبِ الأسمر عبد الحليم حافظ؟ الذي كنتَ
تعشّقُ أغانيه، وحننتَ لغيابه الأبدى: "دي مسؤولية عزيزة عليّ،
مَعزّة الروح والحريه"؟ مسؤولية الحكم على ظاهرة إسهال، عفواً
أقصد إصدار الكتاب تلو الكتاب؟ بالمناسبه، أين صديقك الأول أيام
مرحلة الدراسة الأولى، كان طفلاً مرافقاً أكبر من عمره بكثير، كبير
العقل، صغير العمر والحجم، وكننت رجلاً شواربك مخطوطة، طويلاً
و"الطول طول النخلة والعقل عقل الصخلة"، كنتَ فطحلاً جائعاً كما
كان أصحابك يسمونك. لم تستطع التركيز على الدراسة وكننت تعاني
من الشرود الذهني كما كان الأستاذ يقول لك، كنتَ تتضايق كثيراً منه
ومن ملايسك المتهرئة والضيقه، كنتَ أطولَ من زملائك الآخرين،
أكثرَ خشونةً، كثَ الشعر، تُخفي عينك بغرة شعرك الطويلة وبأية

طريقةً ممكنةً وغير ممكنةً، وكان بعضُ زملائك يتمادون في السخرية من اسمك: طايح، الذي حوّلوه إلى طايح منادين إياك: طايح يا طايح! يا طايح الحظ، وكنتُ مسالماً تضحكُ كثيراً معهم. أنتُ في الحقيقةً نفسك أولُ مَنْ سَخَرَ من اسمك، غيرتَهُ من طائع إلى طائح، من طايح إلى طايح، أنتُ نفسك كنتُ تردّدُ باستمرارٍ ساخرأً: أنا طايح مو طايح لأنّي ما أريدُ أطيع أي واحد، أنا طايح، طحت من بطن أمي لأنّي كنتُ جاي مستعجل للنديا، أنا طايح مو طايح، أنا طايح الحظ والبخت!

كنتُ تحلم بأن تصبح ممثلاً كوميدياً وكُنتُ تكرهُ الجلوسَ في صفوف الدراسة، تَهَرَّبُ مَعَ زملائك من المدرسة. ملّنتُ الدوامَ المدرسيَّ حاملاً بيديك بعض الدفاتر والكراساتِ المتهرئة. كان زملاؤك التلاميذُ في وادٍ وأنتُ في وادٍ آخر!

تَهَرَّبُ من صفوف المدرسة والمعلمين لتقرأ لصديقك القصائد والأشعار عن ماريّا وتتناول وجبات الطعام في دارهم و"دارهم ما دمت في دارهم"، كما يقول المثل، أتعرف أين هو الآن؟

يُقال إنه حصل على الشهادات في القانون ويؤلف الروايات والكتب ويعاني من القلق والشك لكنه يتمتع بأجمل لحظات الصدق والألق ويراجع ويدقق ويحقق وينمق وينسق، هذا الذي كنتُ تقرأ له قصائدك عن ماريّا:

ماريا

أستحلفك بالله عودي

عودي

إليّ أيها القمر

عو

دي

عو دي، عو دي، عو دي،

ار... جعي، ار جعي، ار جعي
دعيني بك أتباهي
هلمي، هلمي يا شياهي
فماريا الحب قادمة
وحُب ماريا يباهي
أنقذني يا إلهي
فقلبي يتهاوى
وماريا تلوح في الأفق، تسمو وتتعالى.

كنت تلعبُ معه، تلهو بكلِّ شيءٍ، تعبتُ بوقتكَ وقوته، الزمن عندك
لا قيمة له، يمضي بشكلٍ متوازٍ مع الهوس والهلوسة، أنت تقضيه بكل
هذه الأشياء وإلا ستغدو الحياة أمراً مستحيلاً بالنسبة لك، تتلاعبُ
بمشاعره، الحياة كلها عندك لعبةٌ، تُخرجُ المشاهدَ المسرحيةَ، تُسجِلُ
الأشرطةَ، تقرأ له القصائدَ تلو القصائد، تُلقِيها بصوتٍ عالٍ، وهل
يملك صديقُك المسكين غير الاستماع إليك؟ أم تُراك نسيته ونسيته
خيراته؟ وهل هناك من ينسى أيام الصيف الجميلة والسطوح والحدائق
والشواطئ في بغداد؟ كنتَ تحب مياه دجلة، تهرب إلى السواقي
الصغيرة لتعوم مع الأولاد هرباً من القَيْظ العراقي وحماة شمس
الظهيرة. لكنك هربت من هذا العالم بعذاباته وآلامه باحثاً عن الغيوم
والأمطار والمعاطف المطرية، تمشي بها متلفتاً يميناً ويساراً كأنك
بطل من أبطال هولي وود.

أنت الآن شخصٌ آخرٌ، كلُّ شيءٍ تغيّرَ فيك، تمشي في طرقٍ نظيفةٍ
ترزيناها فضلات الكلاب. رحلتَ بعيداً إلى أوروبا تجوبُ شوارعها
معتماً نظارتك الشمسيةَ ومعطفك المطري مساءً وصباحاً، صيفاً

وشتاءاً.

وبكثك أمك الحزينة، الجائعة المسكينة. كانت والدتك تترقبُ قدمك في كلِّ مساءٍ أثناء جلوسها وأبنائها وبناتها حول صينية الشاي. كثيراً ما كنت تتطلع إلى نفسك أمام المرأة، شاب طويل القامة فاحم الشعر، أسمرَ البشرة بمعطفٍ مطري طويل ونظارة شمسية، كانوا في العراق الصعب يسمونك: كعيبر، كعيبري! لكنك الآن والحق يُقال شاب وسيم في نظر هؤلاء الأوروبين لامحالة.

كانت أمك تود أن تراك ناجحاً في المدرسة. ست سنوات وهي تنظر وتنتظر، عيناها تتطلعان إلى الأفق وتنتظر، عسى ولعلك تنجح وتحصل على الشهادة، لكنك كنت كعادتك مبدعاً عبقرياً تكره الأسانده الأغبياء ممّنلم يفهموا ولم يستوعبوا قدراتك الإبداعيةً وخيالاتك الإلهامية وزيارات آلهات الشعر وجنّياته لك في الليل وترددك الدائم على وادي عبقر. لكن يا حرام بقيت الأم المسكينة تدعو وتدعو الله لينجحك وتندر النذور تلو النذور، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

مرةً، حوّر أحدُ زملائه شطرَ هذا البيت للمتنبّي، قال له: السفنُ مستفزاً إيّاه، خطأه الفطلُ محاكياً طريقة العلامة مصطفى جواد:
- قُل السفنُ ولا تُقل السفنُ.

ردّ زميله عليه وقتها متمادياً في الاستفزاز، لكنه لم يكن متأكدًا:
- "مسكين جمهوري قديم" طول عمرك حاسب نفسك فطل زمانك، ألم أقل لك يصح الأمران؟ السفنُ، قادة السفن، مفردها السفنُ!
أراد الفطلُ أن يناقشه، لكنه تراجع، ضحك آنذاك ضحكته الطفولية العميقة الحقيقية من "مسكين جمهوري قديم"، سأله عن هذه العبارة ومصدرها، نسي الفطلُ قصة "السفنُ والسفنُ":

- "مسكين جمهوري قديم"؟ من أين لك هاي العبارة؟

أجابته صديقه المناكف المتخابث:

- كان عندي صديق يمانى، كنت أناديه أبو يمن، كان يحب ترداد هذه العبارة، يبدو أنها سخريّة من النظام الجمهوري عندهم.

وكان صاحب الفطل ملاسناً، مناكفاً، مشاكساً متحايلاً ومتخابثاً بعض الأحيان، إلا أنه وبشهادة الفطل نفسه ليس حاقداً ولا متحاملاً ولا مختابلاً ولا مكابداً ولا خائناً. كان هذا الصديق معتدّاً بنفسه إلى درجة الغرور أحياناً، يُصوّب الآخرين متربصاً لهم، متصيذاً إياهم كالطرائد، وكان العبقرى كثيراً ما يقع فريسةً شهيةً في كمائنه.

وكان الفطل بالمقابل يكنّ كلّ الودّ والاحترام لصديقه ويتقبّل منه كلّ السخريّة لأنها تصدر منه عن حسن نيّة كما كان يعتقده.

كان هذا الصديق ينصبّ للفطل فخاً فيوقعه به ويقرأ عليه محاضراته مصوباً أخطائه على طريقة الأساتذة. سمع هذا الزميل الفطل في إحدى المرات يقرأ نصّاً بصوتٍ عالٍ ساخراً من الكتب المدرسية ومن أساليب التعليم مبرراً هروبه من المدرسة: "أحب الناس لي أمي ومن بالروح تفديني".

يردّ عليه صاحبه بطريقة أستاذيّة لا تخلو من السخريّة:

- قلتُ لك: أحبُّ الناس لي أمي ومن بالروح تفديني وليس أحبُّ الناس لي أمي ومن بالروح تفديني. صار كمّ مرّة أشرحها لك!

واليوم وبعد عدة سنين مرّت والغربة الطويلة تعتقد أنت أيها العبقري أنك كبرت وصرت "مسنّفاً" يعني متقفاً مولعاً بكتابة القصة القصيرة والشعر، و"شو عليه؟ كما يقول الأخوة الشوام، يعني "ليش لا" لست وحدك في اللعب، لست الأول ولا الأخير، ولكن الطامة الكبرى بقيت تجادل في أمور مُبتّ فيها صارت كالمسلّمات والبيديهيات. لا يزال الفطحل كعادته، لم يتغير فيه شيء، "ذاك الطاس وذاك الحمام" كما يقولون، يستيقظ صباحاً، ينتظر قدوم ساعي البريد، دودة لا تتحمل الانتظار، يَسْتَفْتِحُ يومه بالبريد كما يقول هو نفسه.

قال له أحد أصدقائه بمناسبة "الدودة" التي يعاني منها، هل تذكر تلك الطرفة الشائعة عن شخص مريض ذهب إلى الطبيب قائلاً:

- دكتور، إيدي انكسرت!

- اشلون انكسرت؟

- دكتور، آني صعدت على الدرج الخشبي ووقعت على القاع الإسمنتية وانكسرت إيدي.

- زين، خذ هذا دواء لعلاج الديدان!

كتب الطبيب الوصفة وأعطاها للمريض الذي بدت معالم الدهشة واضحة على وجهه فقال:

- دكتور آني إيدي انكسرت، شنو علاقة هذا بالدود؟

- إشلون شنو علاقته بالديدان؟ انت أصلاً ليش صعدت الدرج؟

- والله دكتور نسيت بالضبط، بس أعتقد أردت أن أطلع فوق، للسطح.

- ليش؟ إيش عندك فوق بالسطح؟

- دكتور، هذا صار تحقيق، آني أصلاً نسيت السبب!

أجابه الدكتور بهدوء:

- لازم تعرف إنّه لولا الديدان لما صعدت الدرج! خليك هنا بمكانك،

"ما طار طير وارنفع إلا كما طار وقع!".

اِخْتَنَمَ صَاحِبُهُ طُرُقَتَهُ قَائِلاً:

- خالي يسافر كثيراً إلى الخارج وفي كل مرة أسأله: أرجوك الله يخليك شوف الناس هناك في الخارج عندهم مثل نكتة الدود العراقية؟ وكل مرة يقول وكأنه يعيش في هذه الدول: "أبداً، ما عندهم، هذه نكتة عراقية أصلية ما لها مثيل حتى في الدول العربية". غرق الجميع في ضحك جماعي تخللته تعليقات.

لكن أموراً كثيرةً تغيرت في حياة الفطحل فقد تعلمَ تنفسَ الهواء الطلق ونسيمَ الحرية في البلدان الجميلة، وصار له مسكن خاص به له حرمتُهُ لا يدخله الغرباء بدون دعوةٍ منه لهم، ولا يزوره إنسانٌ أينما كان بدون اتفاق أو دعوةٍ مسبقةٍ. ولهُ عنوان ثابتٌ وصندوق بريدي خاص به. لم يعد أحدٌ يسخر من شكله أو شعره الفاحم أو سمار بشرته أو كِبَرِ أنفه وغلظة شفثيه بل صار هذا ملاذاً لشفاه الأوروبيات الجميلات، وما كان يُعدُّ قبيحاً صار مبعثاً للإلهام والخيال والجادبية بالنسبة للفتيات المهوسات، بينما صارت البلاهة والشروود وعدم التركيز واللباقة سبباً للتعاطف والمودة والمحبة ورمزاً للمسالمة.

تغيرت ملامح شكل الفطحل نحو الأجل والأفضل إلا عينه الكريمة بقيت كما هي عليه مختفية خلف النظارة المعتمة وخصلة من خصلات شعره.

كان يردد كثيراً "راحت أيام المزيّن وانقضت أيام اللّف" وانتهت السنوات العجاف، وصار الفطحل يتعمّ بكلّ ما يتمناه المرء لكنها تبقى حالة كفاف وشكوى من ضيق الحال وقصر اليد اعتاد عليها بمرور الزمن.

الطفل في بلاد الشمال

الناسُ الطبيعيون فـي هذه البلاد المُرقَّهة يذهبون إلى المدارس والمعاهد والعمل إلا هو يذرع شوارع المدينة كلها، لم تبقَ زاويةٌ منها "تعنتب" عليه، لم يبقَ شارعٌ أو سابلةٌ أو طريقٌ أو جادةٌ أو دربٌ أو دربونةٌ أو زقاقٌ أو ممرٌ أو حتى ممشى في المدينة وحاتها دون أن يمرَّ به جيئةً وذهاباً كما كان يفعل في شارع الرشيد حيث كان يحصي أعمدته كل يوم كما كانت والدته تعيِّره ساخرةً منه!

تأخَّرُ ساعي البريد الشاب الأوروبي الهادي، أو غيابه أمرٌ خطيرٌ بالنسبة للطفل، يلتقيه صدفةً في الطريق، يبادره بالسؤال:

- هل من رسائل لي؟

- لا، ليس لديك رسائل.

- ألا يمكنك أن تتأكد مرةً ثانية؟

- أنا متأكد، لقد وزَّعت بريد بنايتكم.

يبتسم له ساعي البريد مودعاً إياه بغمزة عين ودية، يقتنع الطفل مضطراً، يبدو الحزن على ملامح وجهه، يقول بأسى:

- ألف شكر، ألف شكر، ألف شكر،

ينظر إلى الأشجار العالية والغيوم، كادت تسقط من عينه دمعة.

سأله مرة ساعي البريد متعاطفاً معه، فيما إذا كان ينتظر رسالة من والديه أو من شخصٍ بعيد، كدَّبَ الطفلُ، ردَّ عليه بالإيجاب متذكراً بألمٍ بأنه لم يكتب إلى أهله منذ زمنٍ طويلٍ متمتماً "أي أهل هؤلاء تركوا ابنهم الطايح الحظ والبخت "كسعةً في مهب الريح" كما كان مدرس العربية يقول لهم أيام زمان، ولم يستلم منهم لا خبر ولا "حامض حلو ولا كفيته!" منذ سنوات "عاق!" قال لنفسه، كانت لديه رغبة في البصاق على وجهه.

استفسرَ منه مرةً صديقه بهدوءٍ وخبتٍ ولكن بدون حقدٍ أو ضغينة،
ناظراً إليه نظراتٍ ساهمةً مُلملمًا شفثيه، شاعراً بالحرَج، كأنه يبيّت له
أمراً.

- بالمناسبة شنو أخبار أهلك، ليش ما تساعدهم؟

- انت فعلاً أمرك عجيب! أني المسكين أساعدهم؟ ثم انت ما تعرف
وضعهم؟ الوالد أعدموه، والأم تحت الإقامة الجبرية، والأخ الفنان
قتلوه، وأختي زوّجوها بالغصب لواحد ضابط بالأمن، وأنّي ما
أعرف عنوانهم.

أجابه صاحبه فوراً ببرودٍ أكثر من السابق:

- كافي نفخ بعد، البارحة سألت والدي عن أهلك بالتّلفون، وقال إنه يعرفُ
والدّك المرحوم ويقول إنه مات موت الله من زمان وحالياً يلتقي بعمّك
بين فترةٍ وأخرى، أعطاني عنوانكم وأنا كتبتّه وهذا هو خذ.

أخرَج صديقه قصاصّة ورق وأعطاهها له، ثم بادره قائلاً له بهدوء:

- وبالمناسبة أختك الكبيرة مرتاحة عائلياً وزوجها رجل محترم جداً ويساعد
الناس ضمن الحدود والإمكانيات، وهي صديقة أختي وكانت تشتغل
وإياها معلمة في نفس المدرسة، أما أخوك الفنان فكان يريد يتزوج
واحدة أهلها رفضوه، لأن ما عنده لا حرفة ولا وظيفة يعيش منها ولا
شهادة، والبنت من عائلة غنية وهي جامعية، ويقولون هي ما كانت
متحمسة له، بسّ هو ركب العناد رأسه وصار يلح ويضغط عليها
ويقولون تحرّش بها وصارت مشكلة وصوّبه ابن عمها بطلقة، بسّ
الحمد لله صارت الطلقة برجله وعالجوه وكل شيء ماشي وهم يسألون
عك ويعتبون، يقولون ليش ما يكتب لنا ويبحث لنا عنوانه؟ هذا كل ما
في القصة، وماكو داعي تسويها مناحة! يا رجل أنت من سائل عليك
هناك؟ يكفي تبيع بطولات برؤوسنا! أهلك يقولون: صار لك سنين ما
عندك صلّه بهم وأرادوا أن يقرأوا على روحك الفاتحة لأنهم اعتبروك
في عداد الأموات!

كان الصديق يتحدث إلى الفطحل محرّكاً يديه نحو الأعلى والأسفل، ماسكاً رباطة جأشه، متظاهراً بقوة الشخصية والصرامة والصراحة والثقة بالنفس، بينما كان الفطحل واجماً، أصفر الوجه، مندهشاً كلّ الاندهاش، صامتاً، لم ينبس ببنت شفة، إلا أنه قطع فترة صمت قصيرة:

- يا أخي انت من أين لك كل هذه المعلومات؟ أي ما أعرف بيها، ثم أي ما طلبت منك تسأل لي عن أهلي، إشلون لقيت هذه الفكرة، إشلون والدك يعرف والدي؟ انت فعلاً تحيرني، وآني...
قاطععه صديقه قائلاً بحزم وثقة أكبر من السابق:

- اسمع، انت ألف مرّة قلت لي ولكل الناس، أهلك كلهم هلكوا وصاروا في خير كان، هذا صحيح لولا؟ أكثر من مرّة قلت لك: أي أقدر أسأل والدي عن أهلك وهو أكيد يعرفهم، صحيح؟ لا تنكر ولا تعاند وانت تعرف بشكل جيد وكش زين أن والدي وأهلك أصلهم من نفس المدينة وآني قلت يجوز والدي يعرفكم. كافي مبالغات. والأنكى من هذا وذاك انت منقطع عنهم بحيث تصوروك مُتّ شهيداً بطلاً في كردستان!

- لا ما أنكر، بسّ يعني...

- لا بسّ ولا هم يحزنون، أي كنت أحكي وإيّا الوالد بالتلفون رغم خطورته لأنه مراقب وانت تعرف المخابرات، وبالصدفة سألته عن أهلك، "باي ذه وَيّ"، يعني بالمناسبة وإلا أي شنو دخلي بالموضوع وشنو داخل بجيبي؟ بالعكس خسرت تكاليف المكالمات التليفونية، بسّ قلت لنفسى خليني أقدم له خدمة حتى بعد ما يسب ويشتم ويتعصب ويردد سمفونيته: واحد مقتول والثاني معدوم والثالث تحت الإقامة الجبرية، يا أخي تساهل، ليش تسوّدها وتبكي بوجه الله. انت تحب رسم الأدوار الكبيرة والتراجيدية لنفسك وتأليف القصص الدونكيشوتية.

- شُوف، انتَ تسخر، انتَ دائماً تَقْد، بَسْ صدقتي هذه هي المعلومات
اللي وصلتني عنهم، يعني بييش تريد أحلف لك حتى...
- أخي لا تحلف لي ولا أحلف لك، روح أكتب لهم رسالة وابعث لهم
كم فلس، أو على الأقل سلام، تحية، هدايا.
كانت الكلمات الأخيرة موحزة، هبّ منتفضاً:

- أني من أين لي فلوس أنت والله تحكي عجائب غرائب؟
- خلاص يا أخي لا تكتب لهم رسالة ولا هم يحزنون، راح أقول لهم
انت فعلاً كنت في كردستان وميت هناك راح أخبرهم أو بالأحرى
أزف لهم البشرى: انت مُتَّ شهيداً في الجبال! والله يرحمك، انت
تريد تبيع بطولات على أهلك، أني شنو دخلي بالموضوع، بَسْ
ردت...

قاطعه الفطل بصوتٍ هادئٍ وكأنه يسأل عن سر:

- المهم، قل لي: انت أعطيت عنواني لأهلي؟ أخبرتهم بأنه أني أعيش هنا؟
- طبعاً لا، تتصورني ما عندي أصول مثل بعض الناس؟ أني ما
أعطيتهم لا عنوانك ولا رقم تليفونك، بَسْ هم يعرفون انت مقيم هنا
ويريدون يكتبوا لك رسالة على عنواني حتى أوصلها لك، لا
تتصورهم أغبياء. خلاص، أني دوري انتهى، لكن على الأقل ما
راح اسمع منك مناحات ودونكيشويات لأن صرت أعرف حقيقتك.
صحيح الحكومة تعتقل وتقتل الأهالي بالآلاف وتدمر وتسفر الناس
من البلد لكن من حسن حظ أهلك عابشين والحمد لله بَسْ يجوز هذا
من سوء حظك لأن ما راح تقدر تبيع بطولات برأسي.

- انت تتمسخر، وهذا هو سبب استفسارك عن أهلي، انت قلت لي مرّة
بأنني غير مطارء، انت يا أخي عجيب أمرك، انت تحيرني.

- اسمع، انت غير مطارء، وماكو واحد سأل عنك، بَسْ انت يا
الرايحين وياكم ويا الجايين وياكم، تريد تعيش في جو ما يجيب لك
غير الهمّ والعَم وتكتب خطابات وتوقع بيانات معارضة ضد

الحكومات وبعدين تقول هذا البلد منعني من السفر وذاك اعتقلني
وأخر يريد يغتالني وأهلك بسببك يعانون من الخطر في الداخل.
انت تريد تببع بطولات براس أهلك! يكفي عاد!
تطلع الصديق إلى الأمام كأنه لمح شيئاً تذكره، ودّع الفطحل قائلاً
له بعفوية مصوباً نظراته إلى عينيه الضبابيتين:

- آني عن إذنك، لازم أروح، عندي موعد، مع السلامة.
- مع السلامة، أرجوك، لا تخبر أي واحد عن موضوع أهلي،
وبالمناسبة إذا أهلك اتصلوا بك مرة ثانية وسألوك عني قلّ لهم آني
فعالاً مِتّت بكر دستان.

قالها بصوتٍ كسير، حزين وملامح وجهه تفضح قلقه وتفكيره في
أشياءٍ أخرى، ودّ صديقه أن يقول له "موتة الكلاب والقبير وبالجهنم!".

- اطمئن، بس أنت سيد العارفين: حبل الكذب قصير!

كان الفطحل يهّم في إحدى المرات بالخروج من منزله مع ضيفه،
رآه ساعي البريد، بادره فرحاً:

- رسالة لك، تفضل!

- شكراً.

فَنَحَهَا وَلَمْ يُعْرِها اهتماماً، قالَ لمرافقه متذمراً:

- شفت؟ ماكو واحد يكتب لك رسالة في هذه الأيام لوجه الله أو حتى
يقدم لك خدمة، بس المحتاج يكتب لك، شوف هذا صاحب الرسالة
يريدني أبعث له دعوة زيارة بالفاكس لا وفوق هذا يريدني أتصل
به هاتفياً حتى أخيره بعض الأمور اللي ما تخصني إطلاقاً،
يتصور الفاكس ببلاش هنا.

ردّ عليه مرافقه بعتابٍ ودّي:

- ولكن انت هم طلبت من الآخرين المساعدات، نسيت؟ يا رجل الناس

لبعضها، أكيد هو سبق وساعدك، تساهل وإياه.

- لا، لا، هذا أمر مختلف تماماً.

- هذا حال الدنيا كما يقول المثل العراقي: "حب واحك، واكره واحك".

وهل هناك أكثر من العراقيين والعرب كلهم من العاربة والمستعرية،
والأكراد والعجم والأتراك ومن لفَّ حولهم، من ينطبق عليهم هذا المثل؟

لَمْ يُصْغِ الْفَطْحُلُ كِعَادَتِهِ لَصَدِيقِهِ، قَاطِعُهُ نَاطِرًا إِلَى الْأَفْقِ قَائِلًا لَهُ
بِهَدْوٍ وَرُومَانْتِيكِيَّةٍ مَمْسُوحَةٍ وَصَوْتٍ شَاعِرِيٍّ مَرَهْفٍ:

- الْبَارِحَةَ رَحْتُ إِلَى الْبَحْرِ، صَدَّقَنِي بِقَيْتِ هُنَاكَ طُولَ الْيَوْمِ، وَكُتِبَتْ
قَصِيدَةٌ، خَلَّيْنِي أَقْرَأَهَا لَكَ، بِاللَّهِ عَلَيْكَ إِصْغِ لِي، إِصْغِ.

وَيَبْدَأُ الْفَطْحُلُ يَقْرَأُ قَصِيدَتَهُ الطَّوِيلَةَ لَصَدِيقِهِ حَتَّى أَنْهَاهَا بِهَذَا الْمَقْطَعِ:

هناك...

عند شاطئ البحر

ترفد أيامي

هناك في الكوخ

تستيقظ أحلامي

فتعالني

يا حورية البحر

إلى منامي.

تنفس صديقه الصعداء قائلاً لنفسه "الحمد لله"، لكنه والحق يقال
أعجب بها وتعاطف مع الفطحل مبدياً امتنانه لما في ذلك خدمة هامة
للثقافة العراقية بل العربية كلها وشجعه على نشرها في ديوانٍ خاص
صغير.

أنهى الفطحل قصيدته متألماً متأففاً قائلاً بحسرة:

- تَصَوَّرْ، هُنَا فِي هَذَا الْبَلَدِ! يَخْسِرُونَ الْأَلْفَ وَالْأَلْفَ عَلَى الْإِعْلَانَاتِ

و على البضاعة ويطبعونها أجمل طباعة، ولكن يا أخي جَرِّبْ واطلب منهم أن يطبعوا لك مجموعة شعرية أو حتى قصيدة، راح تشوف قدامك الوجوه البائسة وما راح تسمع منهم غير "ماكو فلوس، الوضع تعبان، الأمور صعبة، قد تسنح لك فرصة أخرى للنشر".

كَانَ الْفَطْحُلُ حَزِينًا لِلْغَايَةِ، تَضَامَنَ صَدِيقُهُ مَعَهُ، حَاوَلَ أَنْ يَبْرِّرَ لَهُ الْأُمُورَ:

- هذه صحف تجارية تهتم بالربح والخسارة وتحكمها قوانين العرض والطلب، لا تهتم لأمرها ولا لصحفيها، عندهم كتابهم وشعراؤهم وصحافيهم المأجورون وعصاباتهم الخاصة بهم، إشلون يدخلونك وإياهم بدون التأكد منك.

بدا له أن هذه العبارة الأخيرة أعجبته، كررها بنفسه وخطها بعود الثقب على رمل الأرض أثناء جلوسه.

أراد صديقه المتعاطف معه أن يقرأ له قصيدة يبدو أنها صارت استفزازية للفطحل، قال له:

- انت حبيب القلب، اسمع قصيدتي الجديدة.

- قصيدتك؟ انت تكتب شعر؟

سأله باندهاش في شيء من السخرية نابساً بشيء ما بحزن:

- إي، طبعاً، أشوفك متعجب. المهم، اسمع القصيدة بس أني كتبتها في غرفتي لكن لا رحى لا للبحر ولا لخطابة أو أصوات عالية أو خشبة مسرح أو منصة ولا هم يحزنون:

لي صديقٌ شاعرٌ عظيمٌ

يُراقِبُ نَفْسَهُ مِنْ بَعِيدٍ

بعيداً عن بيوت البكاء والندب والنواح والعيول واللطم

من منافيه، من فيافيه، من شُموسه

يسأل عن الحبيب

أين البلبل الصداح؟
والغناء؟ أين طيور الحب؟
والكناري والزاجل والنوارس؟
هل رحلتُ إلى أعشاشها أم إلى أحزانها محلقة في السماء
فوق البحار والمحيطات وجزر الكناري؟
يَنظُرُ إلى روحه مرة،
يُراقِبُ البحرَ فيها مرتين
مرة في الصباح، مع كأس شاي
مرة في المساء مع كأس الراح.
أين العنديلبي؟
أين غناء الهزار؟
ينظر إلى روحه مرة
يُراقِبُ السماءَ فيها
مرتين
ثلاثَ مراتٍ
مرة في الفجر
مع طاسة ماء
يشربُها من جرّة فخار
مرّة في الصباح
مع طاسة خَمْرٍ
يشربُها من رومية تَغزَلُ بها أبو نواس
ومرة أخرى في المساء
وغيرها، وغيرها....

عَاوَدَ الكَرَّةَ مرَاتٍ ومرَاتٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَى القَطْرَةِ القَاتِلَةِ "يَشْرِبُهَا
بِالْفُنْدَرَةِ" كَمَا يَقُولُ العِرَاقِيُّونَ الشَّعْبِيُّونَ، وَلا تَعْجَبُ مِنْ هَذَا الوَصْفِ
الشَّعْبِيِّ المَوْغِلِ فِي المَحَلِّيَةِ، فَقَدْ وَجَدْتُ قَبْلَ مَدَّةٍ إِعْلَانًا لِشَرِكَةِ كَبِيرَةٍ
تَبِيعَ الأَحْذِيَةَ وَالمَشْرُوبَاتِ الكَحُولِيَّةِ وَغَيْرِ الكَحُولِيَّةِ، وَمَنْ يَتَنَاوَلُهَا مِنْ
الجَنَسِيِّينَ مِنْ أَصْحَابِ الأَقْرَاطِ فِي الأَذْنِينَ.

كَانَ الإِعْلَانُ عَلَى شَكْلِ بوسْتَرٍ كَبِيرٍ مَرسُومٍ فِيهِ شَابٌ جَمِيلٌ،
وَسِيمٌ، بَهِي الطَّلَعَةِ، يَشْرَبُ سَائِلًا قَدْ يَكُونُ عَصِيرًا أَوْ خَمْرًا أَوْ نَوْعًا
مِنَ الأَعْنَابِ يَنْسَكُبُ مِنْ حِذَاءِ!، لا تَعْجَبُ يَا صَدِيقِي وَلا تَنْدَهَشْ أَوْ
تَسْتَغْرِبْ فَكُلْ شَيْءٍ مَكْرَسٌ هُنَا لِلرَّفَاهِيَةِ وَالحَدَاثَةِ، وَالانْطِلَاقَةِ
الشَّعْرِيَّةِ، بَحْثًا عَنِ الهِزَارِ، بَحْثًا عَنِ الغِنَاءِ وَلكِنْ دُونَ جَدْوَى.

إِنَّهُ الحَرِثُ فِي الأَرْضِ البُورِ

إِنَّهُ الخَوَاءُ وَلا مَفْرَ مِنْهُ

لا وَحَى وَلا قَاعَةَ وَلا رِوَاقَ

فِي زَمَنِ النِّفَاقِ.

كَالعَادَةِ لَمْ يَسْتَمِعْ الفَطْحُلُ إِلَى الإِلْقَاءِ، كَانَ صَامِتًا شَارِدًا مَتَظَاهِرًا
بِالإِصْغَاءِ، كَانَ التَّمَلُّمُ وَاضِحًا عَلَيْهِ، لَمْ يَفْهَمْ طَبِيعَةَ الإِبْدَاعِ، وَلا حَتَّى
الاسْتَفْزَازِ. لَمْ يَدْرِكْ التَّلْمِيحَ. كَانَ صَدِيقَهُ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَهُ أَيُّهَا الفَطْحُلُ
إِنَّكَ مَصَابٌ بِجَنُونَ العِظْمَةِ تَكْتَبُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، لَكِنَّكَ ظَاهِرَةٌ صَوْتِيَّةٌ.
صَمَمْتَ الفَطْحُلُ. لَمْ يَقُلْ شَيْئًا مَا. قَطَعَ رَفِيقُهُ حَبْلَ الصَّمْتِ، قَائِلًا
بِنِبْرَةِ بَدَتْ غَرِيبَةً:

- هَذِهِ القَصِيدَةُ نَشَرْتَهَا صَحِيفَةَ "المَوْتِ"، إِي وَاللهِ أَنِي مَتَفَانٌ وَلِهَذَا
أَنْشَرُ فِي صَحِيفَةِ لَهَا هَذَا الاسْمَ!

يُفَاجِئُ الفَطْحُلُ بِالخَبْرِ، كَانَ وَقَعَهُ عَلَيْهِ كَالصَّاعِقَةِ:

- بَشْرَفِكَ، إِشَوِّقْتُ نَشَرْتَهَا عِنْدَهُمْ؟ عِنْدَكَ عِلَاقَةٌ جَيِّدَةٌ وَإِيَاهُمْ؟

المَهْوُوسُونَ لا يَسْمَعُونَ غَيْرَ طَنِينِهِمْ وَلا يَقْرَأُونَ، يَكْتَبُونَ وَيَكْتَبُونَ.

طلب الفطحلُ منه حالما انتهى صديقه من القراءة أن يسمع له قصيدةً
أخرى قائلاً:

- اسمع التكنيك الحديث، إنه أوج الحداثة، اسمع هذه الغنائية:

التفاحةُ

لن تعشقَ

الحديدَ

فهل تسقيه يا

برتقالة، يا برتقالة

هَيْلَه يا رمانة، هيله يا رمانة!

الخوخ

لن

يعشقَ

الخشبَ

فهل تسقيه

يا رمانة، يا رمانة، يا رمانة

قال الفطحلُ لصاحبه:

- لاحظُ الإيقاعَ الشعري والرمزَ والتراثَ والموروثَ الشعبي والتطورَ

الصناعي والمديني في مفردات الحديد والخشب وحضور المربع

الخضراء والريف في كلمات مثل الخوخ والبرتقال وهيله ورمانة.

هكذا ختم قصيدته بتعليقٍ عمومي ثم أردف قائلاً بعصبية:

- ولكن مَنْ يسمع ومَنْ يقرأ؟ صدقتني أني راسلت وبعثت مئات

الرسائل والمقالات والقصائد للصحف ولكن ما استلمت ولا جواب

عليها، يا أخي أني لحد الآن ما أفهم هذه الصحف والمجلات

واشلون عندها هيجي إدارة سيئة لا احترام للمثقفين ولا الشعراء،

يا أخي إحنه نحمل هموم العالم على أكتافنا وَهُمَّه ما يباليون لكل هذه الخدمات والمسؤوليات الكبيرة التي دَنَسَوِيها.

يا أخي المشكلة العويصة هي هَمَّه ما يردّون على رسائلك إذا ما يعرفوك شخصياً أما الأجانب فهَمَّه بالحقيقة يردون على كل رسالة تصلهم.

وقبل أن يُكَمَلَ حديثه العاطفي الحماسي والحزين قال له محدّثه بهدوءٍ ومواساةٍ كأنه يخاطب طفلاً:

- ولكنهم هنا يردّون على الرسائل بسّ مو بالضرورة بالإيجاب.
قاطععه قبل أن يكمل حديثه:

- صحيح، ولكن المشكلة التي وقعنا فيها هي أننا بين فكين وكل فك عنده شروطه حتى يأكلك.

- إي، نعم، بين المطرقة والسندان، لكن بالله عليك انتّ بيك شيء يأكلونه؟ انتّ إنسان مهشّم، عفواً أقصد مهشّم، تعيش على هامش المجتمع وصرت مثل الهشيم، أهل البلد يقولون عنك، عفواً أقصد عن أي غريب: دَبِق، طفيلي يعيش على ُفَتَاتِ موائد الآخرين!
وغرقا في ضحكة عميقة. لم يَأَبه الفطحل بسُخرية صديقه، تقبّلها برحابة صدر، كان فرحاً وطيباً ولكن ماذا عساه أن يفعل؟
رَدَدَ له بلهجة خطابية ساخرة:

- هذا هو زمن الخراف وحزن الفولاذ يا أيها الفطحل الفولاذي. وأنتّ ظاهرة صوتية لا تزال تكتب وتكتب، فهل هذا صحيح؟ أنتّ مواظب على جهودك الجليّة ولكن من أجل من ومن يستحق؟

الفطحل والفيزيت كارد

شيئان آخران كان صاحبا العبقري الفطحل مولعاً بهما، يفكر بهما الساعات والليالي: المكتب والفيزيت كارد، يعشق الفطحل بطاقة الزيارة أو زيارة البطاقة كما يقول في أشعاره، مكتوب فيها اسمه ولقبه وعنوانه ورقم هاتفه وتنزوي هناك بخجل كلمتان: كاتب/ إعلامي. يتفحصها الفطحل بإعجاب صباح مساء، كان بوّده أن يكتب عليها كلمة: شاعر، لكنه لم يرَ شخصاً في حياته كلها قام بذلك، لم يسمع أن أحداً لديه فيزيت كارد مكتوب عليها شاعر. أن يقول المرء عن نفسه: شاعر كَمَنْ يقول عن حاله: أنا إنسان طيب، أنا إنسان خَيْر، أو جيّد! كَمَنْ يَمْدَحُ نَفْسَهُ، وَمَنْ مَدَحَ نَفْسَهُ دَمَهَا. تطلّع مرة ثانية إلى بطاقته، غمرته السعادة مرة أخرى، شَعَرَ بنفسه أنه امتلك العالم كلّه بها وأن أبوابه ونوافذه مشرعة أمامه وأن طموحاته وأحلامه الوردية تعلق منطلقة مع أسراب النوارس في السماء، يتخيلها بكل اللغات، شعر بالأسى والغصّة عندما تخيلها بتلك اللغة التي يعرف قراؤها الأصليون هذه الأمور متمماً بين نفسه "راح يقولون عنها: خز عيلات"، مَنْ سيصدّقه ومن سيعترف به؟ وَتَعَاظَمَ حَزْنُهُ عِنْدَمَا وَقَعَ فِي حيرة أسمائه المستعارة.

قال الفطحلُ لنفسه بشيءٍ من الإحباط والأسف والأسى: "هؤلاء العراقيون لا يعجبهم العجب، ولا الصيام في رجب، يسخرون من كل شيء". بَصَقَ الفطحلُ على الأرض النظيفة بصفتين، نظرت إليه امرأة مرت بجانبه نظرة شزر غاضبة، شعر أن عينيه كرتان صلدتان تقدحان شرراً، ودّ لو يراها في المرأة وَيَنْظُرُ إلى وجهه الشاحب وحالة الوجد، التي يعاني منها.

تَدَكَّرَ الفطحلُ والدنّة، كانت تريده أن ينجح في المدرسة وينتقل من صفٍ إلى آخر مثل التلاميذ الآخرين ويضمن مستقبله، ولكنه كان

كثيراً ما يردد "مَنْ سيكتب الشعرَ إذا إنشغلت بالواجبات المدرسية؟ بينما كانت أمه تقولُ له "الشعر كلام فارغ، ما يُوكّل خبز يُمّه حبيبي، الله يهديك ويخليك لي، اهتم بدروسك، إحنه ناس فقراء على كَد حالنا، أصلاً أمورنا أقل من كَد الحال يا ريت لو تشوف لك شغل بأيام العطلة، ابني حبيبي أروح لك فدوة". كان يناجي نفسه متألماً: "لو كنت يا أمي بنت رجل غني، لو كان عندي أب حي من المدينة ولّه أصدقاء ومعارف بيهم خير. تفو عليكم. بالله عليك يا يُمّه "طايح" اسم أودام حتى تختار به لي؟ ليش لازم أطيع؟ أني لا طايح ولا مطيع، شنو ذنبي؟ كأنما كنت تريدين التلاميذ أن يسخروا مني ويضحكوا عليّ ويغيّرون اسمي من طايح إلى طايح ويقولون كلما يقرأ المعلم أسماءنا، ينادي باسمي: طايح! فيردّدون بعده بكل صلافة:

- يا طايح؟ أستاذ، تقصد طايح؟ طايح حظّه!

والله أنت أمرك عجيب يا أمي!

لكن لا بأس من الفيزيت كارد، راح تعرف به أمي، وراح تعرف أني صرت من المشهورين".

وشعرَ بالقلق فجأة خائفاً من القال والقال والقليل واستفساراتهم التي لن تنتهي عن سبب اختلافه أو انقطاعه عنهم، سيقولون له إننا اعتقدنا أنك متّ وأردنا أن نقيم العزاء ولكنهم حتماً سيهدؤون فيما بعد، إلا أن قلقه تعاضم وخشي أن تطلب منه أمه وأهله إرسال المعونات المادية إليهم، لِمَ لا، أليس هو مشهوراً؟ هذا يعني أنه غني! ثم تمت بين نفسه بمرارة. "لكن فيزيت كارد بدون وظيفة حقيقية؟ بدون شهادة؟ بدون مكتب؟" وتابع يردد مبتسماً "راجعني في المكتب! راجعني للمكتب!" متخيلاً نفسه يقول ذلك للأخرين وكأنهم زبائنه وهو يجلس أمام منضدته.

إذن لا بد من المكتب، المكتب، المكتب هو الجاه والسمعة، أه المكتب، سأل كل معارفه عن غرفة للإيجار تصلح أن تكون مكتباً له.

الناس في هذه البلاد أساتذة في الشكوى من الفقر والقطط
والضرائب والمساعدات الاجتماعية بينما يبحث هو العاقل عن العمل
عن مكتب يفتخر به وسط العاطلين والمهتمين والمهمشين المنبوذين،
هم يعلمون أنه عاقل يعيش على الإعانات والصدقات والديون فكيف
إذن لا يسخرون منه.

قال عنه أحد المشاكسين الحاقدين عليه وعلى الغيوم والأمطار
والضباب والكآبة في هذه البلاد: "يبحث عن مكتب لكتابة قصائده
الجهنمية!"، وقال فيه شعراً معارضاً ومحاكياً إياه، ساخراً متهكماً ألقاه
في المقاهي ومجالس النفاق وأصقه على الحيطان في كل مكان:

أيها الفطحل

الشاعر الولهان

القولاذ

أما زلت تكتب الهذيان؟

وتسميه شعراً بكل زور وبهتان

ولكن ما عساي أن أف

علّ

أيها ال

فط...حل؟

إنه الزمن الفطحي لا وجود فيه لعدالة المستبدين ولا الجبابرة
والملوك والبحر،

عدالة البحر

أن يخلق النورس

عالياً فوق فوق

يهبط لينتقط القش من رغبة الأمواج

آه من الرغوة
عدالة البحر أن يعوم الرجل
يضرب الأمواج بيديه
يرفس سمك القرش بقدميه
وينفخ في الرغوة.
عدالة البحر أن ترقص الحورية
وتطرب على الأنغام
أي بشر هؤلاء؟ أي أنام؟

كان الفطحل مغرماً بالزُرقة والبحار والأمطار والمقاهي والحديث
عن سيمون دي بوفار، عسى ولعلَّ يتحول هو إلى سارتر، أين المقهى
وأين النادل الذي كان يلتقط القصاصات من سلّة مهملات سارتر وأين
القراء وأين هي الأشياء المفقودة؟ يعرض شفثيه حزناً. ويشرد في عالم
الطفولة والفقر والحرمان.

الفتحل وقلب الأم

ظل الفتحلُ يحلُمُ بأحْمِ بديلةٍ معبراً عن اشتياقه إلى تلك الوالدة الحقيقية المسكينة البعيدة عنه الآن، كانت أمه فقيرةً وكان يسألها عن الطعام كلما يشعرُ بالجوع، تُعدِّدُ له قائمةَ الأكلات على طريقتها الخاصة: "الكباب والمباب والسلطة والملاطة". هذه لازمتها الدائمة تردُّها على مسامعه كالأسطوانة يومياً.

يُعصَّبُ عليها ويشتمُ أكلاتها الوهمية، فتردُّ عليه بأعلى صوت ليسمعها الناس علَّه يبحث عن عملٍ له ويعيلها إن كان لا يستطيع الدراسة:

- يُمِّه ما عندنا أكل إذا ما تعجبك أكلاتي رُح عيني يا ابني للمطعم!

يهرب منها. يخرج حاملاً دفاتره وكتبه المهلهلة، بعد أن يمشط شعره الكتَّ الأشعث ويدهنه بزيت لَمَاع.

ولهان هذا الفتحل بالجيران والبطات الحلوات ويدندن في نفسه: "قولوا له، قولوا له الحقيقة، بحبِّه، بحبِّه من أوَّل دقيقة". كانت والدته القصيرة البطينة، واقفةً ترتدي ثوباً مهلهلاً تنظر إليه بتوسلٍ وتقول له بسُخريه ضاحكةً مغطيَّةً أسنانها بكف يدها اليمنى:

- عاشيق ومفلس! صُرْم باره! أروح صدَّقَه لهذي الكفشه!

تَذكَّرُ الفتحلُ والدته شاعراً بالأسى والحزن والسخط على حظه العائر قائلاً لنفسه: المفلس لا يحق له حتى العشق، أي ظلم هذا؟ معلوم! الفلوس تجيب العروس. والمعطف المطري؟ والنظارات السوداء؟

هذه أشياء كانت بالنسبة له حلماً ولكن كل هذا موجود اليوم. ها هو اليوم يتنزّه في شوارع نظيفة تغسلها الأمطار. تغيرت الظروف وانتهى زمن الإفلاس والحب.

اليوم صارَ يلبسُ النظارة الشمسية رغم الغيوم والضباب، ينقرُّ

بخنصره أو بنصره الأبواب الزجاجية المبللة بقطرات المطر، ولا أحد يفتحها له، هؤلاء الناس هنا لا يفتحون أبوابهم لمن يطرقها بلا مواعيد. إنهم يوصدوننا ليستمتعوا بأوقاتهم كما يرغبون، لا مضايقة هنا ولا استباحة ولا ذل ولا طغيان. بيوت الناس هنا كالقلاع لها احترامها وحرمتها ولا مكان هنا لكرم الضيافة للزائرين الطارئين بغير مواعيد.

يتوقف عند كل المحطات ويطول الانتظار فيعود أدراجه خائباً متذكراً والدته وبلاده وأعمدة شارع الرشيد ورجال الأمن يقفون خلفها يراقبون حركة الناس والسيارات كما كان يتصور.

تذكر الفطحلُ أهله كلهم بألمٍ شاعراً بغصّةٍ، أراد أن يتذكّر الأيام السوداء والسنين العجاف، رغب بالبكاء. بكى كثيراً وتذكر الفقر ونظريات الصراع الطبقي والفكري والأدبي والنضالات واستعرض فترات حياته.

كانت زوجته الطيبة مخلصاً له، تستنسخ أشعاره وقصصه ليلاً نهاراً، لكنه طلقها بعد الحب والغرام تاركاً إياها وحيدةً في أحلك ظروفها وغربتها بعيدة عن أهلها وديارها، الذين ضحت بهم في سبيل حبهما. تذكر كيف حاول أحد معارفه أن يثنيه عن طلاقها قائلاً متوسلاً:

- ليش يا رجل هذه زوجتك، حبيبتك ألهمتكَ القصصَ والشعر؟

- ما أطيقتها بعد، خلاص لازم أنتقم من البرجوازيين هي برجوازية.

حاول الجميع أن يثنيه. لكن دون جدوى. قال له أحدهم غامراً لامراً:

- يا أخي ليش ما تصبر على الأمر، على الأقل هذه زوجتك وقفت معك

بمحنتك وأعدت كتابة نصوصك، أجل الحقد الطبقي لفترة مؤقتة،

أنت ما قرأت عن فن الحقد الطبقي، ما تعلمته؟ وبالمناسبة "هي امرأة

برجوازية" عنوان جميل لقصة يا ريت لو تكتبها، شنو رأيك؟

وهنا انبرى الفطحل يُقرّع صاحبه ساخطاً، معاتباً بعصبية بادية

على وجهه، ناظرًا إليه بحدّة:

- اسمع، انتَ بالذات أريدك تحكي وإيّاي بطريقة أخرى، آني يا أخي منغلق على نفسي، منغلق على الناس وما أريد اسمع منهم، آني هائم، غائم، تعرف شنو هائم؟ هائم في براري الروح، ومزاجي غائم وأنتَ منفتح على الناس، وهذا هو سرّ تعبك، أنصحك من الآن فصاعداً، لا تدوخ رأسك بالأخرين.

ثم أردف متابعاً بطريقةٍ خطابيةٍ وهستيريةٍ وكأنه يتحدث إلى التلفزيون: شوف، قبل مُدّة أجريت مقابلة مع أحد الكتاب وقال فيها: الرجل الّلي يبلغ الأربعين ويبقى شخصية منفتحة على الناس، هذا لا يفهم من الحياة شيئاً. آني منغلق على نفسي ومبتعد عن الناس وأنا حالياً بالعشرينات من عمري! معنى ذلك أنا متقدم عليهم بعشرين سنة، هذه هي الحقيقة بلا رتوش وبكلّ تواضع، لازم تفهم آني إنسان غير عادي، موهوب ولازم أستغل موهبتي، أنا أقرأ الشعرَ من طفولتي، أختي تكتب قصص عظيمة، أخي فنان، شهيد، أمي فنانة، آني فنان مشروعي ضخم، ضخخخخم وأكبر بكثير مما تتصور.

صحيح والدتي إنسانة أميّة، لكنها كانت تحلم، وانتَ خير من يعلم قيمة الأحلام، وفعلاً أختي معلّمة بسيطة وصارت أم بيت مسكينة، مشغولة بالطبخ والنفخ والأطفال لكن حياتها كلها حكايات، ولو توفرت لها الظروف كان كتبت القصص والأشعار وصحيح أخي استشهد وهو فنان شاب لكن لو قدر له وعاش لكان مبدع عظيم، أسطورة، آني فنان ومشاعري جيبيباشة، لازم أغير العالم.

كان الانفعال بادياً على ملامح وجه الفطحل وكانت تتغير بسرّعة وبدا من صديقه أنه أراد أن يضع حدّاً له ويساعده، قال له صديقه:

- اسمع، لا تُلّق علينا محاضرات شبعنا منها وتغيّر الموضوع، ثم كلهم يقولون أخوك الفنان المناضل بعده حي، ليش تموته؟ ووالدتك

رَبَّة بيت أمية لا فنانة ولا كاتبة لكنها أم عظيمة وأختك معلمة
أحسن منك تخرجت من الثانوية ودار المعلمات بس أنت مستهين
بها، يقولون زوجها يعمل في الأمن لكنه رجل طيب و...

- أبدأ، هذا هو صلب الموضوع، زوجتي هذه حجر عثرة بطريقي،
أريد أزيحها من حياتي، واحدة برجوازية سخيضة، ما عندها كل
نظرة للحياة.

- طيب، طيب، تربيث، أجيل الموضوع، إلى أن تلتقي بأهلها، كان المفروض
أن تحسم هذه الأمور قبل سفركم من الوطن ومجيتكم هنا...

- بالعكس، لو طلقته هناك، كان ما قدرت أسافر إلى هنا، كان تغيّر
كل شيء وكان رفضوا سفري إلى الخارج عقاباً لي. أنت تعرف
طريقة تفكير جماعتنا العراقيين يرفضون الطلاق! مستحيل، لا بد
من الحسم الآن!

وانتهى كلّ شيء. هي من عائلة برجوازية تافهة وهو إنسان مبدئي
في صراع دائم معها. يبدو أنها لن تكون زوجته الأخيرة.

هروب الفطحل من بلاده

كان الفطحل يَشْعُرُ بشيءٍ أكثر من الألم والحزن والأسى والغصّةِ والمرارة والإحباط عندما يتذكر كيف كان يتسكع في شوارع بلاده، يرتاد مقاهي الكتّاب والشباب اللّيبيراليين والوجوديين واليساريين أو المتظاهرين بكل هذه الصفات بدون أن يعرفوا كنهها حق المعرفة، يختلط بالطلبة الجامعيين في مقاهيهم المشهورة المظلة على شاطئ نهر دجلة الجميل، يُعجب الفطحلُ بهم، بطريقتهم فـي حمل كتبهم وحقائبهم والحديث عن الظواهر الاجتماعية، يُقلّدهم كثيراً كالقرد، يصاحبهم، يتكلم بصوتٍ عالٍ مسموعٍ عن موضوعات خطيرة، لم يكن رجال الأمن يلقون له بالأيام زمان، كان هذا يغيظه كثيراً.

كل الشباب الجامعي المنتفض المطارّد شدّ الرحالَ هرباً إلى هنا وهناك إلى العواصم، باريس، روما، موسكو، صوفيا، بودابست، بيروت، الشام. قال الفطحل لنفسه: "ليش ما تسوّي نفس الشيء، تصوير مثلهم، حالك حالهم يا رجل؟" وفكّر بأن يكتب قصيدةً تبدأ بعبارة: "ألم تطاردك أسراب الجراد؟".

أسراب الجراد كانت تسخر منه "ماكو به ولا قطرة دم"، كان يقول لنفسه "حتى أنت يا جرادة؟". عمّل مثلهم، أو بالأحرى قلّدهم، توجه إلى صوفيا، صوفيا في القلب، والقلب في صوفيا ثم إلى بيروت والعكس، تتكرر الفكرة يا إلهي فكرة شعرية جميلة لا بد من تسجيلها:

أه بيروووووت

بيروت في القلب

والقلب في بيروت

لا ليس كذلك، لا أبداً، لا بد من تمزيقها، لا بد من تمزيق هذه القصاصة، ألم يمزق دوستوفسكي وسارتر الأوراق تلو الأوراق،

لكن لا بد من كأس وجلسة سمر شاعرية فيها أضواء حمراء قد تجلب
لي الآلهات من عبقر.

أه من بيرووووت

إنها أجمل الآن من

جنات عدن

أه من

بيروت

وبيروت في القلب

والقلب في بيرووووت

عند الزيتونات

والأحراش والفاكهاني

والحمرا والروشة

وإطلاقات الشهادة

والياطات والأشرطة الحمراء المربوطة في السواعد السمراء

وعلى الجباه وحول الأعناق

"يا إلهي وصلتُ إليها، هذه هي اللحظة عفوا اللحظة الشعرية، هذه
هي الذروة الشعرية، هذه قصيدة جميلة راح أنشرها في جريدة
"الفكر"، لا في صحيفة "العمل"، لا، خَلِّيني أبعثها للجريدتين، من
يدري، إذا رفضت الأولى نشرها راح توافق الثانية".

ثم قال لنفسه متشائماً بنبرة محبطة: "ويجوز كلهم يرفضون، من
يدري، ولكن إيش راح يصير إذا نُشِرَت القصيدة بالصحيفتين؟

هذا سؤال خطير يثير المشاكل والفضائح، وثم ماذا؟ راح أقول:
بعثتها عن طريق الخطأ، يحصل في أحسن العوائل، ثم ليش ما
نفترض أنهم في الصحيفتين راح يعجبون بالقصيدة فينشرها كلهم

في وقت واحد للسبق الصحفي؟".

نُشرت "المعلقة الفطحية" في الصحيفتين و"كَبَّت العيطة" وانتشر القيل والقال. صحفيّو "الفكر" قالوا معاتبين لأحد المسؤولين المناضلين الحزبيين من مواطني الفطحل:

- نحن ما كنّا نتصور الأمور بهذه الدرجة من الوضاعة، نحن قلنا خُلينا نشجّع هذا الشاب المناضل المسكين حتى لا يبقى حزيناً ويشعر بالغبْن عندنا في بلادنا وكان هو أي واحد يلتقي به يقول له: أنا كاتب عراقي شاب، أنا كاتب عراقي شاب! أنا كاتب عراقي شاب! ونحن في الحقيقة زعلانين عليكم، وكان المفروض أن تتبّهوا رفاقنا في المكتب الصحفي حتى ما يتعاملوا معه لأنه غشاش. مَنْ غَشَّنَا ليس متاً، مَش هيك يقول المثل؟ مَش معقول هيك يعمل فينا يا جماعة.

أما صحفيّو جماعة "العمل" فكانوا حقاً مستائين للأمر، قالوا:

- أبدأً هذه ما أخلاق مثقفي الطبقة العاملة، مين قال إن هذا كان من الشغيلة؟ نحن في الحقيقة اعتمدنا على الثقة وتزكية رفاقته، نحن ما راح نسكت عن الموضوع ولازم نطرحه في اجتماع المكتب الصحفي.

انتشرَ خَبْرُ نشر القصيدة نفسها في صحيفتين كما تنتشرُ النارُ في الهشيم. ذلك اليوم أصبح عيداً للمتحمّلين والحاقدين والمنافقين والناقمين والمشاكسين والملاسنين والمشاعبين والمنافقين والعدّال والحُساد من الذين لا شغل لهم ولا عمل غير مناكفته والسخرية منه، أصابهم الذهول في الليل والنهار، غمّرتهم الفرحة، كأنها ماء بارد ونزل على قلوبهم، كما يقول المثل.

كان هؤلاء الناقمون العدّال المشاكسون يلتقون في المساءات الشتوية الطويلة في مقهى خاص بهم، يجتمعون ويدخنون ويشربون الشاي ويتحدثون في السياسة، والفلسفة والاقتصاد وعلم الاجتماع،

أحدهم كانوا يسمونه الرفيق أبو أرق، كان هذا الشاب يقضي لياليه في
السهر والشعر والنقاش ولا ينام، قال رامشاً أهدابه:

- هذا إنسان معروف بترهاته وخز عبلاته.

وقال آخر، كانوا يسمونه أبو الدود، كان يقرأ كثيراً ويأكل بشراسة
ولا يسمن:

- هذا كان نجار ويريد يصير شاعر برؤوسنا.

بينما تَمَّتْ الثالث، أبو خشم المكروط:

- لا، يا ريت نجار! هذا بي عار

وقال آخر منصف وشريف، لكن ليس بدون خبث وكلام مبطن:

- يا جماعة الخير ارحموه، ساعدوه، إحنه كلنا طلعا من ظلم الطاغية،
إحنه ناس مصيبة واحدة ولازم نتضامن، يجوز صارت الشغلة
بالخطأ وليش النجار والحداد والجاجي أو القهوجي ما يصير يكتب
الشعر؟ عسى ولعل يحالفه الحظ ويخلص من حالته المأساوية.

كان نفرٌ من الزعلانين المنشقين عن هذه المجموعة الحزبية، الناقلين
الموتورين يجلسون لوحدهم في إحدى زوايا المقهى مرددين: الشاي
خمر المناضلين، يشربونه متناقضين ومتناقضين بالسياسة والحالات
الثورية وإسقاط السلطة بالكفاح المسلح، متنصتين بأطراف آذانهم إلى
الحديث غير مبالين للمشاركة وإياهم. أحدهم ردَّ على آخرهم:

- أيباه... خوش طيز هذا إذا ما طلع عميل مخابرات أقطع أيدي.

ردَّ عليه أحد الموضوعيين دفاعاً عنه:

- ولكن شنو علاقة المخابرات بهذه القصيدة اللي ما جابت لصاحبها
الخائب غير المشاكل؟ خلّونا يا جماعة لا نفسو عليه مثل الطاغية،
خلّونا نكون حنينين متضامنين وشويّه متعاطفين مع بعض، ديروا
بالكم ليصير عندنا مرض السادية والقسوة الهرمي يبدأ من فوق، من
قمة السلطة، يعني من الرئيس والمسؤول والحزب وبعدين من الأب

والأم والأخ الأكبر ثم الأصغر، كافي عداوات!
لم يَلَقَ هذا "المحامي" أذنأ صاغيةً وسط هؤلاء الذين ينظرون إلى
الأمر بالأسود والأبيض. الجميع مشغولٌ بقراءة الصحفِ وتعليقاتِ
النميمة. منذ ذلك الحين صاروا يطلقون عليه مختلف الألقاب: الفطحل
والعبقري وبعضهم كان يعرفُ اسمه الحقيقي طابع أو طايح لكنه غير
متأكد من الأمر تماماً وهم يلاحقونه، وأصبح شغلهم الشاغل. من أين
له هذا الفطحل المسكين كل هذا الصبر والقوة على التحمل؟ يكذب
ويكذب ويرد على الآخرين بصلافة!

الفتحل كريم العين

الفتحل كريم العين! الناس يسمونه الأعرور! وبعضهم من غلاة السفهاء يناديه بصيغة التصغير "الأعيور"، ويسمونه الأعرور الدجال سخريةً منه! ومَرَّات يقولون عنه موشي دايان.

الجميع يؤكد أنه أعرور، كريم العين بالولادة. ففي طفولته كانوا يسمونه ابن حليلة الأعرور، وكان يتألم كثيراً في داخله رغم تظاهره بتقبل ذلك بأريحية وبضحكٍ متواصل. هذا موضوع آخر كانوا يتندرون به قائلين عنه: تَكْ عين وشاعر؟ يعني شاعر بعين واحدة، تَكْ عين وقصاص، بالتأكيد ستكون نظرته للمجتمع قاصرةً لأنه ينظر إلى الأمور بعين واحدة، وإلى آخره من السخافات، التي كانوا يلهون أنفسهم بها في جلسات سمرهم.

أحدهم ذكّرهم بحامي الهدف الشهير رديف جندل قائلاً لهم:

- "شوفوا رديف كريم العين ومع ذلك الناس يحبونه ويعتبرونه أحسن كوليچي"، فما كان من الشباب إلا أن غرقوا في الضحك بينما ردّد أحدهم:

- راد يكحلها عماها، هاي الطامة الكبرى مال العراقيين، أكو واحد تَكْ عين يصير حامي هدف مضبوط؟

كان الفتحل يسمع صوتاً في داخله يواسيه معاتباً هو لاء المنافقين "يا ترى ماذا يمكن أن يعمل المرء لهم لكي يوقفهم عند حدّهم؟ ناس لا يخافون ربهم، والمثل يقول: اللّي ما يخاف من ربّه، خاف منه".

كان الهازئون الرافضون يقولون إن الفتحل يصرُّ على أنه خدم العسكرية كضابط احتياط لأنه خريج جامعي وأنه عُوْمِلَ كفنان ويقول إنه أُصيب بشظية أثناء تصويره لعملية عسكرية على الجبهة، وإنها كانت مقصودة من المخابرات لأنهم اكتشفوا صلّاته القوية بالحرركات

السريّة وأرادوا أن يتخلصوا منه.

لا أحد يعلم فيما إذا فعلاً كان الفطحل قد ذكر هذا المقطع من سيرته الذاتية أم أن المنافقين قوّله إياها، ولكن على أية حال لا أحد بالطبع يصدّق روايته هذه. الجميع يؤكد أنها مجرد ادعاء من ادعاءاته وخز عبلائه الكثيرة ويقولون عنه إنه أعور العين، بالعراقي الفصيح يعني: "سلاحسيز!"، لم يخدم بالجيش رغم فشله في المدرسة وطرده منها. وكانوا يقولون عنه ساخرين: هذا واحد سلاح سيز وحياسيز، يعني غير قادر على حمل السلاح ولا أخلاق له.

أما طليقتّه الهادئة الرزنة فكانت تبتسم كلما تسمع مثل هذه التصريحات والتعليقات، لكنها تعقب مدارية الموقف قائلة وتكشيرتها أوسع من حدّقتيها:

- لا، ها، يعني، هذا صحيح، بسّ مو مشكلة، ها.. يعني.. النتيجة واحدة.

أما المسؤول الحزبي المشهور باسمه الحركي أبو سجون فيسير لبعض المقربين ممهداً لسفر الفطحل من بيروت إلى بلغاريا:

- على أية حال، هو من عائلة فقيرة، أمه كانت تخفي رفاقنا الهاربين ولازم ندعمه، يعني حرام عليه يروح يعالج عينه ببلغاريا ويدرس دورات حزبية بمدرسة النقابات؟ مسكين ظروفه ما سمحت له يدرس بالمدرسة ويكملها بالعراق، أموره كانت صعبة، خّليه يدرس على حساب البروليتاريا، زوجته رقيقة متعلمة، ومن عائلة مناضلة قديمة، والدها كان يتبرع للحزب، وهي راح تفيد المنظمة الحزبية هناك وهو راح يأخذها ويروح وإياها. يارفاق تساهلوا وإياه، هو إنسان فقير ويقيم وتقدرتون تقولون: مقطوع ويعاني من الشرود الذهني وقلة التركيز من طفولته.

وهكذا، يستعد الفطحل للسفر إلى صوفيا ولكن لغرض صحي،
والعلاج فقط وليس لوحده بل مع زوجته. يبدو أن هذا كان شرطاً، كما
يَدْعِي "الثقة" في سيرته الذاتية.

واختلفت الأقاويل والآراء، إلا أن الفطحل أكد هذا الشرط في
إحدى جلسات السمر:

- شَرَطُوا عَلَيَّ أَخْذَ زَوْجَتِي مَعِي إِلَى صُوفِيَا.

كان يحز في نفسه أن يخبرَ الناس بأن سَبَبَ سفره إلى بلغاريا هو
العلاج وليس الدراسة كباقي الشباب، وأي علاج هذا؟ عينه؟ هل
سيقول للحاسدين والساخرين منه إنه سيعالج عينه الكريمة في بلغاريا
وماذا سيفعلون لها؟

كانت تلك الأفكار والآلام تغلي في صدره غلياناً حرمة من النوم
طوال الليل ولم ترقد له عين حتى قَرَّرَ أن يذهبَ في الصباح الباكر
إلى المناضل أبو سجون ليحسم الأمر معه، سيتوسل إليه أن يوافق
على أن يكون غرض السفر الدراسة وليس العلاج.

- رفيق أني مضطر للتمويه والصيانة.

نظر إليه الرجل الوقور أبو سجون ذو الشعر الأشيب، غائر
العينين نظرة أبوية حنونة متذكراً والدة الفطحل التي أخفته في دارها
قبل أكثر من عشرين سنة رغم أنها كانت وحيدة مع أبنائها حيث كان
زوجها يسافر. تطلع إليه وكأنه يتحدث إلى ابنه حقاً. سأله مبتسماً:

- شنو قصدك، صيانة؟

- صيانة! تمويه والحفاظ على الأسرار، يعني من الأفضل أصرّح،
آني مسافر للدراسة، لدراسة الصحافة مثلاً، شنو رأيك رفيق؟

- مو مشكلة، لكن هذا راح يثير علينا قضية أخرى يا إبني، تعرف انت
مو عضو حزبي، لا تنسَ انتَ صديق الحزب بسْ ومو خريج
ثانوية، عفواً أنتَ حتى شهادة متوسطة ما عندك، وهنا عندنا

مجموعة كبيرة من خريجي الثانويات و عندهم درجات ومعدلات عالية ورفاق أعضاء بالحزب كلهم ينتظرون المنحاحات الدراسية. قاطعه الفطل متوسلاً:

- رفيق الله يخلّيك أرجوك لازم تفهم وضعي، آني في النهاية أريد الدراسة بعد العلاج.

- على أية حال انت صرّح بالشيء اللي تريده، وإحنه نسكت إلى أن تهدأ الأمور. ويُسافر الفطل...

فَرَحَ بالموافقة وانطلقَ جَدلاً يُخبرُ الجميع قائلاً: مسافر للدراسة الجامعية، قال لنفسه: "وين أكو أحسن منها؟". المهم بالنسبة له أن يذيعَ الخبرَ ويثيرَ زوبعةً. لكن الجميع كان يقول عنه بحسد وحقّد وشماتة: إنه سافر لعلاج عينه العوراء وأن المناضل أبو سجون هو الذي دبر له هذه المنحة بسببِ علاقته القديمة الخاصة بوالدته.

الفتحل في صوفيا

هناك، في صوفيا يتم علاج عين الفتحل، تُركَّبُ له عينٌ زجاجيةٌ من النوع الجيد كما يُشاع، يتحسن منظره وشكله، تتعزز ثقته بنفسه يلتقي بالناس والبنات الحلوات البلغاريات والتركييات الأصل وهل يعقل أن يبقى بعيداً عنهن؟

والله من حقه أن يحاول ويحاول التعرف بهنّ، ففي أجسادهن وروقهن يجري خليط من دماء السلافيين والأتراك والعرب وفيهن من بياض البشرة وسواد الشعر ما يسبي العباد، ووسع العيون وحورها وطول الرموش والأطراف ما لم يجده لا في الرصافة ولا الكرخ ولا بلاد الحر القانظ ولا حتى في الشام.

ينبهر بالثلوج والناس، طوال القامة، حمر، بيض، شقر يمشون بمعاطفهم الشتوية والمطرية وقبعاتهم حاملين حقائبهم اليدوية المليئة بالكتب وقناني الخمر والمقانع والجبن والمرتدلا.

لا بد إذن من تعلم البلغارية، لا بد من الاختلاط بالجميلات، الشقراوات ولا بد من ترجمة الشعر البلغاري بأسرع ما يمكن. ينطلق هو والقاموس و مترجمة مدرسة النقابات الشابة في رحلة مع الترجمة. يقولون له: ترجمة الشعر أمر صعب! أنت لا تجيد البلغارية! إلا أنه لا يصغي لأحد ولا يكثرث بمثل هذه الأقوال، لكن لا بدّ له من مدقق عربي يجيد البلغارية!

يَتَّصِلُ الفتحلُ هاتفياً بصديق أبو سجون، طالب قديم يدرس في بلغاريا، يقول له مباشرةً بعد أن ينقل له تحيات صديقهما المشترك:

- رفيق أني محتاجك جدّاً، الأمر يخص الثقافة الثورية، ياريت لو نلتقي بأسرع وقت، نقدر نلتقي اليوم؟ أريد ألقى محاضرة عن الأدب البلغاري في اتحاد الأدباء البلغار؟ انت موجود وأريدك

- تترجم لي محاضرتي من العربية للبلغارية!
- عن الأدب البلغاري، العفو، انت كم سنة صار لك مقيم هنا؟
- مدة بسيطة، هذا مو مهم، المهم أن نلتقي و... .
- حضرتك متخصص بالأدب البلغاري، انت أستاذ جامعي؟ على أية حال، اليوم صعب عليّ اللقاء بك.
- ها، ليش ما تقدر اليوم؟ ها، عندك دراسة؟ راح تكون بالجامعة؟
- الأسبوع القادم، ...
- الأسبوع القادم؟ لا، هذا بعيد.
- والله لازم أسلم البحث السنوي لأستاذي المشرف.
- البحث السنوي؟ عن شنو تكتب هذا البحث؟
- عن تولستوي.
- أيهما الأب أم الابن؟
- لا الأب ولا الابن، ليف نيكولايفيش تولستوي وبس.
- ها، صحيح، صحيح، المهم، الأسبوع القادم نلتقي، اتفقنا وأكد، تعرف العنوان؟
- اتفقنا، لكن ما أعرف العنوان، لو سمحت أن تقرأه لي بالبلغاري حتى يكون مضبوط.
- ما أقدر أقرأ بالبلغاري، أي صار لي مدة قصيرة أعيش في بلغاريا، بس أي أحب اللغة والأدب.
- لكن وين تخصصت بالأدب البلغاري؟
- قراءات متنوعة ومساهمات كثيرة و... .
- ها، مفهوم، مفهوم، طيب أي أخذ العنوان من بواب بنايتكم وراح أخبرك قبل ما أجي عندك الأسبوع القادم، اتفقنا؟

- اسم البوّاب ميخائيل، اتفقنا على الأسبوع القادم، شكراً.
- كان "الرفيق" القديم طالباً يتقن البلغارية كما يتكلمها أهلها، يدرس الأدب ولم يترجم منه إلا القليل، أما الدراسات النقدية فلم يجد منها شيئاً يستحق الترجمة. هذا ما كان يصرح به. قال الطالب القديم في لقاءهما الأول وبعد أن دخل شقتهما الصغيرة وألقى التحية بأدبٍ على زوجته:
- أني أحترم صديقنا المشترك أبو سجون وأعزّه وهو إنسان رائع ومتفانٍ وبالمناسبة أني مو رفيق حزبي. هذه كلمة شبه رسمية هنا. على أية حال تقدر تناديني بالاسم. أما الترجمة فهي فعلاً شيء صعب جداً، لازم أول شيء تتقن اللغة، وبعدين تحس بها إحساس بمنتهى العمق، وبعدين لازم تقرأ الكثير حتى تحسن الاختيار، أما أن تترجم الكتاب المعروفين فهذا مو صحيح حسب رأيي الشخصي، لأنه مو بالضرورة الكاتب المشهور هو الفنان المبدع الأصيل. أما الشعر فترجمته خيانة له. هذه وجهة نظري، ولكني مستعد للمساعدة.
- هذا لطف منك، ياريت لو نبدأ ونراجع بعض النصوص، ولو راح أتعبك وإياي.
- لكن انتّ ما تجيد البلغارية حسب ما فهمت.
- صحيح، بسّ استخدمت القاموس وساعدتني مدرّسة اللغة، والمترجمة.
- صحيح، بسّ بصراحة هذا كله غير كاف، ثم انتّ كنت في المستشفى، كيف لحقت تتعلم اللغة؟
- هذا كله تمويه لا بد منه، أني التحقت مباشرةً في مدرسة العلوم الاجتماعية العليا بقسم الإعلام التابع لها ودرست اللغة البلغارية، صرت أفهم بلغاري.
- أراد الطالب القديم الخبير المؤدب أن يصدقه ويساعده غاضاً النظر عن كل شيء متذكراً علاقته الحميمة بأبي سجون، لا يهم الأمر

بالنسبة له طالما أنه سيصوّب كل شيء ويراجعه وستُنشر بلا أخطاء
وعندها سيطمئن قلبه ولن يشعر بتأنيب الضمير. صوّب بعض
الترجمات، شرح له الاختلافات اللغوية، لاحظ أخطاءً نحويةً
وعباراتٍ ركيكةً. قال له الشاعرُ الفطحلُ المترجمُ:

- غير مهم، غير مهم، أنت راجع أي شيء تريده، وصحّح كل شيء
تشوفه من وجهة نظرك. أكتب كل شيء تشوفه يناسب الصورة
الشعرية والتركيبات اللغوية. انت أكاديمي ومتخصص أكثر منّي.

استمرّ الطالب بالتصويب متطلعاً إلى "المترجم" بين لحظة
وأخرى ولسان حاله يقول: "هذا يبين عليه عبقرى أصلي". انتبه إلى
زوجته، كانت تجلس أمام منضدتها في إحدى زوايا الغرفة، تقرأ في
كتب تعليم اللغة البلغارية وتراجع القاموس.

قال لها دون أن يرفع نظره من الأوراق، التي يكتب فيها:

- يجوز أقدر أساعدك أثناء مطابقة النصوص بدل القاموس المتعب،
اسأليني إذا كان عندك كلمة غير مفهومة.

قالت، مستغلةً فرصة خروج زوجها من الغرفة، مبتسمةً بهدوءٍ
وهي تتابع القراءة:

- لا، أني أحب القاموس، البارحة كنت سهرانة للصباح مع هذا الشعر
اللي عندك.

- إذن راح تتعلمين اللغة بشكلٍ جيد، اللي يستخدم القواميس يتعلم
اللغات.

بعد أكثر من سبع ساعات متواصلة من المراجعة، قال حضرة
الشاعر والمترجم العبقرى "للمصحح" الطالب القديم:

- هذا رقم تلفوني، إذا اتصلت بي ورفع السماعه شخص عربي بالصدفة،
رجاءً أطلب أبو ناتاشا، هذا اسمي المعروف هنا، وأردف ضاحكاً:

- وعندي أسماء مستعارة وحركية أخرى كثيرة كنت أنشر بها

قصائدي وقصصي، إذا سمعت بواحد اسمه أبو دروب فهو أني، ونشرت باسم قرندل وعتبار تيمناً بالشخصية التراثية والريفية الفلاحية، لازم الواحد يحذر من العدو، بالمناسبة راح أجري مقابلة مع رسام وشاعر وفنان وممثل ومخرج مناضل بلغاري، ياريت لو تحضر اللقاء وتترجم لي.

- مناضل بلغاري؟! ولا يهملك، أبو ناتاشا! عفواً أبو دروب، ليش لا؟ مناضل. قالها مبتسماً، ودّعهما، كانت نظرات زوجته تبدو حزينة متحرجة من إلحاح زوجها. عيان سوداوان وشعر أسود وبشرة بيضاء فيه لمعة، وجه لطالما حنّ إليه وإلى هذه الارتسامات الحزينة.

و"دارت الأيام" كما تغني كوكب الشرق. تتكرر لقاءات الفطحل بالطالب القديم المتخصص في الآداب، يطلب منه الفطحل متوسلاً ترجمة إحدى قصصه القصيرة جداً إلى البلغارية.

بعد مدة يُترجمُ هذا الطالبُ الجادُّ القصةَ مضطراً، ويقول للكاتب العبقرى مَلَمَحاً بخجلٍ:

- بالمناسبة أنا صححت الأخطاء اللغوية والنحوية والأسلوبية بالنص العربي أثناء الترجمة.

- ها، عظيم، شكراً.

لم يفهم التلميح، يحاول الطالب معه مرةً أخرى بأدبٍ:

- صحيح، انت ليش تستخدم "هنيئة" باستمرار؟

- شنو قصدك؟

كان الأمر مفاجئاً، ما القصد من هذا الاستفسار؟

- ها، هنيئة تعني أقل من اللحظة، ما كانت مفهومة؟

أجاب الدارس المتواضع والابتسامة تظهر على شفثيه الصغيرتين،

بينما كانت عيناه تتابعان النظر إليه:

- لا، مفهوم جداً، يعني انت تقصد هنيهه!

- لا، شنو أقصد هنيهه؟ ماكو هيك كلمة، انت غلطان، قُلْ هُنَيْهَ وَلَا تَقُلْ هُنَيْهَ! وبالمناسبة سبق لغيرك ان وقع في نفس الخطأ بس ما حبيت أصححه.

لَمْ يَتَمَلَّكَ الطالِبُ الْقَدِيمُ أَعْصَابَهُ، قَالَ مَحَافِظاً عَلَى ابْتِسَامَتِهِ، وَانْتِظَافاً بِلَهْجَةٍ أَسْتَاذِيَّةٍ:

- اسمع، آني أعتقد أنت لازم تراجع "المنجد" باستمرار، لأن عندك أخطاء كثيرة كان المفروض تصوبها قبل نشرها، بالمناسبة مَنْ راجع كتابك؟ هل أكملت الثانوية، العلمي أم الأدبي؟

تَمَلَّمِ الْفَطْحُلُ، تَلَفَّتْ يَمِيناً وَيَسَاراً، قَالَ:

- بالنسبة لمراجعة الكتاب، كانت زوجتي تقرأ لي وتستنسخ كل ما أكتبه، ماكو واحد كان يراجع لي، أما بالنسبة لهنيئة فهي صحيحة وأنت غلطان لأنه مرة واحد أخبرني ذلك.

- شوف أريدك تراجع المنجد حتى تستفيد، ولا تعاند مثل موضوع علاقة ليف تولستوي بالكسيه تولستوي، أما بالنسبة لزوجتك فَمَعِ احترامي لك ولها هي غير متخصصة بالعربية، وما أنصحك أن تعتمد على أذواق الناس القرييين منك، يعني مثل زوجتك لأنها تجاملك.

تَصَوَّرَ الْفَطْحُلُ الْعَبْقُرِيُّ أَنَّ الْكُسْيِيهَ تَوْلَسْتَوِي هُوَ ابْنُ لَيْفِ تَوْلَسْتَوِي، أَمَا تَوْلَسْتَوِي الثَّالِثُ فَهُوَ بَرَأْيِهِ حَفِيدُهُ، كَانَ يَصِرُّ عَلَى هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ الْخَاطِئَةِ وَكَانَ زَمَلَاؤُهُ يَمْزَحُونَ مَعَهُ لِدَرَجَةِ تَضْيِيعِ فِيهَا الْحُدُودِ فِي جَلِيسَاتِ السَّمْرِ فَيُقَالُ لَهُ مَزَاحاً:

- انت راح تبقى طول عمرك حمار، حمارررر، حماغ غ أصلي، ضحك الجميع منه وضحك هو نفسه أيضاً من كلمة "حماغ".

عندها قال مدارياً خجله:

- هذا تطوير لغوي هائل، له رنين وإيقاع شعري!

قال له أحد المدّعين التملين الداعرين في صوتٍ عالٍ:

- على أساس انت تفهم في اللغة وتخرجانها وتطورها، انت الّلي ما تقدر

تنصب جمع المؤنث السالم، وما تميز بين المرفوع والمنصوب!

لَمْ يبيالِ الفطحلِ بسُخريةٍ محدّته، اعتبره "مبتذلاً". واصل إعجابه بكلمة "حماغ"، وَعَدَّ بأن يستخدمها في قصيدته أو قصته القادمة. كان هو أيضاً ثملاً، أو في الحقيقة أنه تظاهر بذلك.

قال له أحد الحضور والسيجارة كادت تسقط من بين شفثيه:

- يا ترى كنت تزعل لما كان أصدقاؤك يقولون لك متهكمين ساخرين:

فرحت أمك لما ولدتك؟ هلهلن النسوان بيوم الّلي جابتك أمك؟

كان الفطحل طيب القلب، هادئاً، ناعماً، مسالماً يتقبل مزاح أصحابه معه ويشاركهم ضحكهم ولم يكن هو بأقل منهم سخرية من الآخرين.

السومرية

لم يَدُمُ زواجُ الفطحلِ من تلك المرأة الساحرة العينين، الوثيقة من نفسها، أكثرَ من عدة شهور بعد مجيئهما إلى هذا البلد. مرّت هذه العراقية المتعلقة بغابات النخيل بفترة عصبية وقاسية وعانت فيها من الأمراض العضوية والنفسية لكن كل شيء انتهى لمجرد طلاقها من بعلها كما كانت تسميه ساخرةً. قالت لصديقاتها يوم أنهت إجراءات الطلاق: أشعر كأنه خرقة قديمة ونزعتها!

بعد عدّة أشهرٍ من طلاقها منه مرّت بفترة نقاهة عاد إليها جمالها الحقيقي وابتسامتها الطبيعية وصارت مع ذلك الهدوء الساحر في مقلتيها أكثر إشراقاً وتألّقاً وجاذبيّةً وأصبح شعْرُها أكثر لمعاناً وتناسقاً مع بشرتها الناعمة البيضاء وانصرفت إلى الدراسة والعلم.

لم يدعُ الفطحل أولّ فرصةٍ تفلت من بين يديه، ودّع طليقتَه السومرية "البرجوازية" متجهاً إلى الشقراوات حالاً بعد وصولهما إلى بلغاريا. كان أصحابه يقولون ساخرين منه: حقّة! هو يريد يتعلم البلغاريه، وزوجته مريضة لا تلبّي رغباته. في نهاية المطاف تعرّف إلى فتاة في المرقص، قال عنها فيما بعد: إنها "منسّقة" في اللجنة المركزية للحزب! بينما كانت زوجته تقول عنه ساخرة:

- الأطباء البلغار ركبوا له "عين زجاجية"! بَعْدَ مَنْ يقدر عليه؟ صار يشوف أحسن من قبل، لازم يتزوج بلغارية، بس راح يجي يوم يغيّر عينه الزجاجية إلى واحدة أخرى أفضل ويتصور نفسه فعلاً يشوف أحسن فيصير يسب زوجته القادمة البلغارية ويقول عنها: غبية، ويطلقها!

عندما طلقها الفطحل، سرحت هذه المرأة السومرية، التي يعود بريقُ عينيها الميسوبوتامي إلى آلاف السنين، عادَ خيالها إلى الوراء

وتذكرت كيف وقف كل أهلها ضد زواجها منه. قالوا لها: تريدين تتزوجين هذا طابع الطايح؟! الله أكبر ما لقيت غيره؟! هذا واحد معروف بالتهور، وبين ما يروح يصيح بصوت عالٍ: آني مو طابع آني طايح جبر من "فرج" آمي للقبر! خلّي يوّلي، أكو واحد يحكي عن أمّه هيجي؟ هذا واحد فعلاً صايح، ضايح غير نافع، سبع صنايع والبخت ضايح لا شاربي ولا بائع، يذرع شوارع، ما عنده لا شهادة ولا حرفة ولا مهنة يعيش منها، واحد عشتي كما يقول عنه أصحابه، يعيش على فقات الآخرين.

كانت هي فتاة جديّة، درست في معهد المعلمات، من عائلة غنيّة ومتعلّمة ومناضلة عريقة في النضال منذ الحكم الملكي حتى الستينيات، لكنها اعتزلت السياسة فيما بعد. عرّض والدّها على الفطحل آنذاك عملاً، إلا أنه رفضه ساخراً. كان مشغولاً بالأدب والتسكع و"الحوارة" في الشوارع كما يقولون عنه، كانت حياة البنات وشرفها في خطر. تورطت في السياسة. قالت لوالدها:

- آني أريده، بابا، أرجوك خلينا نتزوج ونسافر آني وإياه للخارج.

أدرك الوالد خطورة الموقف. عقد قرانهما على مضض. أعطاهما مبلغاً من المال، بينما سلّمتها أمها ما لديها من الحلي الذهبية رحلت بها خارج البلاد مع زوجها. أصبح الفطحل بعلمها دون احتفال. كل شيء تم بهدوء وشبه سرية. كانت والدتها تبكي صباح مساءً وتُصرُّ على الاحتفال بالزواج مهما كلف الأمر لكن مرّامها محال، بعيد المنال.

مضت عدة أعوام على تلك الأيام، وها هي البنات المدللة وحيدة أمها تعيش ذليلة مهانة بعيدة عن أمها لوحدها في غربتها، تمارس اليوم حياتها بدون الفطحل فارس أحلامها السابق، وصارت تواجه التحديات وتحقق النجاحات.

بعد سنوات من طلاقها وقع في غرامها زميلها في الدراسة. دعاها إلى السينما، رفضت، دعاها إلى المطعم، امتنعت وقالت له ساخرة:

- تفضّلْ عندي في البيت نأكل الأكل النظيف و اللطيف و الخفيف .
ابتسم العاشق و عيناه تنظران إلى السماء، لمح طائرین متعانقین،
سقطا ثم عادا محلّقین، التقتْ نظرَاتهما، ابتسمت كعادتها ابتسامتها
العريضة، بانّت أسنانها و لثتها تغطي نصفها الأعلى، قال لها:
- شوفي إشلون ذول يفهمون الحياة أحسن منا، أما إحنه...
- ذول قاعدين في بيتهم، آني في بيتي و أهلاً بك.

و غرقا في ضحك، قطعته عليهما إحدى زميلاته البلغاريات كانت
متجهة إلى الجامعة، استمرّا ضاحكين، قالت له البلغارية بعد أن حيّته
ممسكةً ذقنه:

- ماذا حدث لك هنا؟ مَنْ جَرَحَكَ؟ قُلْ لي مَنْ و سَأَقْتَلُهُ، قُلْ لي مَنْ
فحسب و سترى؟ سأجمع لك كلّ الشبابِ البلغار، أجمع لك كلّ
الهولويجان، أنتِ تأمر.

و دعتهما قائلةً له:

- لا تنسَ أن تأتي، أنا بانتظارك دائماً.

- انتظريني حتى أعود.

علّقت السومرية.

قال لها مماًزحاً بينما قالت له ذات الابتسامة الواسعة ساخرةً غاصّةً
بضحكتها، بدّت أسنانها مصفوفة كأسنان الطفلة:

- أنا بانتظارك، انتظريني حتى أعود، هذي تفيدك عندها عصابة،
و تمسكك من خذك، بيبيّن...

قاطعها ضاحكاً:

- زين و الحمد لله مسكنتي من حنكي مو من مكان آخر.

حشرجت الضحكة في بلعومها، خرجت من بين أسنانها المصفوفة
كشجيرات الأس، حلّ الظلام سريعاً، تذكرت أن عليها أن تعودَ إلى

البيت قال لها متوسلاً:

- طيب شنو رأيك نروح نتمشى في الحديقة؟
- لا، الله يخليك، ما أقدر، إذا تريد تفضل للبيت.

في البيت أراد أن يقبلها، مانعت، غضبت، قالت له حانقاً:

- أنت الظاهر تجاوزت حدودك، تصورتني "بانظارك"، لا تتجاوز الحدود.

قاطعها قانلاً بلهجة خطابية مسرحية ساخرة فصيحة وعامية:

- آني مُعجبٌ بأسنانك وآني أريد الزواج منك يا سيدتي!

فوجئت، ابتسمت، أشاحت وجهها إلى جهة الشباك المطل على الحديقة، رأت أسراب النوارس الكثيرة تحلق عالياً، كان يقف خلفها، ابتسمت لنفسها قائلة:

- هيجي رأساً؟ هذا فيلم مصري لو هندي؟

- المهم، أريد رأيك بالموضوع، وبأسرع وقت.

ضحكت، تذكرت نكتة شائعة، قالت:

- رأيي لو رأي الحزب؟ شنو القضية، عباس مستعجل؟

ضحكت، فرح لضحكاتهما، كانت السعادة تبدو على وجنتيها، تشجع، قال لها رافعاً يده اليمنى كأنه يخاطب جمهوراً مسرحياً:

- وَجْنَاتُكَ صارت وردية.

واصلت الضحك. كانت تبدو عفوية، حرّكت يديها باتجاه الثلجة، أخرجت بعض الطعام، وضعت على المنضدة، التقت عينها بعينيها، كانتا واسعتين دائريتين، كانت أكثر جرأة ورزانة منه، أكثر تلقائية منه لكنها كانت تسيطر على مشاعرهما بينما كانت نظراته مفضوحة، والخلج لا يزال يراوده رغم لجوئه إلى الطريقة المسرحية، قالت له

ضاحكةً:

- أكيد راح تغني لي أغنية: عيني يا أم خدود الوردية، راوديني شويّة شويّة، وبعدين تبدأ الإهانات وتروح على "أنا بانتظارك" يجوز تفيدك بترجمة الأدب والشعر والقصص مثل ذاك اللّي كان حاسب نفسه فطلح الفطاحلة.

ردّ عليها بهدوءٍ، تماسك أعصابه، شعر بالخجل للحظة:

- أفهم ما تقصدين، انت ليش تعتقدين آني أحتاجها بالترجمة؟ آني أعرف لغتهم أحسن منها، سامحيني، آني عمري ما مدحت نفسي، لكن آني واثق من نفسي، انت تعرفين، اطمئني ما راح أركض وراءها. وبالمناسبة "انتظريني حتى أعود" هو عنوان قصيدة روسية مشهورة لسيميونوف كتبها في الحرب العالمية الثانية وأكد راح تقرأيها في المستقبل.

شعرت بالطمأنينة والسكون، نظرت إلى الحديقة من خلال شباكها ممسكةً بإناء الطعام، كان الظلام والسكون يخيم عليها، لمحت رجلاً وامرأة وطفلين يجزّان عربةً صغيرةً ورائهما كان الوالدان يتشاجران، بعد لحظات لحق الطفلان بهما، صار الجميع يلعب ألعاباً مختلفةً. سقطت دمعة من مقلتها اليمنى، لمحها العاشق الولهان، أرادت أن تخفي كل ذلك، تساءل بين نفسه: يا ترى أي سير تخبي هذه السومرية ذات الابتسامة العريضة والطرائف؟ مرّرت يدها اليمنى على عينها، مسحت الدمعة، قال لها وهو لا يزال واقفاً جنبها:

- ها، ما قلت لي شنو رأيك؟

عادت الضحكة إليها، قالت له ولسانها يملأ فمها غاصة بضحكتها:

- غير لازم أخذ رأي الحزب!

- رجاءً كافي سخرية أما رفض أو موافقة، إذا رفضت عادي بالنسبة لي، لكن بعد ما تشوفيني هنا، وإذا وافقت، نعلن الخطوبة اليوم ونتزوج بأقرب وقت ومثل ما تريدين وعلى سنة الله ورسوله

والزواج نصف الدين وأناي أريد أكمل ديني.

كانت تستمع إليه منبهرةً، استمر بالحديث متحمساً، وهي تشعر بسخريته المبطنة، قاطعته واضعةً الطعام على المنضدة من جديد، ضاحكةً بأسلوب مسرحي:

- وإذا طلبت المهر غالي؟ وأنت عاشق ومفلس؟

- من قال لك أناي مفلس، عندي أراضي وبيوت باسمي، كلها تصير لنا ونروح نسكن فيها بعد ما يسقط الطاغية.

سرعان ما تغيرت ملامح وجهها، بدت حزينةً:

- وإذا أهلك رفضوا وأناي امرأة مطلقه و عندها مشاكل.

- اسمعي، تريديني لو لا؟ كلمة واحدة، والباقي كله كلام فارغ، أهلي راح يفرحون إذا أتزوج واحدة من بلدي بعد هذه الغربية الطويلة، أكثر من عشر سنوات وأناي قاعد أنتظر هذا الوجه السومري، انت بالنسبة لي لقطه، هبة من الله، لازم أغير اسمك إلى هبة. ابتسمت من زاوية شفتها اليمنى، قالت له:

- انت عنصر خطير، خطر، عباس مستعجل، أناي خائفة منك.

فرح الزميل المغترب الحالم بالسومرية، احتضنها رغم ممانعتها، خرج من غرفتها، أخبر زميلتها اليمنية، التي كانت تعيش في الغرفة المجاورة لها أنه خطبها، فرحت للخبر السعيد وغنت لهما باللهجة اليمنية: - "فمري، شلها وراح".

ومنذ ذلك اليوم بقيا يعيشان معاً، يتقاسمان الحلو والمر في غربتهما التي صارت منفىً رغم أنفيهما. يُقال إن هذه السومرية أنهت الماجستير والدكتوراه في اللغات بحسب الأخبار المتداولة بين الناس وثقة الرواة فقد اختارت هي وزوجها حياة العزلة والسفر بعيداً عن الآخرين.

الفتحل بعد الانهيار الرحيل إلى بلاد الأندلس والشمال

بعد الانهيار الكبير لم تعد بلغاريا الملاذ الأفضل، لم يبقَ شيء هنا غير الفوضى والعطالة والجرائم والمزابل والنفايات والقمامات التي يبحث فيها الأطفال. وإذا كانت بلغاريا سابقاً كالحديقة المليئة بالقرود كما يقال عنها فقد أصبحت اليوم مزبلة للحيوانات والوحوش والمجرمين.

يشد الفتحلُ الرحالَ إلى لشبونة لوحده تاركاً زوجته البلغارية "منسقة اللجنة المركزية". تُشاع عن الفتحل قصة عهدتها للناس منه:

يدعوه النادي الثقافي العربي، ليلقي محاضرة عن الأدبين البرتغالي والإسباني والأندلسي، تستقبله فتيات الجالية العربية يحملن الزهور احتفاءً بوصوله. ويقوم بجولة في بلاد الأندلس.

هذا ما أكده الفتحل لأحد معارفه في رسائل كتبها إليه من لشبونة ومدريد. أما شهود العيان فلم يحصل لأحدٍ شرف اللقاء بهم والاستفسار منهم عن حقيقة الاحتفاء. لا أحد يعرف الحقيقة. لم يصدقه أحد كالعادة وكلهم يعتبرونها مجرد ادعاءات اعتادوا على سماعها منه.

لكن الفتحل لم يبقَ في لشبونة ومدريد أكثر من أسبوعين كما يبدو، حسب الأخبار المتناقلة عنه يرحل باتجاه الشمال، حيث سمع الفتحل بأن الأمور هناك أسهل كما يقولون.

قال أحد معارف الفتحل من المقيمين في الشمال الأوروبي ساخراً:

- هذا إنسان ماسخ وفاهي، ودَبِقٌ وغاسلٌ وجهه ببوله، الشمال البارد مكان مناسب له ولمغامراته وادعاءاته في النضال السياسي والأدب، لا مَنْ سأل ولا مَنْ درى، كَدَّبٌ كَدَّبٌ حتى يصدّقك الآخرون: زيارة سياحية عادية لمصر يمكن أن يحوّلها إلى إقامةٍ

فيها وعمل في صحافتها لمدة طويلة. قد تعوضه هذه الادعاءات عن أمور هامة فقدما في طفولته وحياته. كان بعضهم كثيراً ما يقول إن أول شيء يتعلمه القادمون هنا إلى هذه البلاد هو الكذب.

سأله مرة صديقه المقيم في الشمال بسخرية ودية:

- لكن إشلون وإشوقت سافرت إلى مصر وفوقها سكنت واشتغلت فيها؟ لك ما تستحي تنفخ عليّ مو آني عاجنك وخابزك!

- والله آني ما قلت لأي شخص مثل هذه الأمور.

ثم يستدرك قائلاً:

- ها، في الحقيقة يجوز الناس تناقلوا هذا الخبر من مقابلة صحفية ذكر فيها الصحفي مثل هذه الأخبار، آني تعجبت من أين جاء بها، يعني آني شنو ذنبي؟

عندما يواجهه "الباحثون المتخصصون" بسيرة حياته من المناقنين الحاسدين "المتأكسدين" الذين لا شغل لهم غير ملاحقة نشاطاته بهذه الأخبار عنه ينفي ذلك ويحلف أغلظ الأيمان بأنه بريء من كل ما قيل ويُقال من أكاذيب يُراد إلصاقها به، وأنه لم يدع ذلك إطلاقاً.

مع ذلك، تُسمع عنه قصص وأخبار كثيرة. يقولون إنه يسافر إلى تونس ترانسيت فيدعيها، كما يُقال عنه، محطة من محطاته الأدبية ويصبح موضوعاً لتندراتهم وهل هناك من يجيد النميمة أفضل من هؤلاء الحاقدين على العالم كله؟

وقيل عنه إنه سافر إلى المغرب، بقي ثلاثة أيام في تطوان، تُطلق إشاعة عنه بأنه صرّح بأنه كان مدعوّاً إلى المهرجان الشعري وقرأ قصصاً في نادي القصة هناك.

لم يكن أحد يصدّق أخبارَ سفراته واختلط الصدق بالكذب. كان كلما يتصل هاتفياً بأحد أصدقائه يقول له: "رجعت قبل يومين من هذا البلد أو ذاك"، لم تبقَ عاصمة لم يذكرها في مشاريع سفراته الكثيرة.

لكن شرّ البلية ما يضحك. في هذه المرة يصدّق الناس شائعةً سفر
الطفل إلى المغرب بينما كان هو في حقيقة الأمر يرقد في
المستشفى.

أُدخل صاحبنا إلى المستشفى بسبب مرض حقيقي، لا أحد يصدق
ذلك، الجميع يتناقل خبراً هاماً: الطفل في رحلة أدبية، وهكذا
ضاعت الحقيقة!

كاد الرجل أن يموت من شدة المرض ولا أحد يسأل عنه. كان
يشعر بالوحدة في المستشفى البعيدة. ودّ لو يحدثه أحد من أقرانه
وأترابه ومواطنيه، من قومه، كان جل المرضى من الشيوخ الناقمين
ممن لم يعتدّ أحد منهم الحديث إلى الغرباء.

خرج من بناية المستشفى بعد تحسن صحته لشم الهواء قليلاً، كانت
الريح عاتيةً والثلج يهطل بغزارة، ظن أنه سيتحمّله، لم يقوَ على شدّة
البرد، عاد أدراجه مقهوراً، متألماً من مواطنيه، الذين لم يحاولوا حتى
أن يسألوا عنه.

خلع معطفه الشتوي ناظراً إليه بإعجاب، وقف يتطلع إلى الثلوج
والرياح من نافذة غرفته الواسعة، كانت هناك غابة مليئة بالأشجار
الباسقة تغطيها الثلوج.

رأى امرأة تمشي مع طفلة، تحمل بيدها اليمنى كيساً وباقية ورود
وتمسك بيدها الأخرى ابنتها، كانت تلاعبها وتتحدث إليها مبتسمة
متجهة إلى المستشفى.

غبطها على تقبلها الحياة وإقبالها عليها وفرحها بها. كان ذلك بادياً
على ملامح وجهها المليء بالأمومة والأنوثة. فكّر بين نفسه: ما الذي
يجعل هذه المرأة الشابة أن تكون فرحةً متحمسةً كما يبدو عليها من
مشيتها، تسير بثقة عالية بالنفس متجهة إلى المستشفى. لا بد أنها
ستنزور شخصاً ما تحبه: زوجها أو أمها أو أباه، لا بد أنها تحب من

تزروره اليوم وإلا لما جاءت مع طفلها إلى المستشفى حاملة الهدايا كما يبدو. أما أنت أين هم الذين يحبونك؟ بل أين هؤلاء الذين تحبهم؟ أين أحبابك؟ أين هؤلاء المناضلون ضد الطاغية؟ أليسوا هم رفاق دربك؟ ألا يجدر بهم التعاطف معك في مرضك؟

تطلع إلى السماء المليدة بالغيوم، نظر إلى الغربان المحلقة فوق أغصان الأشجار المتمايلة، غيوم وثلوج وألوان رصاصية رمادية كالحة، أين أنت أيها الأزرق؟ أيها الأخضر والأصفر والأحمر؟

أراد أن يمسك القلم ويكتب قصيدة، تراءت له صور وعبارات من نوع: غريبان تحلق على الروح، غريبان قلادة الروح، غريبان سوداء، غريبان، غريبان، أخذ يندندن في نفسه لحناً حزيناً من نوع يا دار يا دار وين أهلنا، شعر بالحشراجات والأسى، كأن عبرة وفتت في مقلتيه، اندهش للأمر، قال لنفسه: لم يزرك أحد يا طرطور، يا فطحل، يا عبقرى، لم يذكرك أحد، على أية حال أمر مؤسف، ابتسم مع نفسه، ضحك على نفسه، سخر من نفسه، قال لها: تيّاً لها من حياة! أي بشر هؤلاء؟ أي منافقين هؤلاء؟ صحيح أني قلت راح أسافر، لكن تمرضت، عجيب، غريب، ولا أحد يسأل عني، ولا واحد يزورني! شنو ذنبي وإياهم؟ أسأت لهم؟ سرقتهم؟ أخذت حقوقهم؟ كذبت عليهم؟ ثم شنو دخلهم بي؟ يا لهم من شرانيين صعبين وعدوانيين؟

صوب نظراته نحو سقف الغرفة، نظر في جوانبها كأنه يبحث عن جواب، نظر إلى السماء من خلال الشباك، وجد أن الغراب الأسود يحط على غصن شجرة باسقة مغطاة بالثلوج، غير مبالٍ بالبرد. أدار وجهه إلى باب المستشفى الرئيس، لاحظ زواراً خارجين وداخلين، فكّر أن يتصل هاتفياً بأحد معارفه، أن يخبره، أنه في المستشفى، تشجع قليلاً، اتجه نحو الهاتف، اتصل بأحدهم، كان الحرج واضحاً في كلماته التي يتمتم بها:

- ألو، مرحباً، إشلونك... أني مريض...

- أهلاً، أني زين، انت إشلونك؟ هاي من وين تخابر؟

شعر بالعفوية والارتياح، تشجع:

- من المستشفى! من وين؟

- معقولة؟ انت على أساس تسافر للمهرجان الأدبي؟

- من قال هذا الكلام؟ أي مهرجان؟

- عجيب، انت بنفسك قلت لي، شنو، نسيت؟

- ها، يجوز كنت أقصد مهرجان السنة القادمة!

- إي شفت، انت تهام "مالك" بالكذب، كم مرّة قلت لك لا تبالغ ولا

تعلن عن أشياء غير موجودة، والله كل الناس هنا يعتقدون انت فعلاً سافرت للمشاركة بالمهرجان، يعني فعلاً هالمرّة كلهم وبعكس

كل المرات السابقة اقتنعوا بقصة سفرك إلى المهرجان الأدبي.

بصراحة، كل مرة يقولون: هذه مبالغات، كذب، ولكن هذه أول

مرة يصدقون فيها بمساهمتك في المهرجان! فتصوّر! لا تزعل

مني، هذه هي الحقيقة وانت تعرف جماعتنا العراقيين إشلون

صعبين!

تحادثنا قليلاً، واتفقا على الالتقاء. شعر الفطحل بأن صاحبه هذا

بارد معه ومتخابث، غير مبال له، مناكف محترف من الدرجة

الأولى، شامت به، يتحدث معه بسخرية محترف، لا يثق بمرضه،

يتصوره مجرد ادعاء وليس مرضاً حقيقياً.

كان بوّده أن يطيل في الكلام، نظر إلى النقود في يده، كانت قليلة.

"ماكو فائدة، حرام واحد يخسر عليهم فلوس التلفون"، قال حانقاً.

مَسَكَ حنكُه بيده وراح يفكر ساهماً متمتماً مع نفسه مناجياً إياها،

يبدو أن أحدهم أطلق إشاعة سفرك، طبعاً السبب الأول والأخير هو

انت، انت السبب، وإلا فلا دخان بدون نار.

أنت نفسك تجني على نفسك، على نفسها جنت برافش! أنت تأتي

بالتهايم على نفسك، لا تقل: تجيبك التهايم وأنت نائم! أنت أساس البلا. وتذكّر بمرارة كيف كان نفسه يقول ساخراً "آني اسمي مو طابع، آني ما أطيع أكبر واحد بالدنيا، بسّ آني طايح، طايح الحظ والبخت والفقر!" ثم تتمم بألم عميق: "شعب العراق صعب المراس وأنت تريد تضحك عليه".

تذكر الفطحل أنه حقاً أخبر أحد معارفه بموضوع السفر "لكن مع ذلك، وين الأخلاق والأصول عند هؤلاء الحاقدين؟ على الأقل كان لازم يخابروا، يسألوا ويقولوا: يجوز مات هذا الإنسان، تافهين، حقراء، عراقيين!".

اتّجه نحو غرفته، نظّر إلى وجهه في مرآة الحائط، انتبه إلى علامات التعب والإرهاق والحنق والإحباط، "ليش كل هذا الأذى؟ آني ما أسأت لهم ولا مرّة في حياتي! إشحال لو كنت أشتغل عندهم؟ إشراح يسوّون بي؟ أكيد راح يقطعون رزقي ورقبتي، غلاظ القلوب وقساة، ويّدعون "قطع الأعناق ولا الأرزاق!" عدوانيون، بيدو أن الشر متأصل فيهم، هذوله العراقيين ينراد لهم واحد قوي ومتسلط".

أخذ قلماً وورقة، أراد أن يكتب شيئاً ما، نقل بصره مرّة أخرى من خلال زجاج النافذة الكبيرة نحو الخارج متطلعاً إلى الأشجار والتلوج، والغراب، أين الغراب والشحورور؟ تذكّر الشحورور الذي لم يميزه من بين العصافير الأخرى، قال لنفسه معاتباً "تكتب عنه القصائد ولا تعرفه! تّباً لك"، أين الكلاب؟

حتى الكلاب عملة نادرة، لا بد أنها تنعم بدفء جمعية الرفق بالحيوان وحنانها! ضحك للأمر تفو، بصق على الأرض، هامت روحه، أخذ سيجارة، بدأ التدخين، بدأ ينفخ الدخان وينفخ وبدأت القصيدة "تمخر عباب الدخان"، تدفقّ الدم إلى وجهه، ضاقت عينه أكثر فأكثر، أخذ ينفخ الدخان، تصاعدت دوائره مكونة أشكالٍ مختلفة، تمنعها الفطحل، ودّ لو يرسمها أو يكتبها.

ضاق ذرعاً بالغرفة، ودّ لو يُكسّر الزجاج، يهشم رأسه، يخرج، لو يسافر، لو يلقي القصيدة بصوته الجهوري الخطابي لو يرتجلها، لو تسمعه أمه، لو يسمعه هذا الذي اتصل به تَوّاً، لو يكلمه أحد، ودّ أشياء كثيرة، كتبها كلها في القصيدة، غربان، غابات، ثلوج، دبية، أسود، فيلّة والروح حبيسة الحزن والسواد.

اتصل به أحدُهُم شامتاً، فاجأه التّلفون والصوت محدثاً إياه بدون تحيات أو مقدمات على الطريقة الشبابية العراقية:

- هاي شنو إحنه تصوّرناك مسافر، قلت للشباب كلهم انتّ بالمستشفى، قالوا لي: انت تكذب علينا، هو مسافر للمهرجان الأدبي، تصوّر، ما يصدقون انت مريض، المهم إن شاء الله مرتاح.

- طبعاً، مرتاح، تصوّر، هسّه كتبت قصيدة، يا أخي الروح حبيسة والتخليق ضروري، تصوّر، الروح تخلق حتى في الحبس.

قاطعه صديقه راغباً في الاختصار:

- المهم، أي يوم راح تطلع من المستشفى؟

- بعد أسبوعين، الدكتور قال لازم أعمل عملية، تصوّر! قلت لهم: ما أريد عملية، قالوا: لا، لازم تسوي العملية، اهتموا بي جدّاً لأنهم عرفوني شاعر، الدكتور رجل مثقف وطيب القلب وقرأ أشعاري، العملية تكلف ستين ألف ولكن مع ذلك يريدون عملها.

قاطعه مرة أخرى:

- طيب أي راح أقنع الكل انت في المستشفى، يعني لا مسافر ولا هم يحزنون، مع السلامة، ومرة ثانية لا تجيب الثهم لنفسك، بالشفاء العاجل.

- شكراً

قالها بصمت وحسرة. أطرق برأسه إلى الأسفل، كانت نظراته شاخصةً إلى بلاط الأرض الأبيض اللامع، غاب قليلاً عن العالم

سارحاً في خياله، كأن شخصاً يقول له بصوتٍ مسموعٍ: لن يسأل
عناك أحد، لن يزورك أحد، حقراء، كلاب، كان هذا التافه الشيطان
يسخر منك في مكالمته الهاتفية.

كان الفطحلُ يناجي نفسه مفكراً: وَمَنْ يدري، يجوز هو قاعد مع
مجموعة صعاليك سمعوه يحكي وإياك ويضحكون عليك. "طبعاً هو
يغار مني، يحسدني على موهبتي التي لم تجلب لي غير الهمّ والغمّ
والآلام، يغار مني لأنني أكتب الشعرَ ومتميز عنه والدكتور أُعجب بي
وبقصائدي، ولكن هل كان من الضروري أن أخبره بهذا الأمر"، ثم
أكمل متمتماً بين نفسه: "أنت طيب القلب. أنت ساذج!".

عاد الفطحل إلى غرفته يبحث عن ورقته، قلمه، غاباته، روحه،
غربانه، كلابه، "أين الكلاب والأوغاد؟" بصقَ على الارض، الآن
عرفتُ معنى الحياة، "القوة!" قال لنفسه.

الفطل وأمه الشمالية

في هذا الشمال الجميل لا ينقص الفطل شيء غير الأم الشمالية،
تخيل نفسك له أم من هذه البلاد يناديها على طريقتهم: ماما، أو: مامي،
أو: ميمي، أو: مُمَا.

- تصوّر، هي مو مجرد قارئة لأعمالي، هي أمي وهي مطلّعة على
الحكايات والأساطير الشعبية القديمة وعلى عظام الأدباء العالميين.
هي في الحقيقة تذكرني بمربيّة بوشكين، تصوّر!
هكذا كان دائماً يتحدث لأحد أصحابه عن امرأة عجوز، ردّ عليه
هذا متهمكاً:

- يا ريت لو ما حكيت هذه "الاكتشافات" لواحد غيري، يا مغرم
بزُرقة البحر اللّبي ما شفتها ولا مرّة بحياتك.

- هي عالمة بالأدب، أعجبت بشعري وقصّتي، كتبت لي رسالة عبّرت
فيها عن إعجابها، تصوّر، الموضوع طبيعي وسهل الفهم بكل
بساطة، طلبت مني اللقاء والتقينا ودامت العلاقة الأدبية الروحية
وصارت هذه العالمة أمي. ثم تابع قائلاً وهو يقف إلى جانب
مجموعة من أصدقائه قبل بدء حفل خاص:

- هي معجبة للغاية بقصيدتي عن البحر، هل قرأتها؟ إذا كنت ما قرأتها
اسمّعها:

أنا

والبحر

كسبير هو ذو الأمواج الحزينة

فهل

فهل تقبليني

تقبّليني

من فمي وتقبّليني

بعلاً لك

من أذني

ياحورية البحر؟

وتقبليني بعلاً لك يا زهرة المدائن.

بعد أن أنهى الفطلُ قصيدته، قال وهو يفرك أرنبة أنفه بأصابع يده اليمنى:

- هنا الناس اللي فعلاً يقرأون، مو مثل جماعتنا، ما عندهم كل تقدير للشعر، تصوّرْ أني بعثت مجموعتي الشعرية لكل الأديباء والنقاد، لكن مع الأسف... على أية حال ما أريد الدخول في التفاصيل، وأقول باختصار شديد: هناك مؤامرة كبيرة تُحاك ضدنا وكلّ رموز الثقافة الوطنية الأصيلة. هذه حرب غير معانة كبيرة ومنظمة من قبل النظام الدكتاتوري وعمالته العرب في كل مكان.

بالمناسبة أني بعثت رسالة للدكتور حميد النقدي، عاتبته وقلتُ له بالحرف الواحد: ليش ما تكتبون عنا، عن نتاجاتنا؟ إذا أنتم الأكاديميون ما تكتبون عنا، وإحنه بأمسّ الحاجة لأرائكم، من راح يكتب عنا إذن؟ إلى متى راح نبقى إحنه المبدعين نكتب عن بعض؟ هذا غير صحيح. تصوّرْ، أن أغلبهم ما ردّ على هذه الرسائل ما عدا الشاعر المرحوم أحمد الحيدري، اللي كتبت له في لحظة يأس بأني راح أستقيل، راح أترك الشعر. شوف هذه رسالته يقول لي فيها نصّاً وبالحرف، اقرأ: "لا تترك ساحة الأدب للمدّعين والإمّعات، يجب أن تواصل العمل الدؤوب والجهد والمطالعة والتثقيف الذاتي، وإذا تأبرت فإنك ستجد ذاتك في عالم الفن الرحب. أنت مطالب بالقراءة والقراءة قبل كلّ شيء".

ثم قال الفطلُ صارخاً بحماس وعصبيةٍ وشفته تترتجان من فرط الانفعال:

- أكو أكبر من هذه الشهادة بربكم؟ وهذه رسالة، شهادة ثانية لي من

شاعر الحداثة زيوس، خُذْ، اقرأ، يقول: "الأدب جهاد، والدخول في محرابه صعبٌ، عليك إن أردتَ الدخولَ إليه أن تُكوى بسَعِيرِهِ، ونارُ الأدب أكثرُ حُرْقَةً من جهنم، لكنها خاصة لا يَشْعُرُ بحلاوة حُرْقَتِهَا إلا الذين آمنوا، أصحاب الأحاسيس العميقة، وما أتمناه لك أن تذوق لسعة النار، فَمَنْ ذاق عرف، كما يقول الصوفيون. اقرأ، اقرأ، ثم اقرأ كثيراً قبل أن تكتب، واندمج بالحالات الشعرية العظيمة بدءاً من هوميروس مروراً بامرئ القيس و انتهاءً بشوقي والسياب، عندها ستفهم الحداثة بشكل جيد".

لم يكمل الفطحل قراءة الرسالة، لكنه اكتفى بالقول:

- هذه شهادة رهيبة من أكبر شاعر عربي، أبو الحداثة.

قال له أحد الواقفين كانوا يلقبونه "أبو براطم" من المشاكسين الحقودين، مقاطعاً إياه، خازراً إياه في عدوانية واضحة:

- لكن ليش ما كتب شاعر الحداثة هذا عن مجموعتك بمجلته، التي يصدرها، انت يبين عليك ما تقرأ ما بين السطور؟ انت الظاهر فهمت رسالته خطأ، هو يطلب منك القراءة والاطلاع العميق يا أستاذ قبل الكتابة.

- هَسَّه تريدينا ندخل بالتفاصيل؟ وبالمناسبة أني أنشر كتبي وبس، و ما أسأل عن التفاصيل الأخرى، يَلَّه يا جماعة، أستاذنكم، خلونا نسلم على الحضور.

انصرف الفطحل إلى مكانٍ آخر من الحفلة بينما أخذ الحاضرون أماكنهم، قال عنه أبو براطم المتجهم متهمكاً مبرطماً شفثيه والشَرَرُ يتطايرُ من عينيه متطلعاً إلى جلسائه بنظرات متسلطة وكأنه الأخ الأكبر:

- يا أخي هذا مشكلته أنه ما يفهم لغة التلميح، صلف، يريد الدكتور النقدي يكتب عنه، كم مرة قلت له: لازم تتقف نفسك، لازم تطور

شخصيتك قبل الكتابة والنشر، تراث شوية قبل النشر، لكنه ما
يسمع كلامي!

أجابه جليسه، كان في الأربعين من عمره، نحيف البنية يلقبونه
"أبو بريص"، قال له بهدوء مدخناً سيجارته:
- ليش لا؟ يقدّر الناقد يعطي رأيه به بموضوعية.
ردّه أبو براطم متبرماً:

- يا أخي انت إشلون عقلك يقبلها واحد مثل الدكتور النقدي يكتب عن
أشياء تافهة، الكتابة نوع من التواصل، لازم تركز لأعمال راقية،
هي المسألة مو مجاملات بالنسبة له.

- خاينه من هذا الكلام، لازم يكتب عنهم، ينتقدهم إذا يريد، شنو يعني
دكتور وثم ماذا؟ لازم يقيم كل الأعمال الأدبية.

قال له صاحبه أبو براطم مباحكاً بحدّة وملل وهو يستنشق نفساً
عميقاً من الدخان:

- أهوو، انت أبو بريص اليوم من الصبح لحد الآن بس تشاكس وتعاند
لمجرد العناد، النقد استمرار للعمل الأدبي الفني الجيد مو السيء.
صدّقني أني ما عندي شيء ضدّه بس هو مشكلته أنه مفتعل، مليء
بالادعاءات، يحكي عن نفسه وبس! يحب الظهور والشهرة ويريد
الأخرين يكتبون عنه حتى لو سلباً، أهم شيء بالنسبة له هو انشغال
الناس به. والله أني أتمنى له كل الخير بس لازم يطوّر نفسه ويهتم
بشخصيته.

- طبعاً، تعتبرني شاكستك، لأن اختلافت وإيّاك، هذا طبعنا إحنه
العراقيين، إن لم تكن معي فأنت ضدي، ماكو عندنا حلول وسط.
تساهل وإياه وخليه يجرب حظّه.

حضرت المرأة العجوز هذه الأمسية الخاصة، لبّت دعوة الفطحل،
كانت امرأةً طيبةً وخيرةً، ولم يكن هو بالنسبة لها أكثر من إنسان

طيب يسعى إلى الخير محاولاً تقديم البهجة للآخرين.

كان الفطحل يستعد لهذه الحفلة منذ شهور، لا عمَل ولا وظيفة، لا هم ولا تفكير لديه غير الأمسية وطريقة الظهور بقامته الطويلة ومحياه الأسمر الجميل وشعره الفاحم الكث الأشعث أمام الحضور المتلطف له رغم قآتهم.

كان شاعرنا، والحق يُقال دقيقاً في عمله، يرسم أدق التفاصيل ويهتم بها ويستعيدوها ويستعد لها بكامل جاهز يته وكأنه عسكري متوجه إلى ساحة الوعى. يجرب ويتدرب ويتمرن على الإلقاء بعدة أشهر قبل هذا الاحتفال، يذهب يومياً إلى إحدى معارفه، يبقى هناك يقرأ لها وتقرأ له، يقرأ لها وتقرأ له، يقرأ لها وتقرأ له حتى يصل إلى درجة نضج الإلهام. هو يقرأ كلمة بلغته بينما تقوم هذه المرأة الطيبة بالأمر نفسه بلغتها. بقيا على ديدنهما هذا عدة أيام وليالٍ حتى اكتمل التدريب يوم الحفل.

قال عنها أبو براطم، جاحظ العينين، وكان يشرب ويأكل بشراهة، والسيجارة لا تفارق شفثيه:

- شوف الخز عبلاط: هو يقرأ كلمة وهي تقرأ أخرى. لو كان هناك إلقاء أو خطابة وقافية لتفهمت الأمر، يضحك على الناس، وهم لا يفقهون ما تلقي عليهم! أرملة وحدانية تعيش لوحدها بين هذه الجدران، لا من يسأل عنها ولا من يكلمها، الحياة هنا صعبة، التلفون غالٍ والتفافز ممل، العمل غير متوفر والدراسة متعبة ومملّة، فلا بد من الخروج إلى الشارع والذهاب إلى المدرسة يومياً، التحضيرات والدراسة اليومية صعبة ومزعجة. تعال إذن أيها الفطحل دعنا نستأنس بأشعارك، انت الغطاء وأنا القدر، وافق شنّ طبّقَه!

أكمل جملته الأخيرة غاصّاً في ضحكة خبيثة غير ودية وهو يسعل وصدرة "يخرخش" كسيارة قديمة.

كان الفطحل بطبيعة الحال يعاقر الخمر، صار يشربه ويشربه،
ينفخُ الدخان من سيجارته ولا يستنشقه. الجميع كان يلاحظه ينفخ
وينفخ، ازداد نفخ الدخان بل نفثه وشرب الخمرة قبل يومين من
الاحتفال بالذات استعداداً له، يشتري قناني النبيذ والعصير، يوزع
الدعوات، ويقوم بالأشياء الأخرى بنفسه. يلتقي بالبنات، يسلم عليهن،
يحتضنهن بطريقة أهل البلد، لا يتجاوبن معه بحرارة، يستمعن إليه
بملم واضح، يجدن صعوبة في فهم كلامه، يحاولن أن يصغين بانتباه
ليفهمن ما يريد أن يقول. الغرباء هنا يتحدثون عن انتقاص أهل البلد
لهم إلا هو:

- مَنْ قَالَ هَذَا الشَّيْءَ، هَذَا الْكَلَامَ الْفَارِغَ؟ هَرَاءَ!

يُرِيدُ أَنْ يَثْبِتَ أَشْيَاءَ لَا وَجُودَ لَهَا كَمَا يَقُولُ خُصُومُهُ. هُوَ لِأَنَّ النَّاسَ
مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ مُؤَدِّبُونَ لِلْغَايَةِ، لَا يَفْصَحُونَ عَمَّا فِي دَوَاخِلِهِمْ وَمَا
يَفْكُرُونَ عَنْكَ وَعَنْ ثِقَاتِكَ لَكِنَّهُمْ يَحِبُّونَ تَلْبِيَةَ الدَّعَوَاتِ وَقَضَاءَ الْوَقْتِ
خَارِجَ بَيْتِهِمْ، جَرَّبَ أَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى حَفْلَةٍ عَامَةٍ وَسَتْرَى السَّعَادَةَ
تَغْمِرُهُمْ، كَيْفَ لَا وَأَنْهُمْ سَيَشْرَبُونَ النَّبِيذَ وَيَجْلِسُونَ حَوْلَ مَنَاضِدَ
وَضَعْتَ عَلَيْهَا شَمُوعَ، لَا شَكَّ أَنْهُمْ سَيَرَوْنَ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةً عَنْ تِلْكَ الَّتِي
اعْتَادُوا عَلَيْهَا فِي أَيَّامِهِمُ الْعَادِيَةِ.

هُوَ لِأَنَّ النَّاسَ طَيِّبُونَ، جَمِيلُونَ لِلْغَايَةِ صَرِيحُونَ فِي الْكَثِيرِ مِنْ
الْأَشْيَاءِ الْعَامَةِ بَعْضَ الْأَحْيَانِ، مُتَحَفِّظُونَ وَمَجَامِلُونَ فِي الْأُمُورِ
الْخَاصَّةِ أَوْ الْمَثِيرَةِ، هَكَذَا هِيَ طَبِيعَتُهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ "نَحْنُ
نَاسٌ مُؤَدِّبُونَ" وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ "نَحْنُ نَخَافُ الْآخَرِينَ، نَحْنُ نَخَافُ كُلَّ
شَيْءٍ، نَخَافُ أَنْ نَتَحَدَّثَ إِلَى الْآخَرِينَ وَنَخْدِشَ مَشَاعِرَهُمْ، قَدْ نَقُولُ
شَيْئاً غَيْرَ صَاحِحٍ، يَنَافِي تَقَالِيدَهُمْ أَوْ عَادَاتِهِمْ إِنْ كُنَّا لَا نَعْرِفُهُمْ، قَدْ
نَجْلِبُ مَشَاكِلَ لِأَنْفُسِنَا وَهَنَّا الْآلَافَ مِنَ الْإِحْتِمَالَاتِ وَ"قَدَاتٍ" قَدْ، وَقَدْ
وَقَدْ، أَلَا يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَأْخُذَ بِقَوْلِ سَقْرَاطَ: "تَحَدَّثْ قَلِيلاً كَيْ لَا تَخْطَأَ
كَثِيراً" نَجَامِلُ وَنَبْتَسِمُ. هَلْ هُنَاكَ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ هَذَا؟

العصبيون والعصابيون والمتوترون والمتوترون من بلدان الحر والأحزاب والاحتراب والانقلابات والقتل والدمار والحروب والحدق والحسد والقتيل والقال من العرب والكرد والترك والعجم يقولون: "هذه ابتسامات نفاق" وقليل منهم يقول "يا ناس على الأقل الابتسامة بداية لحوار جميل، أو على الأقل تُطمئن الإنسان" لكن كل هذا لا يقنع المتشنعين والمتوترين ممن يشعرون بالتهميش والمعانين من أمراض نفسية أبداً، هؤلاء سيبقون طوال عمرهم زعلانين حزنانين وحردانين، كل واحد منهم يتصور نفسه أفضل من الآخرين بل من كل البشر.

هؤلاء الحساد فعلاً غريب أمرهم! كيف سيتخلص الفطحل من الناقمين على المجتمع وكل شيء، كيف سيواجه هذا الإنسان، طيب القلب هؤلاء العدوانيين؟ ماذا سيعمل لهم إن حاولوا استفزازه أو السخرية منه وهو الرجل المسالم الذي لا يقوى على إيذاء نملة صغيرة؟

كانت إجراءات الحفلة قد تمت وانتهت الاستعدادات، جلس صديق الفطحل إلى جانب تلك الأم الطيبة هو ومجموعة أخرى، كانوا أصحاب طرب وكيف غير حاقدين، كانوا مازحين متعاطفين معه، أراد الجميع أن يتحدث إليها عن أمور الأدب والثقافة.

لم تُظهر المرأة العجوز أيَّ اهتمام، حاولوا وحاولوا، جربوا كل اللغات، لم يجدوا لغة مشتركة.

كانت المرأة الطيبة تجيد الابتسامة الهادئة، جلس معهم "حميد روسيا"، كما كانوا يلقبونه، كان هذا مغرماً بروسيا، يذكرها في كل مناسبة أو غير مناسبة، همس لصديقه بخبث محرّكاً أصابعه الطويلة الرفيعة إلى الأعلى:

- هذه الجدة ينطبق عليها المثل الروسي: لا سمكة ولا دجاجة، ماسخة.

رمقه صديقه "نعمان كآبة" بنظرة تأنيبٍ مستاءٍ منه:

- عيب عليك، اختش هذه مثل جدتك، امرأة عجوز، كبيرة السن، انت عشت في روسيا بس سنة، إشخبصتنا بيها؟ إشحال لو عشت بها سنين طويله؟ كافي عاد طلعت أرواحنا، خلينا اليوم بلا روسيا الله يخليك.

دارت بينهم مجاملات ومدارات والمرأة العالمة لم تنفوه بشيء عن الشعر، لم تقل شيئاً عن كتابه الجديد. يا ترى ما الذي حدث؟ احتار الجميع لهذا الأمر، توقعوا منها أن تحدثهم عن الأدب وعن انطباعها عن كتاب الشاعر الهمام، لكن لا شيء من هذا القبيل.

بعد لحظات جاءت فتاة شرقية جذابة، لبقة ومحدثة جيدة، باسمه الأسنان، جلست إلى جانبها ويبدو أنهما اندمجتا في حديث ممتع، أخذتا تتحدثان عن أمور الصحة والأكل المغذى والفيتامينات والسفر والشمس والطقس.

حميد روسيا، ويبدو عليه من الذين أفنوا حياتهم في قراءة جريدة أنباء موسكو، ذكر آراء شيخوف عن النساء عندما يتحدثن عن موضوعات السياسة والفكر والمطبخ.

قال حميد روسيا متناقفاً مُرتبياً نظارته باليد اليسرى بينما كان يحرك سبابته اليمنى بين لحظة وأخرى حركاتٍ متناسقةً مع حركة عينيه النرجسيتين الواسعتين:

- المرأة "تنقعر" عندما تتحدث عن السياسة.

صديق آخر للفظل "نعمان كآبة"، كان هو أيضاً يبدو عليه أنه أفنى حياته في قراءة الصفحات الثقافية للصحف والمجلات، إلا أن عينيه كانتا سته على سته ولا يستعمل نظارات ولا هم يحزنون، وأصابعه ليست رفيعة ولا طويلة وعيناه صغيرتان عسلتان، قال:

- بالمناسبة "تتعر" هذه أكيد من بهاراتك، هل صحيح أن تشيخوف قال مثل هذه الكلمة؟

لَمْ تُعَرِ المرأةَ متدَوِّقَةَ الشعرِ، مربيةَ الفطحل لكل هذه الأحاديثِ أهميةً، لم تحاول أن تسألهم عمَّ يتحدثون مثلاً، كانت تنظر ساهمةً في الوجوه والجدران واللوحات المعلقة وقلادة الشابة، الجالسة جنبها.

رأها أحد المتحدلقين تتلمس القلادة وتسالها عن نوع الذهب، ازداد التعقيد بالنسبة لبعضهم وكثُر اللغَطُ واختلقت الأقاويل.

قررَ أحد الحضور الفضوليين من الكتاب الهائمين والمدّعين بالولءِ، أن يقطع "شكّه" باليقين، سألها بأدب متصنع متطلعاً إلى الآخرين:

- يا ترى ما هي الموضوعات الأدبية التي تكتبين عنها، وما اسم المعهد الذي تعملين فيه؟

- ماذا؟ ماذا تقول؟ عم تتحدث؟

وأردفت مبتسمةً:

- أنا امرأه عجوز متقاعدة، لم أكتب شيئاً ولم أعمل في كل حياتي، كنت مشغولة بتربية أطفالي السنة!

صُعق الجميع وبدت علائم الدهشة على وجوههم جليةً، راحت تحدثهم عن عوائل أيام زمان، وكيف كان الناس يحبون تربية الأطفال رغم صعوبة الحياة، كانت العوائل كبيرة والناس لم يكونوا مدللين وأنانيين كما هو الحال في الوقت الحاضر رغم توفر كل شيء لديهم لكن الشعور بالإنسان يتناقص يوماً بعد يوم والأبناء يتركون ذويهم مبكراً مهتمين بأنفسهم وحياتهم الخاصة ويعانون من مشاكل وأمراض لم تسمع بها عندما كانت شابة مثل الإيدز وغيره، ويعيشون حياة شبه بوهيمية ويتزوجون ويطلقون بسرعة، ولا يباليون لذويهم في آخر سنواتهم فيتركونهم يموتون لوحدهم في دور العجزة.

كانت الأم النرويجية هادئةً، تبدو على وجهها الدائري الورد

ملامح الورع الديني والطيبة. لم يفارق الحزن والشفافية نظراتها وبريق عينيها أبداً، ازدادت حدة الحزن عندما صارت تتحدث عن دار العجزة الذي تسكن فيه منتظرةً ساعتها الأخيرة. قالت بآلم:

- بعض هذه الأمور غير موجود عندكم، أنتم مختلفون عنا لكنكم لستم أفضل منا ولا نحن أحسن منكم، أعتقد أن لديكم أشياء جميلة، هذه حقيقة نعتزف بها نحن جميعاً ولكن القليل منا من يود أن يعلنها ويتعلم منكم، إنه مجرد خوف من الآخر، مثل الطعام الغريب، وبالمناسبة حتى الأكل الغريب كان الناس لا يعرفونه قبل مجيء الأجانب إلينا، لكن على أية حال فالطبخت الغريبة لا بأس من التعوّد عليها أما التقاليد فهي شيء آخر والناس عندنا يخشون العادات الأجنبية ليس لأنهم متعلقون بتقاليدهم، فهناك مئات الآلاف منهم من لا يبالي على الإطلاق لا بالعادات ولا بالدين، لكنه مجرد فراغ وخوف من المسؤوليات الجديدة وتحديد الحريات وردّ فعل ليس إلا.

ثم أردفت قائلةً: أذكّر لكم مثلاً بسيطاً، وهو الذبح الحلال، والذي كان في السابق يذبح بنفس الطريقة، ولم يكن الناس يطلقون رصاصة تخدير في رأس الخنزير أو البقرة والخروف، بل كانوا يذبحونها كما يفعل المسلمون واليهود اليوم، لم هذه الضجة الإعلامية، هل هو خوف من هذه العادة التي أصبحت جديدة علينا أم حساسية من الآخر؟

انسجم الحضور معها أي انسجام، أدرك الجميع أن هذه المرأة الطيبة ما كان يمكن الانسجام معها لو كانت مليئة بالتعقيدات وعلوم الأدب والفلسفة.

نظر الجلساء بعضهم إلى بعض نظراتٍ مليئةً بالدهشة، قال أبو براطم ساخراً من الفطحل:

- عقدة نقص! يلتقي مع إنسان عادي، يقول لك "عندي موعد مع فنان"، يلتقي مع شخص آخر من هؤلاء الناس يقول لك "هذا عالم

في الأدب والفلسفة".

قال له حميد روسيا، الشاب المثقف ذو الأصابع الطويلة الرفيعة مبتسماً:
- انتَ بصراحه، تحمّل الأشياء أكثر من حجمها، يا أخي تساهل.
ردّ عليه أبو براطم، مكشراً عن أنيابه بينما عيناه جحظتا والسجارة
تهتز بين إصبعيه:

- مَنْ قال لك هذا الكلام؟ شنو قصدك؟ انت تحكي عن شيء ما عندك
علاقه به، أنت تعرف الموضوع؟

قال حميد روسيا مبتسماً محرّكاً كعادته يديه الطويلتين إلى الأعلى
كأنه يتبارز بهما، مدافعاً بحدّة:

- إي، نعم، أعرف الموضوع، انتَ تبالغ في التفسير وتشكك كثير، يا
أخي انتَ تضخّم الأمور وتعطيها أكثر من حجمها، انت مفخّخ!

- سدّ الموضوع، ما لي مزاج أناقتك، باجر أحچي وياك.

قالت البنت ذات القلادة الجميلة في لهجة شاميّة:

- شو عمّ تحكو؟

قال لها الشاب السمين مبتسماً، ذو الأصابع المتينة والقصيرة وكان
يتميز بالهدوء ويلقبونه "عدنان السمين أو الدخو" وبدت الخمرة تصل
إلى رأسه والنشوة في عينيه الغائرتين:

- نحكي عن الحب. في شيء ألقى من الحب؟

- شو به الحب؟ شو قلتم عليه؟

- قلنا عليه الحب هالحرفين مش أكثر.

- ومين هي الحبيبة، مين هو الحبيب؟

صاح الجميع مرةً واحدةً:

- الفطل، وهل يخفى القمر؟

فوجئتُ البنت، التي أعجبتها لعبة الحديث عن الحب، كانت عيناها

متسائلتين، غرقت معهن في قهقهات، فرحت لهما مربية بوشكين. كانت المرأة العجوز، مربية الفطحل تتطلع إلى وجوههم الضاحكة مبتسمة. لم يسلم الفطحل من تندراتهم الطريفة وسخريتهم الودية.

أطلّ عليهم الشاعر الولهان بوجهه البشوش بعد انتهائه من الإلقاء لأناس لم يصغوا إليه. جاءوا للتسلية وقضاء الوقت في زمان يهتم الناس فيه بكرة القدم لا بالشعر، نظراً هؤلاء الحضور إليهم وابتسامة طفولية تغطي وجهه قائلاً:

- ها، إشلون الأمور؟ رائعة؟ محتاجين شئ؟

ردّ الجميع ضاحكين مرة واحدة مثل الفرقة:

- كلّه تمام، وهذه العالمة حكّت لنا كل قصص الأدب.

- العالمة؟! تساهلوا، لا تعقدوا الأمور، يجوز يكون خطأ مطبعي!

قالها صاحبهم والطفولة بدت واضحةً في ملامح وجهه، غرق الجميع في الضحك وأيديهم متشابكة وروح الدعابة والود والألفة تغطي عليهم.. ها.. ها..

كانت العجوز ذات الملامح الإنسانية النورانية، سعيدةً لمزاج الشباب وهم يضحكون، تنظر إليهم بعينين مبتسمتين، ورعتين نظرةً يمتزج فيها الفرح بالقلق كأبي أم تراقب من بعيد أطفالها أثناء لعبهم.

النفاق

ممرٌ طويلٌ، معتمٌ، يفصلُ بين قاعاتٍ دراسيةٍ. مجموعاتُ الطلبةِ تتجمَعُ هنا وهناك. قالَ الضعيفُ للسمينِ "الدخو" المشهور بِبساطتهِ وطيبتهِ:

- واحدٍ حقيرٍ، لا تصدقه، يا أخي قبل مدة أخذ مني فلوس ولحد الآن ما رجعها.

ردُّ عليه السمين مهدئاً أعصابه:

- مو مشكلة، يجوز يرجعها لك بعدين، ممكن ما عنده حالياً يا أخي تساهل وإياه.

ردُّ عليه الضعيف بعصبيةٍ رامياً عقب سيجارته على الأرض. دعسها بقدمه كأنها ذبابة أو شيءٌ ما أزعجه، كان يببدو عليه القوه والعزم رغم نحافته:

- انت طول عمرك "أبو خطية"، بشرفي انت أكبر "زوج" والله أني تعرفني ما عندي لحية مسرحة، عند الضروره أفرك خشم أكبر واحد بهذي الدنيا. يعمود نولة العراقيين ما يفيد بيهم غير العين الحمراء.

- على كيفك، الدنيا ما تسوه، كل شيء بالتفاهم. وبالمناسبة تقدر تقول لي ليش نسمة الإنسان البسيط "زوج"، والعجيب هذا موجود عند العراقيين بس؟

- أهووو... أنت بعدك بهذه الكلائش، رُح، رُح الله وياك، من رخصتك أريد أروح للتواليت.

- في طريقه إلى التواليت استوقفه اثنان من الطلبة، قالوا له ضاحكين:

- تعال، سمعت الأخبار والمصائب والطلايب والشعار؟

- لا، شنو صار؟

- معقولة ما تعرف؟ صاحبك العبقري الشعار؟

- من صاحبي؟
- و غرق الثلاثة في قهقهات عالية، انتبه الآخرون إليهم.
- مَنْ هناك غير غوني؟ أبو اللي، تسوي نفسك ما تدري بالقضية؟
- طيب، خير إن شاء الله، شصار بغوني؟
- صاير شاعر آخر زمانه!
- وشنو العجيب بالموضوع وشنو دخلكم؟ ليش كتابة الشعر لكم بس؟
- لا، من قال لك هذا الكلام، إحنه ما قلنا أي شيء، كل ما في الامر إحنه استغربنا للأمر.
- و ليش عيني تستغربون؟ لو مـكـدي ما يحب مـكـدي؟ موتوا يا مـكـاديه من القهر.
- ثم أرفف بسخرية وبالعربية الفصحى:
- شحاذ لا يحب شحاذاً. ها ها ها! هذا الشاعر غوني حتى اسمه غريب! مرّة يقولون روني، ومرّة ثانية يسمونه عتبار ومرّة أخرى قرندل والله ما افتهمنا.
- غرق الجميع في الضحك من جديد، وقال أحدهم مقهقهاً:
- بس بشر فك شنو رأيك بقصائده؟
- مثل شعركم، وشوية أحسن، يا عواذل فلفلوا.
- و ختم حديثه بقوله:
- "من رخصتكم رايح للتوالييت. مستعجل".
- قبل أن يدلف السمين إلى الزاوية حيث التوالييت استوقفه أحد الطلبة، كان عريض الوجه، واسع العينين، مبتسماً قال له:
- تعال، تعال، أخبرك قصة جديدة و...
- اسمع، من فضلك خلّها بعد التوالييت أفضل!

- لا بالله عليك خَلّني أحكي لك إياها قبل ما تروح للتواليت.
- ليش عيني حتى تسد نفسي، يا رجل آني أصلاً طول عمري بطني إمساك! وآني ما عندي مزاج!
- لا، من هذه الناحية اطمئن، راح أفتح شهيتك بسّ مو للتواليت، لكن لقضايا أخرى.
- غرقا في الضحك ممسكين ببعضهما بوّدي وبروح شبابية.

كان السمين يجلس على كرسي عتيق مهمل في الحديقة، لم يكن يفكر بشيء غير أولئك الذين يشغلون مشاعره في غربته التي لم تتبدد لا بالدخان ولا بأشياء أخرى، لا شيء غير الانتظار. كان يجلس إلى جانبه صديق آخر يتصفّح بعض الأوراق، اسمه أحمد، هادئ الطبع، يميل إلى الصمت والتعليقات المقتضبة، وكان أصحابه كثيراً ما يسمونه "أبو الهول" مازحين.

يذّ تربيث على كتفه، فرّ للحظة ثم عرف صاحبها الذي بدأ يسأله:
 - شنو القصة؟ ليش كاعدين هنا لوحدكم؟ إشلونك أبو الهول؟ أشوفكم مو على بعضكم! الدنيا ما تسوه زعل.
 قبل أن يتم حديثه بكلمات أخرى أجابه السمين بهدوء مشيراً إلى كرسي آخر إلى جانبه:

- أهلاً قاسم، أقد، استرح.
- شكراً.
- تأخذ سيجارة؟
- لا، شكراً، ما عاجبني، ضايق خلقي.
- اللّي خُلّفه ضايق لازم يحرق صدره، احرق يا رجل.
- هيجي تشوف؟ يّله خُلّنا نحرق صدورنا.

كأنه يود أن يقول له شيئاً، بادره السمين:

- أشوفك مو على بعضك؟ متضايق من شيء؟

زفر قاسم زفيراً عميقاً، قال وكأنه يتمم مع نفسه:

- والله يحتار الإنسان شيقول عن البشر، يا أخي انعدمت الأخلاق والأصالة وما بقي غير التفاهات.

قال له أحمد أبو الهول مهدئاً إياه:

- اصبر إن الله مع الصابرين.

بينما قال السمين:

- تساهل يا قاسم، لا تعقد الأمور، كلها غمامة وتزول.

- أوف، انت دائماً هيك، إنسان طيب وقلبك نظيف، لكن يا حيف وألف وسف، الناس ما يقترون هذه الطيبة ولا يحترموها، ويسمونها سذاجة وغباء و...

وقبل أن يكمل قاطعه السمين قائلاً بهدوئه المعتاد في لهجة متسائلة:

- أشوفك تحكي بالألغاز يا قاسم! احك بصراحة!

- والله شنو أكثر من هذه الصراحة يا عدنان؟ انت فعلاً مثل ما يقولون نايم ورجلك في الشمس!

اندهش عدنان المتين، زاغت عيناه أكثر، مرر يده اليمنى على شاربيه وشفثيه الغليظتين، أخذ نفساً عميقاً من سيجارته، قرب وجهه إليه متسائلاً:

- شنو قصدك من كل هذه الألغاز؟

- والله في الحقيقة أني بقيت متردد كثير قبل أن أفكر بنقل القصة لك، ولكن الصداقة والزاد والملح بيناتنا يجبرني أن أنقل لك كل شيء أعرفه.

- طيب من دون مقدمات ومجاملات، احك لي باختصار، لا تمرر

قلبي، تره أني بلا شيء قلبي محروق، وقسماً بالله، أوف.. أوف..
 - والله في الحقيقة أني مقهور كثير والمرارة بقلبي، وبشر في لولا
 العيب عملت له سالفه كبيرة ومشكلة عويصة و...
 - يا أخي من هذا اللي انت لهذه الدرجة متضايق منه؟ قل لي بالله عليك!
 - هو انت تعرفه زين!
 - تقصد من؟

قال أحمد أبو الهول مدارياً الموقف راغباً في الخروج منه، موجهاً
 كلامه إلى عدنان:

- لا تدوخ نفسك عزيزي عدنان، تساهل أخ قاسم، تساهل بالله عليك!
 قال عبارته الأخيرة ناظراً بعينين معاتبنتين غامزتين إلى قاسم.
 تلملم قاسم، بدا الحرج في عينيه، نظر إلى الخلف مرراً أصابع يديه
 على شعره الكث ممشطاً إياه، ضرب الأرض بقدمه اليمنى، فرك
 عينيه الصغيرتين بإصبع يده اليمنى، حك أنفه بقوة، جالت نظراته
 المكان هنا وهناك قائلاً بارتباك ملحوظ، تجنّب نظرات الآخرين:
 - يعني، خلينا بلا فضائح ولا ذكر أسماء، ثم أني مجرد ما راح أحكي
 لك القصة انت راح تفهم المقصود.

- طيب، احك لي الموضوع، أفلقتني يا رجل!
 - طيب، على كيفك، وإلا أني ما أردت أن أدوخك بالمسائل الطايح
 حظها. باختصار، هذا صاحبك اللي دائماً تهتم به، كأعد يحكي
 كلام كثير وما عنده كل شعور بالمسؤولية، يعني أقول لك مرة
 ثانية هو واحد تافه وجاحد و"بدأت" أناي وحرام الواحد يساعده.

قبل أن يكمل قاسم حديثه قاطعه عدنان قائلاً بملل:
 - فهمت قصدك. صدقني الموضوع كله تافه وما يحتاج كل حرق
 الأعصاب، ولازم تعرف أني فاهمه وعاجنه وخابزه، بس تقدر

تقول متساهل وإياه، مرّة أقول لنفسي "هذا واحد مسكين" ومرّة أقول لها "هذا واحد... والله ما عندي مزاج أحكي عنه، شنو تريديني أسوي له؟ ثم هذه الأمور تافهة وما تستحق تشغل نفسنا بها لأنها صغيرة، يا جماعة والله عيب علينا نضيع وقتنا على أمور تافهة وأناي قلق على الأهل ببغداد، جماعة الأمن مروا على زوجتي وهددوها وحققوا وإياها يسألوها عني، الظروف هناك صارت لا تطاق وأناي خايف عليها وأطفالي ولازم أسحبهم بأي ثمن والمشكلة هي مريضة.

- يا أخي أني فاهمك وأعرف ظروفك وكلنا نتعاطف وإياك، وبالْحَقِيقَة كلنا بالهوى سواء، أنت تعرف أني عندي نفس الهموم، لكن ما أريدك تحكي عن هذا الشخص بهذه الطريقة الساذجة لأنني ما شفت إنسان جاحد وناكر جميل مثله، وأناي شنو داخل بجيبي حتى أحكي لك هذه الأمور لولا محبتي واحترامي لك واعتزازي بك، بصراحة وبدون مجاملة أنت فخر لنا كلنا ونحن ما نقبل أي واحد يأخذ غيبتك أو يحاول يتمسخر عليك أو يتصور طيبتك الزائدة سذاجة لو غباء، وعلى أية حال أني أترك كل الأمور لك وما أتدخل بشؤونك، عساه يأخذ غيبتك أو يشتمك.

أني من الآن فصاعداً لا أتدخل ولا أنقل لك أي خبر، سواء شتمك أو طرح اسمك قدام الناس يستهزأ بك.

تغيرت ملامح عدنان، تغضن وجهه، احمرّت وجنتاه، بشرته انقلبت إلى حمراء، جبهته بدت كأنها مرسومة بخطوط حمراء، كأن الدم احتصر في كل رأسه، عيناه لم يبداً منهما شيء، تغير شكله تماماً، تحول إلى إنسانٍ آخر، صرخ بقاسم كالوحش قائلاً:

- وصلت لدرجة أن هذا الطفيلي التافه العايش على الآخرين يسخر مني أو يشتمني، لازم تعرف أني عارف كل شيء، أني أعرف أنه أخذ غيبتي أكثر من مرة، تصور قبل مدة قال لصديقنا كريم الأسود أني أهتم به

حتى أتقرب منه، على أساس هو شخصية عظيمة!
قال عبارته الأخيرة بلهجة خطابية. كان كريم الأسود قد ظهر
متجهاً نحوهم وهو يسمع حوارهم، بادرهم قائلاً:

- الله، الله، شنو هذه القدرة المسرحية والخطابية يا عدنان؟ أشوفك
اليوم عصبي؟ السلام عليكم، إشلون أمورك يا قاسم؟ تحياتي لك
أبو الهول!

- تحياتي لك عزيزي كريم.

أجاب قاسم محبطاً متعكر المزاج:

- وعليكم السلام، تعال أقعد وشوف هذا التافه إشلون لسانه طالع، فعلاً
"إن أكرمت اللئيم تمردا".

ردَّ كريم قائلاً محني الظهر، مطأطأ رأسه:

- تحكي لي أني عن هذا التافه ال بي عار؟ أني آخر من تحكون له عنه
لأنني أعرف كل سؤالفة ولقَّه ودورانته وتمسكته "تمسكن حتى
تتمكن" وباختصار أصلاً أني ما أحب أسمع عنه أي شيء لأنه واحد
خائن وجاحد وناكر جميل وما عنده كل مبادئ. تَصَوَّرْ هو آخر مرة
قال عنك إنك طماع وبخيل ورجل أمي، لا عندك علم ولا فهم. وإذا
تتصورني كذاب أو منافق! إذا عجبك، فُلْ له: كريم الأسود نقل لي
هذا الكلام، وأنني مستعد في أي لحظة أن أواجهه.

انت لو تعرف الحكيم الكبير اللّي يقوله عنك تجن، هذا لا عنده قيم
ولا أخلاق، لا احترام للشرف ولا العرض ولا التقاليد، يا رجل هذا
يشك حتى بأمه، وأنّي ما شففت بحياتي مثله بخيل ومدّع، يدعي
السياسة والحب والنسوان والفقر والمسكنة، وهو مجرد إنسان فاشل
عايش على الناس، تصوروا بعد كل صداقتي وإياه، لما وصلت لهذا
البلد اتصلت به هاتفياً وأردت أشوفه، جاء لي بعد كم يوم من وصولي
لهذا البلد وبقيت لوحدي ولا "أحد ولا ماخود" قولة أمي الله يرحمها.

يا سيدي، قُلْ تساهلنا من هذي الناحية، قلنا مو مشكلة، يمكن يكون الرجل مشغول، كل شيء يصير بالدنيا، وفي النهاية المثل يقول: الغائب حجتة وإياه، على أية حال جاء بعد مدة وقال: يعجبك نازل للمدينة؟ قلت: ليش لا، آني محصور يا رجل هنا بين الحيطان مثل السجن، طلعتنا ووصلنا للشارع، انتظرنا سيارة النقل العام، ركبنا الباص وفاجأني قدام السائق يقول لي: الناس هنا يدفعون الأجرة للسائق، ادفع له أجرتك!"

ضحك كريم، رفع يده إلى الأعلى كأنه يشير إلى غراب أسود حَقَّق فوقهما، أخذَ سيجارةً جديدةً من علبته، أشعلها، وضعها في فمه، كانت شفثاه ترتجفان، مَرَّرَ أصابعه على شاربيه، فَرَكَ راحتي يديه، صمت قليلاً، شعر بالألم، حَسَّ الآخرون بحزنه، رمقوه بنظرات متعاطفة، كأنه كان يهم بالبكاء، التقت نظراته بعيني عدنان، انتبه الأخير إلى الحزن في ملامح وجهه وعينه العسليتين المدورتين الطفوليتين.

كان أبو الهول يتصفح كتابه وعيناه تتطلعان إليهم بين الفينة والأخرى. ساد صمتٌ قصير، لم يعلق أحد على كلامه، قَطَعَهُ متمماً حديثه، ساهماً بنظراته إلى الأمام كأنه يسترجع ذكرياته وكانت ابتسامة ساهرة مرتسمةً على شفثيه:

- على أساس أنه دَ يعلمني إشلون يدفع الركاب للسائق أجرتهم في هذا البلد! تتصورون هذه التفاهة؟ أصلاً آني ردت أدفع أجرتة وأجرتي، آني طبعاً خجلت و"تعالى يا أرض انشقي وابلعيني"، ردت أنزل، لكن السائق شَعَّلَ الحافلة، ردت أمسح الأرض به، أرزله زالة وأذكره بكل شيء لكن عيب، كان طول عمره يشكي ويبيكي، "الظروف صعبة، الظروف صعبة، أمورنا تعبانة"، بوقتها قلت لنفسي " هذا مسكين راح يموت من الجوع.

آني ما أحب الشكوى وأخذ بالمثل اللّي كان جدي الله يرحمه دائماً يقوله: صِيت الغنى ولا صِيت الفقر! هيچي يعني كانت طبيعة جدي،

كان من جماعة: أُصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب!

قال له أحمد أبو الهول بهدوء مواسياً إيَّاه محاولاً تهدئة الخواطر:

- يا أخي هذا مسكين ومسالم ويا ريت لو كل الباقيين مثله، والله أحسن من غيره بكثير، وبالمناسبة مو مشكلة إذا ما دفع عنك أجرة الباص.

- حكي أبو الهول، أنت خليك بأوراقك أحسن لك، سامحني أبو الهول، بس والله يا أخي ما اختلافنا هو إنسان مسالم على عيني وراسي بس مو يهيننا ويقول علينا إحنه أميين لا نقرأ ولا نكتب، لكن خايني أكمل لكم القصة باختصار، فجأة قال لي لما كنا ف الباص: ننزل هنا، راح أعرفك على متحف يجتلك، تصور المتحف جنبك وأنت ما تدري. شميت، أو شممت حتى ما يزعل أبو الهول، بكلامه ريحة غريبة: المتحف جنبك!

آني شنو علاقتي بالمتحف؟ آني والمتحف شنو؟ كجّه، مرحباً؟ على قولة العراقيين، آني رجال هلكان، تعبان نفسياً، الأمن صادر واطلي، حطوني بالسجن، هربت من الحبس وما أعرف وين مرّتي وأطفالي راحوا، وبعدين رحّت للشمال وعبرت الحدود والدول والمطارات والمحطات وسلّمت أمري ومالي وحلالي للمهربين بس حتى أخلص من الموت وأنقذ عائلتي وآني ما أفهم لا إنكليزي ولا سنسكريتي حتى وصلت لهذه البناية داخل هذا المكان اللّي شفت به نمايم تعيسة وخليط غريب عجيب عمري ما شفت مثله. آني وبين والمتاحف وين؟! يريديني أطلع للمتحف!! بالله عليكم شايفين هيـچي واحد مدّعٍ وكذاب؟ باختصار اللعبة ما عبرت عليّ، آني أخوكم وأعرف هذه النماذج التافهة، لا عندها أخلاق ولا قيم ولا مبادئ وضيعت المشيتين لا حرفة ولا مهنة وما بقي عندهم غير اللف والدوران والتجارة بالمبادئ ولا تعرف العيب، لكن قلت: خاينا نشوف وين يوصل أمره هذا، وفي النهاية طلع لا متحف، لا تاريخ ولا أدب ولا بطيخ، كل ما في الأمر

المكان عبارة عن دكان أو محل بيع كتب قديمة، أقصد مكتبة فيها كتب، سجاجدات قديمة، مثل هذه المكتبة تقدر تشوف بقدر الزبل، كل ما في الأمر راد يتخلص مني، فعلاً تمشينا، ما سمعت منه غير الشكوى والفقر والجوع وادعاءاته ولقّه ودوران، فهمت أنه كان خايف من شيء، قلق، كان مرّة يقول: التلّفون هلكني، ومرّة يقول: تكاليف الحياة غالية. أسكتوا وخلّوها أني صبرت عليه لمجرد أنه حتى لا يتصورني "حاسده على خر.." عفواً مثل ما يقول المثل.

فَهَقَّه الجميع، قال عدنان مشجّعاً إيّاه وكرشه يتحرك لوحده من شدة غرقه في الضحك:

- هذا المثل، إشلون ذكرته؟ هذا مثل عراقي فظيع!

شعَرَ كريم بالحماسة والرغبة فـفي مواصلة الحديث بعد إطراء عدنان له، أردف قائلاً:

- والله لو ما هذه التفاهة لمّاعرفت هذا المثل! أني أعرفه هذا واحد فارغ و"لصقة جونسن"، دبق و"يدور على حبّ رقي بالخره" مثل ما يقولون عنه، عفواً يا جماعة على هذا المثل القبيح. غرق الجميع مرة أخرى في الضحك. واستمرّ قائلاً:

- مثل ما قلت لكم ردت أمسح به الأرض لكن قلت لنفسني خلّيني أسكت وأفوتّها له بهذي "المنقطعة والجهيمة" والدنيا الغريبة، وبعدين شنو فائدة الحكي مع هيجي إنسان "ياخذ ما يعطي".

وقبل أن يكمل حديثه، نهض عدنان السمين، الذي كان هو وقاسم يصغيان وكأن أبو الهول غير موجود بينهم ويشركان كريم الضحك والسخرية من غوني. قال عدنان مصمّماً:

- هَسَّه تشوفون إشلون أمسح الأرض بهذا التفاهة، أريد أعلمه معنى البخل، أني أصير بخيل بنظره، عن إنذكم أني رايح. مَسَكْ أبو الهول بيد عدنان تلقائياً، قال له مهدئاً:

- أُقْعِدْ، اللهُ يَخْلِيكَ، وَبَيْنَ رَايِح؟

تركهم عدنان ماشياً بخطوات ثابتة وسريعة وكأنه يقدم على حرب،
صاح به كريم وقاسم:

- تعال، عدنان وبين رايح؟ يا معوّد لا تَعْتُ نفسك، الأمور ما تستأهل
كل هذه العصبية.

رَدَّ عليهم من بعيد ملوّحاً لهم بيده اليمنى:

- ويأتنيك بالأخبار مَنْ لَمْ تُزود.

رمق أحمد أبو الهول صديقيه كريم وقاسم بنظرة عتاب وتأنيب
وساد الصمت جلستهم.

الشجار

كان الفطحل غوني يجلس بهدوءٍ على أحد كراسي المطعم يشرب القهوة، يكتب على دفتر صغير بعض الكلمات متلفتاً بين الفينة والأخرى، كأنه ينتظر أحداً ما، يبحث عن أشياء مفقودة، ينظر مرة في الهواء، وأخرى في السقف، في زواياه، يبدو أنه يبحث عن فكرة ما. كانت أمامه بعض الأوراق المكتوبة بخط اليد، يبدو أنها قصة قصيرة يراجعها.

أخذ غوني يشطب بعض المقاطع، كتب ملاحظة على جملة في النص: كانت البننتين حبيبتين إلى القلب. "أعتقد المفروض أن تكون الجملة: كانت البننتين حبيبتان، لأنها من أخوات كان فهي حسب ما أتذكر تنصب الأول ويسمى اسمها وترفع الثاني ويسمى خبرها. النحو بالنسبة لي غير مهم. الصورة الأدبية أهم عندي بكثير".
قال لنفسه متمتماً بصوتٍ مسموعٍ "النحو تدمير للأدب".

مرَّ شاب متوسط القامة، أسمر اللون، سلَّم عليه بلهجة شامية:

- أهلاً أبو الشباب شو عمّ تعمل هون؟
- أهلاً حبيب قلبي، والله قاعد أراجع قصة قصيرة كتبها أحد الكتاب الشباب الجدد، طلب مني أصحابها.
- لَمْ يَسْمَعْهُ الشابُّ الأسمر، أو ما برأسه سائلاً إياه وعينه شاردتان كأنهما تبحثان عن شيء في أرجاء المقهى:
- إي، منيح، يدفعون لك كم قرش؟ دخلك ما شفت لي غسان؟
- لا، شو يدفعون لي؟ هذا شغل مجاني! مين غسان؟ لا والله ما أعرفه. يجوز..

قبل أن يتمّ حديثه سأله الأسمر:

- اسمع، ما بذكّك تطلع تشتغل معي بدل غسان؟ تحصل لك كم قرش، شغلة بسيطة، تقشط الحياطين قبل الدهان يعني الصبغ بالعراقي، شو قلت؟ شايفك تتطلع فيّ وتضحك؟ شو ما عاجبك؟ لك الناس تتمنى تطلع تشتغل معي.

- لا عفواً مو هذا قصدي، بسّ انت تعرف أني كاتب وما أدبر هيك شغلات.

- وشو يعني كاتب؟ قال "كاتب"! أصلاً الصباغة هي فن التعامل مع الألوان، وبعدين الكاتب لازم يشوف شي آخر غير اللي عايشه، شو تتصورني ما أعرف أكتب وما أفهم بهذه الأمور؟ لكن، والله أنا لما كنت في البلد كان عندي رفقات كتّاب وشعراء، لكن؟ بسّ كتّاب من هذوله الأصليين اللي يعجبوك، كتّاب عليهم العمل والأمل مش أي كلام، أصحاب شهادات ومن الجامعات مش مثل ذول اللي هنا، كل واحد صار يعمل حاله كاتب، ويا ريت لو كتّاب متواضعين يحترمون حالهم، كل واحد منهم شايف حاله ومناخيره طالعة للسماء، قال إيه، قال الكاتب لازم يصير سلوكه مو طبيعي، لك ما غريب إلا الشيطان، ذولاك الكتّاب عندنا غير نوع، فيهم أصالة وتحذّ وفاهمين ومليانين وعندهم شيء جواتهم بدهم يحكوا عنه، يشتغلون كل شيء، كل شيء، بس هذول اللي هنا فارغين ومتصنعين ونافخين حالهم عالفاضي مثل الطواويس، معليش والله مش قصدي، بسّ ما تفكرنا بلا ثقافة، لمعومك أنا تعلمت لحد السنة الثالثة بالجامعة بسّ يا حرام ما كملت الدراسة، إي والله مع الأسف.

كان غوني يستمع له بأدب مكثفياً بالابتسامة وفي كل مرة يحاول أن يقول له شيئاً يقاطعه الأسمر، قال له:

- لا، والله آني مو هذا قصدي، الشغل مو عيب، بسّ أني ما أعرف

شغلة الصبغ.

- معلوم الشغل شرف، أنا حبيت أفيدك وما في شغل ما يقدر الإنسان يتعلمه، وهذا غسان ما بعرف ليش ما إجه ولا تلفن لي، صدقني الشباب كلهم يتمنون يشتغلوا معي، وبعدين وينك، الشباب اللي يشتغلون معي كلهم يعجبوك ثقافة ومزاج وعلم وأدب، ما بتفكر أنه هذه شغلتهم، أصلاً في واحد دهان يشتغل معي كان يشتغل في لبنان مدرس عربي، بس شو مدرس من هذا اللي يعجبك، عليّ الطلاق ما بتقدر تقعد معه أكثر من ربع ساعة لأنه يطير لك عقاك بالشعر العربي اللي حافظه، لا مؤاخذه مش مثل الشعر اللي نسمعه هنا، هذا رغم التعذيب اللي أكله في السجون الإسرائيلية، بس حبيت أخبرك، أنا والله أحترمك لأنك إنسان مؤدب وهادئ، قلت خليني أفيدك، ما تفتكر شيء آخر؟

- لا، ولو! شكراً.

هنا ظهر غسان من بعيد يدخل المقهى، ودّعه الأسمر قائلاً مبتسماً:

- بخاطرك، شدّ حيلك، هذا البلد ما يفيد به غير الشغل اللي يوكل خبز، ويجيب لك المصاري واحترام الناس والله ما بينفع هيك تعملوا بحالكم، لك شو فيكم أنتم إخوتنا العراقيين كلكم عاملين حالكم شعراء وكلكم بدكم تصدروا الصحف والمجلات وكلكم بدكم تصيروا مسؤولين سياسيين وكلكم تسبون الطاغية لكن كلكم تكرهون بعض وعم تتخاصموا مع بعض وما بتحبوا بعض، لك هذا البلد هنا ما بينفع به غير الشغل الحلال اللي يشبع البطون، لك ما اختافتنا الشعر شيء عظيم بس إشلون عيني تصوير شاعر وأنت ما بتحب أصحابك ولا هم يحبوك، لا وفوق هذا تسخر من الشغل، وصدقني لو يكون عندك شغل وأمورك تصوير مباحة، الناس تصوير تناديك باسمك الحقيقي مش روني ولا غوني، لا مؤاخذه شو هالاسم غوني هذا؟ وبالمناسبة أنا لساتني ما عرفت شو اسمك

الحقيقي، مرّة واحد قال لي إنّ اسمك قرنل وواحد آخر قال عتبار،
وواحد قال اسمك محمد وهذه بصراحة أسماء معتبرة ومحترمة
ليش غيرتها؟ أنا ما بأفهم.

شعرَ غوني بالاستفزاز، نظر إليه مندهشاً، فتح فاهه ليردّه بشيءٍ،
تمتم بصوت مخنوق، بينما ودّعه الدهان متجهاً بخطئٍ مسرعةٍ نحو
زميله غسان.

- بخاطرك حبيب قلبي أبو الغون!

عاد غوني إلى أوراقه ويساوره شعوره بالحزن، فكر قليلاً بما قال
له الشاب الأسمر، كان يكتب شيئاً ما بعد كل نظرة أو نظرتين وديعتين
متوسلتين إلى الأعلى أو إلى شباك المطعم العريض، وكان ينقر على
المنضدة بين لحظة وأخرى ينظر بوَدٍ للقادمين والغازيين من زبائن
المقهى مبتسماً محبباً إياهم دون أن يباليوا له أو يردوا على تحيته
بحرارة، كان يفتح حقيبةً مهترئةً، عُرف بها، كان دائماً يعلقها على
كتفه كالعليجة أثناء مشيه في شوارع المدينة، كانت الحقيبة جلديةً
تبدو خاصةً بالكتاب والمتففين لكنها قديمة تتناسب مع ملابسه، سماه
الناس الفارغون والعاطلون والمشاكسون والمنافقون والمناكفون
والعابثون "غوني عليه"، وبآخر مشابه لها، لم يكن مستاءً من هذا
الاسم ولا شهرته.

انتشر الاسم انتشار النار في الهشيم، وصاروا يتندرون به. كان
غوني عليه معتزاً بحقيقته المهترئة وبشهرتها، يفتحها ويغلقها بين
الحين والآخر، أخرج منها بعض الأوراق، قرأ قسماً منها، تصفّح البقية
الأخرى، أعادها إلى الحقيبة وعاود الكتابة والنقر على المنضدة
والالتفات إلى الجهات الأربع، كانت نظرائه التي تبدو من خلف نظارته
المعتمة قليلاً تنمُّ عن حالةٍ طيبةٍ ومسالمةٍ يشوبها قليل من القلق، كانت
شفته تبدو كأنهما تتمتان بكلام غير مسموع. شاب ممتلئ، عريض
المنكبين، كبير الوجه، وجنتان ممتلئتان. فجأة التقت نظراته بشخص

قادم من مدخل المطعم، بادره غوني بابتسامة وعفوية:

- أهلاً، إشلونك أبو الشباب؟

فوجئ غوني ببرود القادم وتجهّم وجهه، لم يردّ على تحيته لا بمثلها ولا بأحسن منها، يبدو أن الرجل زعلان، عندما يغضب الإنسان يفقد صوابه، يضيّع السيطرة على نفسه أو يخرج عن طوره.

احتار غوني للأمر، ليس من عادات هذا السمين الدخو أن يخرج عن طوره، يا ترى ماذا حدث لهذا الإنسان الطيب " الفطير "؟

وقف غوني في مكانه والارتباك بادّ عليه، ماذا عساه يفعل له وهو لا يعلم سبب تجهّم وجهه، ابتسم له مرة ثانية متسائلاً:

- خيرك أبو العدون؟ هذي مو من عاداتك، أشوفك عصبي إن شاء الله ما حصل إلا الخير.

- لك أنت صدق لو قالوا عنك غاسل وجهك ببولك!

- ما أسمح لك، شنو هذا الكلام؟

- أيّياخ، خوش ططط...يز.

- شنو القصة شصار؟ والله ما دا أفهم أي شيء منك.

كانت نظراته تتسم بالخجل والخوف من كارثة ستحصل، من أين جاءت هذه المشكلة الجديدة، لماذا يراقبه الناس ويتهمون عليه باستمرار؟

- اسمع باختصار، إذا مرّة ثانية تجيب اسمي على لسانك أقصّه، مفهوم!

- لا لا لا، انت الظاهر عليك زودتها اليوم، وأني ما أسمح لك تهينني بهذه الطريقة.

- والله آني، لو ما أقول انت واحد مسكين لكان هسه خبزتك خبز، بس أقول خطيّة، وبعدين الناس راح تلومني وتقول عني ما لقي غير هذا الطايح حظه، الحايط النصّيص، وأكيد أنت راح تستغل

الموقف وتعمل قضية اعتداء! أو محاولة اغتيال! وانت عايش على هالخرعبلات والمثل يقول رزق البزازين على المعثرات.
- يا أخي انت فعلاً طولت القضية وضخمت الأمور وتريدني أخرج عن طوري.

- أيباخ. "أخرج عن طوري" قال لك، "أخرج عن طوري" أشو جرب بالله عليك وأخرج عن طورك! شتريد تسوي لي يعني؟ تأكلني؟ ها والله أني نسييت، يجوز راح تكتب عني حتى تضيفها لأكاذيبك، إن شاء الله راح تقول هذه معلقة امرئ القيس، لك حمار روح شوف لك شغلة شريفة تعيش من وراها، إلى متى تدعي؟
من الآن فصاعدا لازم تفهم اللي أريده منك، إحمد ربك أني وافقت، يا بدآت ناكر الجميل، وما عندك كل حصانة على لسانك.

وجد غوني المسالم، المسكين الفرصة لينفذ منها، كانت ملامح وجهه تتسم بالبراءة والطيبة والوداعة والخجل والارتباك، قاطعه:
- يا أخي أني ما نسييت الموضوع، بس أني أحس أكو شيء بالموضوع، شنو تقصد حصانة اللسان؟ والله أني ما ذكرت اسمك إلا بالخير، انت إنسان شهم ومناضل وطني وصدقني يجوز ناس يعجبهم المشااكل والنفاق والقال والقيل نقلوا لك عني كلام مو بالمستوى المطلوب، ثم انت تعرف أني مشغول بالثقافة ولا دخل لي بالأوساط اللي ما عندها لا هم ولا غم غير الأكل والشرب والنوم وغيبة الناس وحسدهم وخاصة الناجحين مثلي والطيبين مثلك وأنت تعرفهم أحسن مني.

- لكن فعلاً أنت إنسان صلف وما عندك لا حيا ولا تعرف العيب، انت تدعي الثقافة وما تعرف تحكي مع البشر، أني شنو علاقتي بهذوله الناس اللي ما عندهم شغل وعمل غير الغيبة والنميمة، ومن اين أعر فهم؟ شنو شفنتني يومياً قاعد بالقهوة، فارغ؟ تتصورني مثلك

عَطَّال بَطَّال أذْرُغ الشَّوَارِعَ يَوْمِيًّا وَكُلَّ النَّاسِ تَطَالِبِنِي؟ خَلَصَ،
الْحَكِي مَا يَفِيدُ بَعْدَ، انْتَهَى أَيِّ كَلَامٍ وَإِيَّاكَ. وَجَرَّبَ مَا تَسْوِي الشَّيْءَ
الَّذِي طَلَبْتَهُ مِنْكَ!

- انت زودتها أكثر من اللازم، إذا ما أقدر شنو تقتلني؟ انت إنسان
تقدمي ووطني من عندنا وبيننا وتعمل معي هيچي، انت حزام
ظهرنا! ثم ليش تهينني، تقبل أقول لك حمار؟

حَدَقَ بِهِ عَدْنَانُ "وَقَفْتُ عَيْنَاهُ" بِالْحَقِّ، "خَرَجَ عَنْ طُورِهِ" فِي هَذِهِ
الْمَرَّةِ عَنْ حَقِّ وَحَقِيقٍ كَمَا يُقَالُ، هَجَمَ عَلَيْهِ مَاسِكًا إِيَّاهُ مِنْ "خَوَانِيقِهِ"
ضَارِبًا إِيَّاهُ ضَرْبًا مَبْرَحًا، بَيْنَمَا أَخَذَ أَحَدَ أَصْدِقَائِهِ يَصْرُخُ "أُتْرَكَه،
أُتْرَكَه عَدْنَانُ، اللَّهُ يَخْلِيكَ، هَذَا إِنْسَانٌ مَا يَسْتَأْهَلُ، رَاحَ يَمُوتُ وَتَبْتَلِي بِهِ،
يَحْطُوكَ بِالسَّجْنِ وَاللَّهِ، حَيَاتِكَ تَصِيرُ جَحِيمًا".

لم ينفع الكلام بعدنان، نظر الصديق المفازع المحايد حوله، وجد
خشبة صغيرة، مسكها، نظر إليها، قبل أن يخنق عدنان ضحيته حتى
الموت بادره بضربة قوية على رأسه، سقط صارخاً، تنفس الفطحل
غوني الصعداء ناظراً حواليه إلى منقذه وبعض المتجمهرين، تفحص
جهات المكان من جديد، لم يقوَ على قول أي شيء، كان لسان حاله
يقول: لم كل هذه القسوة؟ ومن أين؟ من جماعتنا الوطنيين! هذا شيء
غير معقول! لم هذا الظلم، ماذا فعلت لأستحق هذه الإهانة؟ نهض من
مكانه، التقط نظارتته من الأرض واعتمرها بسرعة قبل أن يسرق أحد
ما النظر إلى عينه، رتب ملايسه، هيئته مرراً أصابع يديه على شعره
الأسود الفاحم الأشعث، مسح أنفه بكفه الأيمن، مسح وجهه مرة
أخرى، أخذ حقيبتته وأوراقه ماشياً كأبي مهزوم في حرب لم يخطط
لها، نظر إلى عدنان الممدد على الأرض، رق قلبه عليه، فكّر بما
حدث له، أراد أن يرفعه من الأرض، يا ترى ماذا حدث له، ازداد
الاهتمام به بعد أن اطمئن لحاله، قال له شابان واقفان متجهمان:

- يا أخي امش، ارجع لبيتك بسرعة إلى أن تهدأ الأمور، قبل أن

يتصلوا بالشرطة.

وجلسا يعتنيان بعدنان، يمسحان عنه بعض الدماء، بينما مسك شاب آخر غوني وأخذه بيده جانباً بطريقةٍ وديةٍ، مهدئاً من روعه:
- تعال يا أخ غوني، اغسل وجهك هناك في التواليت، اطمئن، عدنان راح يفيق وكل شيء تمام، أنتم أخوة، أني أعرفك انت إنسان طيب، بس...

قاطع غوني متمماً بكلمات مبتورة:

- عجيب، غريب، هو صديقي وأنى أحبّه، يا أخي، صعبة، قساة، عدوانيين، عراقيين، الظاهر ذوله ناقفوا بيناتنا، هم يغارون مني لأنني ناجح و متميز عليهم ولأن هو نفسه يفضلني عليهم بعلاقاته الخاصة بي.

قال له شاب أشقر طويل القامة، نحيف الجسم، كث الشعر واللحية، كان يتطلع إليه متعاطفاً بعينين زرقاوين دائريتين مكحلّتين، يقود كلباً صغيراً أليفاً، بني اللون، أملس الجلد، يشبهه كثيراً:

- عليك الاتصال بالشرطة، هؤلاء وحوش الغابة لا يفهمون أننا نعيش في دولة القانون، هؤلاء برابرة! أنت إنسان مسالم لم تؤذ أحداً، أعرفك كل هذه السنوات تأتي إلى هذه المقهى يومياً، تجلس بمكانك، تشرب القهوة أو تكتب، أعتقد يجب أن تتصل بالشرطة.

دَقَّ جرسُ المنبّه. الساعةُ السابعةُ والنصف صباحاً، ضغط عدنان البدين على زر الجرس وعاود النوم.

عيناه مغمضتان، رأسه يؤلمه "يا إلهي مَنْ صَرَبَنِي! ليش كل هذا الألم؟ أني إتشويت له؟" لم يستطع مواصلة النوم، نهض من فراشه، كل شيء في غرفته كما هو، لم يتغير شيء، تذكر أنه لم يخنق إنساناً، لم يقتل أحداً، لم يضره أحد.

بعد لحظات من التذكر، ابتسم قائلاً لنفسه "الله يكون في عونك يا غوني، بس الله لا يقولها وتأكلها في يوم من الأيام قتلة حقيقية من الصدق، بسطة عراقية أصلية وتروح سبعة ماي، نطّر إلى يديه، شعر بالسعادة، لم تقترفا جريمة.

هَمَّ بالدخول إلى الحمام، رنَّ التلفون:

- نعم عدنان معك، من؟ صباح الخير غوني. لا، مو مشكلة، بس أني هسّه قعدت من النوم ورايح للحمام... أني شخصياً ما عندي سيوله، أموري المادية تعبانة نحكي بالموضوع... زين؟

طَيَّب، طَيَّب، أحاول أدبر لك من الشباب...ها؟ ما تريد منهم؟ ليش؟.. ما عندك علاقة طيبة بهم؟.. لا قاسم ولا كريم؟ طَيَّب هذوله مو أنت كنت تقترض منهم إذن ليش ما تطلب منهم؟.. ها، ها... طيب، طيب مع السلامة.

وَضَعَ السماعه قائلاً: العادة اللي بالبذن ما يغيرها غير الكفن!
الطباع أقوى من التطبع!

الأمسية الشعرية

تَوَجَّهَ عدنان السمين نحو الحمّام مغنياً: "أنا مَنْ ضيَّعَ في الأوهام
عُمْرَه"، توقف أمام المنضدة متصفحاً بعض أوراق قصة بعنوان
"أمسية شعرية" كتبها صديقُه أنيس، أصرَّ عليه أن يقرأها، أراد أن
يعرف رأيه بها أو ردَّ فعله بعد قرائتها كما قال. أجل، تذكرَ أن أنيس قالَ
له:

- أني ما أريد اسمع آراء الكتّاب والمتقنين بهذه القصة، أريد اسمع
وجهات نظر ناس عادييين أقصد اعتيادييين مثلك يا عدنان حتى
أشوف فيما إذا يقدرّون مع ذلك قراءة مثل هذا النص لأنني أريده
يوصل للكل، أني ما أكتب للمتقنين ويهمني رد فعل الآخرين،
أرجوك حاول تفهمني، أني ما أريد تصحيحات أو شيء آخر من
هذا القبيل.

كانت عيناه المبتسمتان تسرعان متطلعتين إلى النص الساخر، أراد
أن يتوقف، لم يتمكن، استمر يقرأ والابتسامة تغطي شفثيه متمتماً
"الظاهر هذا عبقرى يكتب عن عبقرى آخر كل واحد يتصور نفسه
هو العبقرى والفظل وبس".

استمر عدنان يقرأ قصة "أمسية شعرية":

"... في إحدى المرات أقام الشاعر الهمام أمسيةً أدبيةً وقال فيها
شعراً عظيماً جهنمياً:

قفانبك من ذكرى حبيب و منزل

بهانوي و حيفا و أرض بابل

وفي قصيدة أخرى قال:

أرضُ الجزيرةِ عاقرٌ عاقرٌ عاقرٌ.

وفي رواية أخرى لأحد الثقات قيل: إن الشاعر الفحل ألقى في إحدى الامسيات مرتجلاً أحد الأبيات الشعرية الجريئة المشاكسة، كاد أن يهلكه بسبب غضب أهل المدينة عليه، لكنه لم ينجُ مع ذلك من الضرب وتقرّيع المدرس وسخريته به واضطراره في النهاية إلى الهرب من الأمسية:

"أخرجتُ قضيبِي وتبولتُ على سيد نور".

أستغفر الله سيد نور من الأولياء الصالحين وكان الناس يترددون على مزاره كلما ألمت بهم الحاجة أو شعروا بالضيق أو بالخوف من هذا العالم المليء بالغش والدجل واللف والدوران، فمن يجروء التطاول عليه ومكانته؟

شعرَ مدرس اللغة العربية بالحرج والقلق وراودته مشاعر الخوف، كان حاضراً أثناء إلقاء القصائد، حاول أن يمسك زمام الأمور، خشي من انفلات يمكن أن يحدث، تطلع في وجوه الطلبة، رفع يديه مشيراً إلى عدة جهات، مسح وجهه، بدت علائم التعب عليه، استجمع قواه، انتظر قليلاً، يبدو أن الأمور تسير نحو الأسوء، خشي من الفوضى، كان طويل القامة، عريض المنكبين، طويل الوجه، متين الرقبة، ذا رأس كبير يتوسطه أنف مستقيم غليظ الشفتين يعلوها شاربان مسترسلان، كث الشعر، أسمر الوجه، هبَّ كالمارد الجبار منتفضاً "ماسحاً الأرض" بالطلبة منظمي الحفل، قال موجهاً كلامه إلى أحدهم:

- قُلْ لي بالله عليك، انت من أين جايب لي هذا الشاعر الجايف الأجوف وهذوله العفطية؟ واحد يحط هانوي المحتلة من قبل الأميركيين والخونة الجنوبيين مع أرض بابل في نفس الدرجة والمكان. بابل وين وهانوي وين؟ ثم هو أليش راح على هانوي ونسي فلسطين والله عجيب غريب أمرك ابني أنت؟

والثاني يعتدى على الأراضي المقدسة، ليش عيني الجزيرة عاقر؟
تقدر انت يا فطل الفطاحلة تجاوبني ليش مكة المكرمة عاقر يا عريف
الحفل؟ تقدر تقول لي ليش أرض الجزيرة عاقر؟ ها أشو سكتت؟ ذيك
الساعة كان لسانك إشطوله، أشو هسه لا حيص ولا بيص. يجوز يقصد
عاقر لأنها لم تنجب شعراء جهابذة مثله؟ كل شيء يصير بهذه الدنيا.
ومع ذلك، السؤال موجّه له ولك واللي نظموا الأسمية.

توجه الأستاذ إلى المستمعين قائلاً:

- يا شباب آني ما أريد يجي واحد في يوم من الأيام يتفلسف براسي
ويقول: الحق كان مع الشاعر وأن الأستاذ علوان مدرس اللغة
العربية ظلمه، آني أريد أناقشه بالأفكار الجمالية اللي تبنى عليها
قصيدته، قولوا لي: أين الجانب الجمالي في فكرة التبول على
سيدنا، أستغفر الله العظيم، ما أريد أن أذكر اسمه، هو واحد ولي
من الأولياء الصالحين، ثم لو أننا ذهبنا اليوم إلى مزار السيد نور
ماذا سنجد؟

بصراحة، السؤال موجّه إلى الشاعر قبل أي إنسان، وبالمناسبة
وبينه هذا الشاعر العبقرى الفطل المخضرم فحل الفحول اللي يتجرأ
على إهانة ضريح السيد؟ بيين اختفى!

كان المدرس يتلفت رافعاً رأسه، ينظر إلى المقاعد الخلفية، كانت
أصوات تتعالى هنا وهناك، قال أحدهم "فص ملح وذاب"، بينما صاح
ثانٍ "بال على روحه"، ونطق ثالث مقهقهاً إنسان فارغ، راسه متبّن،
"شمط"، وسخر رابع: "الهزيمة كالغزال" وكان الضحك يتخلّل
أحاديثهم، بينما طغت تنذراتهم على كلام الأستاذ.

راح المدرس يتكلم بصوت عالٍ ضاحكاً ولسانه يملأ فمه وكأنه
قطعة لحم كبيرة، وجد أحد الطلبة الرومانتيكيين الفرصة سانحة
ليقول:

- العفو أستاذ، بس الجماعة قسوا عليه وضربوه، العفو هذا مجرد رأيي الخاص بي يجوز أني غلطان ولكن هذه قسوة وعدوانية.

طغى السكون على القاعة، قال المدرس بصوتٍ مسموعٍ:

- مَنْ منكم يقدر يروح وبصيح لنا شاعرنا حتى يجي مرة ثانية يقرأ القصيدة ونعطيه فرصة النقاش مرة ثانية حتى ما تتهموني بالعدوانية أو التقليدية أو الرجعية أو أي شيء من هذه الكلائش اللي تعودنا على سماعها لكن أنتم قاطعتوني وما أجبتكم على سؤالي التالي:

طرح الأستاذ سؤاله بطريقة خطابية وصوت إذاعي عال:

- إذا رحتم الآن إلى ضريح السيد إيش راح تشوفون؟

-.....-

- أشوفكم ساكتين؟ ليش ما تجاوبون؟ السؤال صعب؟

أصرَّ الأستاذُ على الطلبة بأن يجيبوا مشجعاً إياهم، قال أحدُهم:

- طبعاً راح نشوف القبر، أقصد ضريح سيدنا نور...

- هذا صحيح، وبعد شنو نشوف؟

قال آخر من المعروفين بالاهتمامات الأدبية والنقد، وكانوا يقولون

عنه: لسانه أكبر من عمره:

- أشياء ورموز قديمة ذات ملامح رومانسية وأمور لها نكهة خاصة وعلاقة

بالطقوس الدينية والتراث وعمق التاريخ والإنسان الصغير وأصالته.

وقبل أن يكمل قاطعه الأستاذ:

- عظيم، وماذا بعد؟ أنت وصلت إلى صلب الموضوع.

تشجع الرومانتيكي قائلاً:

-أكيد، أستاذ، راح نشوف المساكين والفقراء والعجائز وغيرهم من

الزوار اللي جايبين من كل العالم.

ثم أردف ضاحكاً:

- والسفر طاسات والملبس والحامض حلو وغيرها من المناظر الشعبية.

توقف قليلاً ثم اختتم حديثه ضاحكاً:

- وكلاشي وكلاشي.

أراد أن يُكمل، توقف عن الحديث، غرق الجميع في ضحك على "كلاشي وكلاشي"، ارتاح الأستاذ على تلطيف الجو، قال مبتسماً:

- أنتم وصلتم للإجابة، ولكن آني كنت أقصد أن وجود الناس هناك أكثر بكثير من حضور هذا الحفل، صحيح أم خطأ؟ شنو رأيكم؟

أجاب الجميع بمختلف الطرق:

- طبعاً، هذا أكيد، هذا ما يحتاج إلى تفكير.

- إذن كيف يبول عليه الشاعر؟ كيف يبول على هؤلاء الناس اللي يدعي الانتماء لهم؟ ثم لم لم يصف الجوانب الرومانتيكية والصور الشعبية، بشرفكم أيهما أجمل التبول أم السفر طاسات على قولة صاحبكم الرومانسي الوجودي السارتري.

ضحك الجميع، تتحنح الطالب المثقف أبو لسان أكبر من عمره، مطّ شفتيه، لاحظ الآخرين يراقبونه، شعر بالخرج والخوف والقلق والفخر مرة واحدة، قال الأستاذ مهدئاً إياه:

- مو مشكلة، كل واحد معروف من هو ومستواه، كل لشه معلقة من كراعينها، لا تخف أنت عندنا من أحسن الطلبة.

تشجع الرومانتيكي مرة أخرى ليقول:

- أستاذ كل شيء نسبي، أنت نفسك قلت هذا!

- نترك موضوع النسبية إلى يوم آخر والسلام عليكم وسلموا لي على شاعرنا فطحل زمانه، وديروا بالكم عليه ليروح ياكل بسطة

عراقية أصلية مرة ثانية من زوّار السيد نور المتعصبين.

غرق الجميع في الضحك متذكّرين طريقة زميلهم في الإلقاء، وردّ فعلهم عندما سخر المستمعون منه، منهم من قاطعه أثناء القراءة، منهم من اكتفى بالقول "كافى"، أقعد بمكانك"، أكرّ منا بسكوتك، الله يخليك ويعطيك الصحة والعافية، ما نريد منك غير سلامتك وسكوتك، يا أخي أقعدْ وأكرّ منا بسكوتك. ومنهم من "عَفَطَ عليه" ومنهم من قال له: يا أخي كافى، ما نريد نسمعك، خلاص انتهى الحفل، كل هذا لم يُجد به حتى نهض أحدهم وهَمَّ بصفحه على خَدّه، بِضَرْبِهِ بِـ "عِجْلٍ، محمودي أصلي"، يعني ضَرْبَهُ "قلم" بالمصري قانلاً له:

- يا جماعة بعد ما أتحمّله، هذا شقّ قلبي، راح أشق زريقي!

بدأت الفوضى واختفى الشاعر في وسط الزحام.

كانوا يقرؤون بعض مقاطع قصائد زميلهم ويقلدون حركاته والضحك يملأ أشداقهم ساخرين متجهين في مسيرهم إلى بيوتهم، متطلعين إلى المارّة، عسى ولعلهم يلتقونه فيواسونه".

انتهى عدنان من القراءة غارقاً في الضحك، متذكّراً هذه الأمسية في حياة الفطحل عندما كان تلميذاً في المدرسة. لم يتمالك نفسه حينما وجد الأوراق تتضمن ديواناً شعرياً بقلم الشاعر غوني الملائح بعنوان "أشعار فطحلية". تصفّح بعض الأوراق، رغب أن يستمر بالقراءة لكنه أجلها، أغلق الملف، توجه إلى الحّمّام.

1994 - 1990

عودة الفطحل إلى ربوع الوطن الشامخ

نَحَلَ الفطحل شَقَّتَه متعباً، خَلَعَ ملابسه في الحال، فتح قنينة بييرة وبدأ يشربها، بعد برهة من الوقت نهض من الأريكة متجهاً نحو الثلاجة، فتحها وأخرج قدرين صغيرين في الأول رز والثاني مَرَق من يوم أمس ووضعهما على الطباخ ليسخنهما، ثم فتح التلفاز وبدأ يغيّر بعض المحطات الفضائية واقفاً وعينه على الطباخ منتظراً أن يسخن الأكل، ما هي إلا لحظات حتى نقل وجبته إلى منضدة الطعام وبدأ بتناولها مستمراً في البحث عن الفضائيات العربية، شعر بالملل والقرف منها والمظاهرات المعادية للحرب متمتماً في نفسه "كل شيء ما يفهمون، يدافعون عن دكتاتورهم!"، انتهى من تناول طعامه، أطفأ التلفاز، وضع هاتفه المنقول جانباً في الصالة وتوجه نحو غرفة النوم، خلع ملابسه الباقية وارتدى دشداشته السورية، أغلق باب غرفة نومه ورمى جسده المنهك على فراشه لينام.

في النوم حلم حلماً سيفرح به كثيراً عندما يستيقظ وسيحكيه إلى معارفه وأصدقائه رغم ندرتهم أو انتفائهم كما يصرح دائماً.

كانت أمه المسكينة تنتظره، لكنها لم تقم بذلك كعادتها أيام زمان واقفةً في الشارع مرتديةً عباؤها السوداء الطويلة، بل في بيتها معززةً مكرّمةً، كل شيء تم فجأة وبدون تخطيط أو علم مسبق من أحد، سنحت الفرصة وطلبوا منه التوجه إلى العراق، اتصل بأمه من هاتفه المحمول، أخبرها بأنه سيأتي محملاً بالهدايا والدولارات وما عليها وأخواته إلا انتظاره في البيت وأن تدعو الجميع ليأتوا إلى بيتها كي يلتقي بهم حيث سيراهم بعد هذه الغربة الطويلة.

عندما وصل بسيارة عادية مع اثنين من المرافقين بملايس مدنية

وسائقهم إلى دارهم القديم الذي تركه منذ أكثر من عقدين دون أن يراه ولو مرة واحدة، كان أهله مستعدين للاحتفاء به واستقباله استقبال الأبطال، ذبحوا له الخروف أمام عتبة الباب قرباناً له بينما أطلق بعض الشباب النارَ في الهواء مستعرضين عضلاتهم محذرين بذلك المنتقمين وشَعَرَ هو بالزهو والفرح ولأول مرة في حياته بأن له قيمة واعتباراً وأنه اليوم وسط عائلة يحبه جميع أفرادها ويتمنون له الخير ويساندونه في كل شيء، هؤلاء أهل وأقارب وليسوا معارف أو أصدقاء وأعداء عقارب يحسدونه على نجاحاته يهشمونه ويهشمونه ويشتمونه ويشتمون منه وكان بعض الصغار من البنات والأولاد ينادونه فرحين بوصوله "خالو طايح، خالو طايح"، وآخرون! "عمو طايح، عمو طايح!" متطلعين إلى هداياه وعطاياه السخية فرحين أينما فرح. وكان هو خجلاً من سماع اسمه القديم متذكراً زملاء المدرسة الذين كانوا ينادونه بـ "طايح الطايح، وطايح الحظ" سخرياً منه، تنكَّر له منذ ثلاثة عقود، أراد أن يحذّرهم من ذكره لكنه تراجع عن فعل ذلك وسط الفوضى والصخب لا سيما وأنه سبق وأن أخبرهم قبل مجيئه بتغيير اسمه ولكن دون جدوى.

لم يكن يعرف كيف يداري حرجه من سماع هذا الاسم القديم ولا من دموع الفرح التي اغرورقت بها عينه الحقيقية مما اضطره أن يرفع نظارته الشمسية السوداء عنها كي يمسحها وشَعَرَ أن أمه كانت تراقبه بطرف عينها، رمقته بنظرات كسيرة ولسان حالها يقول العين الثانية لا تزال مجرد زجاجة لا تتحرك كثيراً ولا تدمع.

كان يقدم لهم الهدايا بكل سرور وسعادة معتذراً عن التقصير سائلاً إياهم فيما إذا كانوا يريدون أشياء أخرى، الجميع ردّد عبارات المجاملة من هنا وهناك "أنت جَيِّتْك لنا أكبر هدية"، "إحنه ما صدقنا أنت راح تجي، قلنا أنت مِتِّتْ، قالوا لنا انت خلاص مِتِّتْ عند الأكراد، بعدين قلنا هذا شيطان يمزح ويّانه". ولكن بعد لحظات سمع طفلاً

صغيراً يقول بصوتٍ بريءٍ عن جدّته "بيبي تريد منك تليفون جوّال" غرق أغلبهم في الضحك بينما سمع صوتَ أمّه تنهره "ألك اسكت، عيب، خالك بعده أول يوم عندنا، خالك تعبان"، بينما تشجع طفل آخر ليقول "مو بس بيبي، أمي هم تريد تليفون جوّال وخالاتي كلهن". وتعالّت الضحكات وعمّ الجو العائلي، منهم من قال "إحنه نريدك سالم" وأخرى قالت "أني فرحتي بيبك لما وصلت لنا بسلامة، بس فعلاً أريد، ها، مو هسه، بعدين أحكي لك اللي بقلبي" بينما قالت امرأة شابة يبدو أنها أخته الصغيرة "بعدين، بعدين، الله كريم خلينا نشبع من شو فنتك حبيبي، أكيد جو عان، يله يا أولاد، يا بنات اطلعوا منا لا تدوخونه" وجهت عبارتها الأخيرة إلى الأطفال.

بدأ بالتعرف على وجوه أخواته الثلاث اللاتي كبرن وقسم من أبنائهن وشكّت له أخته الوسطى من تعبها مع ابنها المريض ولم تكن تريد أن تقول المتخلف عقلياً وتمنّت عليه أن يساعدها في المستقبل، أن يحصل له على فيزة إلى الخارج للعلاج أو يجد له مكاناً في مدارس المعوقين مرودة بحزن وتواضع واستحياء "مو هسه، مو هسه، بعدين، أهم شيء جيتك لنا حبيبي، والله نريدك سالم، إحنه ما صدقنا أنت راح ترجع لنا حي وسالم، بينما شكّت له أخته الكبرى بعد أن سقطت المجاملة بينهما "أنت ما حسيت بيّه، أني سمعي ثقيل"، قاطعها أحد الأطفال قائلاً: خالو خالو، خالتي طرشا ما تسمعك، لازم تحكي ويّاها بصوت عالٍ، لازم تصرخ وتهدم الحياطين حتى تسمعك" وغرق الجميع في ضحك بينما كانت والدته تغطي أسنانها بكف يدها قائلة له: "ابني ترّه كلها تريد، كلهم يطلبون منك أشياء، الحصار هلكتنا وما عندنا كل شيء".

كان أخواه الاثنان يكبران في السن ويبدو على وجهيهما تعب العمر، وأن مآسي الحياة قد خطّت دروبها على ملامحهما، كانا يبدوان وكأنهما في سباق نحو القبر، كان أخوه الثاني يبدو أكبر من عمره بكثير بسبب الرصاصة التي أصابته في شبابه ومرضه، إذن فإنه لا

يزال حياً يُرزق ولم يمُتْ قبل أكثر من عشرين عاماً، هذان الأخويان لم يطلببا منه شيئاً، ولا صهرهم رجل الأمن، الطويل القامة، الذي كان يمسك الكلاشينكوف بطريقة استعراضية متباهياً مراقباً كل شاردة وواردة، إلا أن لأولادهما طلبات كبيرة وكثيرة وصلته تبعاً على شكل دفعات واحدة تلو الأخرى، كانت لا تحصى ولا تعد بدءاً من ماكينة الحلاقة حتى القروض المالية لفتح مشاريع اقتصادية وكان عمهم الفطحل المغترب العائد يلبي رغباتهم كلها مردداً "ولا يهكم، إن شاء الله".

إلا أن الفطحل لم يفهم أفراد عائلته في أمر واحد حيث ظلوا يلحون عليه مستفسرين منه فيما إذا كان حصل على شهادة جامعية في هذه البلاد الأخيرة التي يقيم بها وأصبح مهندساً ولمْ لَمْ يَحْتَرِ الطب مثلاً؟ عبثاً حاول إقناعهم بأنه درس الإعلام في صوفيا بينما كانت أمه تردد بسداجة "يُمّه ليش ما صرت طبيب كان هسّه عالجتني"، كان يبتسم بينما كانت أخواته يقلن له: كنا نتوقعك صرت دكتور أو مهندس. وأخيراً وبعد أن شبعوا من الأكل والقصص الكثيرة حاولت أمه أن تنفرد به مستغلة خروج أخويه مع أبنائهما وزوج ابنتها حاملين رشاشات الكلاشينكوف يطلقون النار في الهواء بين الحين والآخر تحسباً لأي طارئ يحدث، أرادت أن تسأله عن أمر يخص عينه الكريمة لكنها لم تجرؤ. سألته أخته الصغرى بإلحاح وعفوية "عيني عيونك إشكد حلوة، كأنما حاط عدسات"، لكزتها أختها الكبيرة كي تصمت بينما حاولت الكبرى الطرشاء أن تسأله عن سماعة أذن، إلا أن أمها لم تتحمل الانتظار فسألته:

- يُمّه صدقْ عودْ هاي عينك سؤولها عملية تشوف بيها؟

نهرتها الأخت الكبيرة:

- يُمّه أسكتي إشبيح؟ خايني أحكي وياه، طيب أخويه حبيبي، قُلْ لي

باچرأي طبخة تريد أطبخ لك؟

بينما رَدَّت الأخت الكبرى الطرشاء:

- إي والله اشو له سمكة، آني أعرف هو يحب السمك.

قالت الصغرى مناكفة أختها الطرشاء الكبرى بدلع:

- الحكي اللّي يخلص الأكل تسمع، تلفقه وهو طاير، أوّه يا ربّي، السمك صار لنا مدّة ما ماكله لا هوّ ولا اللحم، ألّعن أبو الحصار، أقول أخويه حبيبي صحيح اسمك روني لو غوني؟ غوني أطلّ من روني، عفيه خليه غوني.

ضحك الكبار والشباب، هنا تشجعت الأم لتسأل ابنها نائحة:

يُمّه صحيح غيّرت اسمك، يُمّه طايح اسم جِلو، سمّيتك على اسم أبوي، جدّك، كان شهم، ها، وآني كنت أدلّك وأسمّيك طايح هم لأن آني ولدتك قبل ما تتم التسعة شهور وطحت مني و... قاطعتها الصغرى تحكي كعادتها بدلال:

- يُمّه هذا مو مهم، المهم هسه اسمه غوني، آني قرأت له قصيدة بتوقيع غوني.

استغل الفطحل الفرصة ليردّ عليهم مبتسماً بهدوءٍ مدارياً خجله:

- هذه كلها أسماء مستعارة، بسّ هسه اسمي الحقيقي والرسمي وثّاب، يُمّه أنت تذكرين آني كنت أحب هذا الاسم من كنت صغير، وكان أصدقائي يسموني بهذا الاسم؟

- إي يُمّه، إي يُمّه، بسّ أنت من كنت صغير كنت مشيطن وتحب النكات والمزاح، واحد شقنّدي ماكو مثلك، كنت تقول على نفسك وتغني: آني مو طايح آني ما أطيع أكبر واحد بالدنيا، بسّ آني طايح جبر، من كُ... س (تغرق الأم في ضحكها) أمي للقبر، آني طايح الحظّ والبخت وإحنه كنا نضحك، نقول لك: عيب، أسكُت.

وغرقت الأم في الضحك مغطية أسنانها وما لبثت مسحة الحزن أن عادت إلى وجهها بينما راح أحد الصبية من أبناء أخته الكبرى يقول له:

- خالو، خالو صحيح أمي كانت تعلمك حساب بس انت ما كنت تفهم
وبعدين تقول لك انت مو طايح لأنك ما تسمع كلام، انت طايح يا
طايح الحظ! اسم على مسمى!
- وغرق الجميع في ضحك عائلي وغمرتهم البهجة والفرح.

- رنّ الهاتف، استيقظ من قيلولته ثقيل الرأس مكتئباً.
- ألو، إشلونك أبو الشباب؟
- ألو، الحمد لله، هسه قعدت من النوم وحلمت كأني مسافر للعراق
والتقيت بأهلي.
- أه طيب، اسمع، باچر، لا عفواً بعد باچر راح محطة أي دوبليو سي
تبت مقابلة مهمة مع الدكتور أمجد.
- صحيح؟ بشرفك، هسه تشوف إشراح أسوي بيهم.
- أرجوك لا تقاطعني، خاليني أكمل لأنني لازم أتصل بعشرات إن لم
أقل المئات من الأخوة.
- طيب، عفواً.
- اسمع أريدك تتصل برقم المحطة وتساند الدكتور أمجد وطروحاته
ويكون كلامك باعتبارك ممثل لجمعيات أو منظمات، أخبرهم أي
شيء مثل منظمات حقوق اللسان عفواً أقصد الإنسان، وبالمناسبة
إحنه ندفع لك تكاليف التلفون، إذا تريد هسه مَر عَلِيّ حتى أدفع لك
الفلوس أو في وقتٍ آخر.
- لا، لا، لا تفكر، باچر نلتقي ونرتب الأمر، راح أطلع من البيت
وأشترتي كارت تلفونات، ولا يهكم أخي، بالمناسبة ممكن أتصل
بأكثر من شخص وأشجعهم على الاتصال بالفضائية؟
- طبعاً، طبعاً، بس إحنه ندفع التكاليف لكل شخص يشارك ويؤيد
أراءنا ويظهر اسمه على الشاشة، طيب؟ يله مع السلامة.

- مع ألف سلامة وشكراً على التلفون.
- ما أن أنهى الفطحل حديثه حتى وضع سماعة تلفونه ونهض نحو
الثلاجة وفتح زجاجة بييرة ثم عاد ليجلس على الكرسي قبالة التلفاز،
أخذ هاتفه وبدأ بالاتصال بأحد معارفه:
- ألو، ألو، ألو أي وياك، عرفنتي؟ ... إشلونك عيني؟ عندي إلك بشارة حلوة
وكبيرة، اتصل بي الدكتور أمجد رئيس البرلمان الوطني وأخبرني أنه
راح يطلع بفضائية "أي إي دوبليو سي" المركز العربي العالمي.
- إي وشنو يعني؟
- معلوم، راح يلعب بهم طوبه، إشببيك انت؟ هذا مرشح لرئاسة
العراق، انت ما تفهم؟ أريدك تتصل بمحطة التلفزيون وتؤيد
طروحاته ونحن ندفع لك أجور التلفون، فكَر مرة واحدة بحياتك
بشكل عملي.
- بيين انت بعدك عايش بهذه الترهات، من قال لك آني أويدهر طقات
الدكتور أمجد، انت فعلاً أمرك غريب!
- يا أخي انت ألي أمرك عجيب، انت تريد هذا الطاغية يبقى في
الحكم لو نتخلص منه؟ إحنه نحضّر كل شيء حتى نزيحه من
السلطة، هذا دمّر الشعب العراقي والعراق كله.
- أخي وعزيزي آني ما إلي علاقة بهذه المسألة وما أريد أدخل نفسي
لا مع الأمريكان ولا غيرهم، هذه مشاريع لها أول ولا تالي وآني
صغير على مثل هذه الألاعيب وباختصار آني غير مستعد أن
أدخل أو أرتبط مع أي أجنبي ضد بلدي.
- إذن انت تريد يبقى صدام في الحكم؟
- أخي انت ليش كل شيء عندك أما أسود أو أبيض، تخبرني أما
دكتاتور أو لص ومحتال مع الأمريكان، آني ما أريد دكتاتور
عطي ولا أدمع الحرب ولا الأمريكان ولا الأجانب.
- طيب، طيب، عفواً على الإزعاج مع السلامة.

فَكَرَّ الفطحل بأمر هؤلاء الناس بعد أن عبَّ في جوفه جرة كبيرة من الجعة قائلاً لنفسه "عجيب أمرهم هذوله العراقيين، شيريدون بالضبط؟ ما أعرف". احتارَ كيف يفسر الأمر، أغلب هؤلاء لا يريدون الحرب ولا يريدون سقوطه بهذه الطريقة ولكن كيف يسقط هذا الطاغية بدون الحرب؟ ثم فكر بالاتصال بشخص يعرفه ويؤيد فكرة الحرب على النظام العراقي "خلّيني أتصل به، إن وافق خير على خير وإن رفض فلن أفقد شيء". مرَّ يده على بطنه التي صارت تكبر وشعر أن جوفه صار أكبر من أي شيء في جسمه وأنه أخذ يستوعب المزيد من كميات الجعة.

- ألو، إشلونك؟ أبو الشباب إشلونك، عرفتني؟

- طبعاً، وّلو، إشلون صحتك؟

- الحمد لله، أني أتصل بك بصدد موضوع مهم، والله لولا معزتك الغالية عندي كان ما اتصلت بك، انت تعرف الدكتور أمجد صار يظهر علناً على الفضائيات وبكره راح يطلع، فيا ريت لو تتصل بمحطة تلفزيون أي إي دوبليو سي وتنتقد المجرم صدام، وبالمناسبة تكاليف التلفون مدفوعة.

قاطعه بهدوء ورزانة:

- هذه الأخيرة ما إلك حق بها، شفنتي يوم أتسوّل، أدور فلوس؟ وأني مع احترامي للدكتور أمجد أختلف معه وممكن أتصل بالمحطة وأعبّر عن اختلافي وإياه.

- طيّب، ممتاز، عظيم، إحنه ديمقراطيين نتقبل النقد.

- أنتم منو؟

- إحنه جماعة العراق الحر والبرلمان الوطني، وبالمناسبة أني صرت الناطق باسم البرلمان العراقي في الشمال الأوروبي، شنو رأيك تشترك وإيانا؟

- إن شاء الله، انت إشلون أمورك بشكل عام؟ حاول تشتغل وتستقر، انت ما تعبت من هذي الحركات؟ أقصد نشاطاتك الموسمية.

- والله ماشي الحال وأني حالياً مشغول ونكتف تحركاتنا وحمالاتنا ونستعد لدخول العراق مباشرة، العراق ينراد له زلم خشنة وإحنه إن شاء الله كدها وكدود وأني أشد على إيدك، نريدك تتعاون ويانا.

- بس لازم تشتغل وتستقر، والله آني أتمنى لك الخير بس أختلف ويك بأسلوب حياتك ومستعد أساعدك.

تشجّع الفطلل قانلاً:

- طيب تعال عندي اليوم المساء، تفضل نشوف برنامج حوار في قضية ملتهبة.

- طيب، راح أمر عليك خلال ربع ساعة.

نهض الفطلل من مكانه، بدأ بترتيب الصالة مستعداً لاستقبال ضيفه، رتب الكراسي وحمل طقائيات السجاير ثم عاد ومسح المنضدة الزجاجية وبدأ أكثر لمعاناً. توجه نحو الثلجة ليتأكد من وجود قناني البيرة. فكّر أن يعدّ الشاي بعد القيلولة والحلم الجميل إلا أنه تراجع مفضلاً الجعة عليه. خلع دشداشته وارتدى قميصاً وسروالاً، ما هي إلا لحظات حتى رنّ جرس الباب، فتحه لصديقه، أخذاً بعضهما بالأحضان وكأنهما لم يلتقيا منذ فترة طويلة، كان الضيف يبدو أكبر منه في العمر وأطول منه قليلاً، عريض المنكبين، كث الشعر مليء بالشيب، يتحدث إليه بطريقة الأخ الأكبر إلى أخيه الصغير. كانا واقفين في مدخل الشقة الصغير، قدّم له كيساً مليئاً بقناني البيرة قانلاً له بتواضع "هاي بيرة بلجيكية جبتها ويّاي، طعمها طيب، يجوز تعجبك؟". ردّ عليه الفطلل ضاحكاً "كل شيء من إيدك حلو، أكو بيرة ما أحيها؟" جامله ضيفه مبتسماً وهو يجلس على الأريكة الجلدية السوداء. تطلع الضيف إلى أرجاء الصالة منتبهاً إلى الستائر الرصاصية المعتمة متسائلاً بطريقة ودية:

- بعدك ما غيرت لا الستائر ولا القنفات، غيّر الألوان، الدنيا برّه كلها مظلمة وأنت معتمها بالبيت!

ابتسم الفطل حاملاً قناني البيرة وجلس إلى جانبه وهو يقول:

- أهم شيء الروح تكون منورة.

قالها وهو يسكب البيرة في قح ضيفه ثم كأسه، رفعها قائلاً "يلّه صحتك". ردّ عليه ضيفه "صحتك". ما هي إلا لحظات حتى بدأ الإعلان عن بدء برنامج "حوار في قضية ملتهبة".

أطلّ المذيع بوجهه العريض، ذي البشرة البيضاء والشاربين الصفراوين قائلاً بلغة منمقة مقعرة مصطنعاً لفظ الحروف كعادته:

- سيداتي سادتي أعزائي المشاهدين، نقدم لكم اليوم برنامجنا الأسبوعي المعتاد "حوار في قضية ملتهبة" متناولين المسألة العراقية بالتحديد لا سيما وأن التصريحات الأمريكية في الأيام بل الساعات الأخيرة باتت تشير إلى هجوم محتمل بأقرب وقت. نستضيف هذه الليلة ضيفنا هنا الأستاذ مرعي عبيد الذي سيحدثنا عن الأزمة العراقية واستعداد القوات العراقية لمواجهة الهجوم الأمريكي المحتمل بينما سيكون معنا أيضاً رئيس مركز الدراسات القومية سفير جامعة الدول العربية السابق في الأمم المتحدة الدكتور عبد القادر دعبيس والآن ليتفضل الأستاذ مرعي عبيد.

كان الأستاذ مرعي عبيد عريض الوجه مستطيله ذا عينين واسعتين كحيلتين، حليق الذقن يتحدث متلعثماً قليلاً لا يربط بين جملة إلا أنه يحاول أن يصيغ حديثه بصيغة أكاديمية. قال: إن القوات العراقية المتمترسة في كل شبر من أراضي العراق كما يبدو للدارسين أنها ستفاجئ الأمريكان، ففي هذه المرة لن تكون نزهة لهم كما يتوقعون وأن العراقيين لن يكونوا لقمة سائغة و...

قاطعته مقدم البرنامج سائلاً:

- ولكن يا أستاذ هناك من يقول إن العراقيين لم يقاوموا الأمريكان في حرب الخليج الثانية وخرجوا من الكويت وهم يعانون منذ ذلك الوقت من حصار مريز وتجويع فمن أين لهم هذه القوة؟

كان الفطحل جالساً مع صديقه يقاطع المذيع بين الفينة والأخرى قائلاً:

- إي، معلوم، هذا السؤال الصحيح، هذا المذيع رغم أنه عميل المخابرات العراقية لكنه بهذا السؤال منصف، بس هو يريد يبين نفسه للمشاهدين أنه موضوعي.

ردّ ضيفه معلّقاً بثقة عالية بالنفس:

- انت إشببيك؟ هذا شغله، هو صحفي، طبعاً لازم يطرح أسئلة مختلفة، ولعلمك معد البرنامج هو الذي يكتب له أسئلة إضافية.

ردّ الفطحل نافخاً دخان سيجارته كعادته:

- ها، لا تصدق، هذا حقير، هسه تشوف إشلون وإشراح أسوي بيهم؟ راح أشرهم على الحبل، هسه تشوف (قهقهه ضاحكاً) هسه تشوف، راح أقلبهم على البطانة، بس خلينا نشرب شوية، يله تعال، انت وينك؟ أشو ما دتشرّب؟ اشرب، يله نخب العراق الجديد، والله راح يصير طشارهم ماله والي... ها ها ها ها.

- والله شأقول لك؟ آني خايف على العراق، كل شيء ولا الحرب، الحرب ما تجيب غير المآسي.

تمتم صديقه بصوت حزين، هازاً رأسه على الطريقة الهندية وكانت عيناه الصغيرتان تبدوان وكأنهما شبه منغلقتين.

ردّ عليه الفطحل متسائلاً مقطباً جبينه ناظراً إليه بعينين قاسيتين بدتا هذه المرة متشابهتين طبق الأصل ككرتين زجاجيتين صلدتين.

- شنووو؟ والله أريدها حرب وبس، هذا طاغية ما يروح إلا بالحرب، خليه يطلع شطارته على الأمريكان، مو بس قادر على العراقيين.

- هذا صحيح، بسّ هذي الحرب ضد الوطن، وصادام هو مو العراق كله، وراح تصير كارثة على المنطقة كلها، أنت تعرف.

كان الفطحل منتشياً بفعل الخمر وبدا أنفه أكثر احمراراً، قال:

- اسمعْ خُليته ننتبه على هذا البرنامج، نشوف هذا إشلون يدافع عن صدام.

كان ضيف البرنامج يستمر في الحديث ولكن في هذه المرة بلُغة مشوبة بالخطابة والحماسة على عكس بدايته، التي حاول أن يبدو فيها رابطاً الجأش:

- هذه المرة لن يكون العراق البطل نزهةً للأمريكيين، بل ستكون بالنسبة للنظام وحزب البعث عليّ وعلى أعدائي، أما بالنسبة للشعب العراقي فستكون حرب دفاع عن الكرامة العربية والعراقية وستجد فوق كل سطح بيت عراقي مدفع رشاش وتتحول إلى حرب عصابات وسيدخل المتطوعون العرب إلى العراق عن طريق سوريا. ردّ عليه الفطحل بعصبية موجهاً كلامه إلى ضيف البرنامج ناظراً إلى جليسه:

- أسكت حقير، يريد يسوّي العراق محرقة ثانية والشعب العراقي وقودها، أي كرامة يدافع عنها العراق، الشعب جائع تحت الحصار، كل شيء ماكو بالعراق لا أدوية ولا مواد غذائية، بالأحرى كل شيء موجود بسّ الناس ما عندها فلوس تاكل.

حاولَ صديقُه أن يعلّقَ بشيء إلا أن الفطحل قاطعه ناهضاً من مكانه قائلاً:

- انتّ ابقَ هنا وأني راح أتصل بالمحطة حتى أرد على هذا النافه الحقير اللّي يدافع عن طاغية يجوّع شعبه!

- أتركه، معقول راح تحصله؟ وتكاليف التلفون غالية عليك، وانت شويّه شربان، يعني منتشي وعصبي. أصلاً أني جيت عندك حتى أحكي ويّاك عن حياتك ومشاكلك وهذا الفراغ اللّي تعاني منه، أني

جاي أصلح بعض الأمور.

- لا، بالعكس، ولا يهملك، أما تكاليف التلفون فمن الآن فصاعداً كلها مدفوعة، وأني اتصلت بالمحطة وأخبرتهم عن الموضوع وهم ينتظرون مكالمة مني.

بقي صديقه وحده في الصالة بعد أن غادره الفطحل إلى غرفة صغيرة أخرى، عيناه مصوبتان إلى الشاشة وأذناه تنتصتان إلى كلام الفطحل على التلفون، سمعه يقول:

- آلو، أبو شهاب، كيفك حبيب قلبي؟ وينك أستاذي؟ أنا بدّي أقدم مداخلة... ها؟ تريدني أطرح سؤال وبس؟ ممنوع عليّ أقدم مداخلة؟ ليش؟ ما أنت وعدتني بأن تعطيني شوية وقت للمداخلة وتقدمني كمنسق للجمعيات العراقية لحقوق الإنسان في الشمال الأوروبي... انت نفسك وعدتني، ليش تقلب وتخلف بوعدك؟ ها، أي ظروف؟ الحكومة العراقية تضغط عليكم؟ لا، لا، لا العفو انت ما قلت الحكومة العراقية، أني أستفسر منك بس، لا، عفواً أنا ما أقولك، أعتذر والله، انت تقصد المشاهدين يضغطون عليكم كقناة عربية، فهمتك، فهمتك، بس شو علاقة المشاهدين بكم؟ لا، عفواً أنا ما قلت لك لازم تؤيدوا احتلال الدول العربية من قبل الأمريكان، لا مش هيك، أه مفهوم، مفهوم، مشاعر قومية عربية ضد أي احتلال أجنبي، المشكلة أن المشاهدين العرب ما يعرفون حقائق العراق ولهذا يؤيدون الحكومة ضد الأمريكان، طيب فين كانوا لما كان المجرم ولا يزال يقتل العراقيين؟ الدكتاتور قتل كل العراقيين ودمّر وو.... ها؟ أي؟ أي، طبعاً، الطاغية ما سجنّي لأنني هربت، وهسه عايش بزّه، ها؟ أي سافرت بطريقة رسمية بالباص من العراق عن طريق سوريا؟ يبين عليك أبو شهاب تعرف كل شيء عن حياتي!... لا، عفواً، لا، أنا ما قلت عندك علاقة بالمخابرات العراقية، لا ما قصدي هذا، طبعاً انت صحفي ومن حقك تعرف كل شيء، طيب، طيب أنا أقدم نفسي كمشاهد، ما عندي مانع، ولا

بهمّك، بسّ أرجوك خُليهم لا يفوتوا الفرصة عليّ...

أنهى الفطحل مكالمته وعاد إلى صديقه الذي كان يجلس متملماً يفرك عينيه تارة ويمسده شعره بأصابعه تارة أخرى، قال له صديقه مباشرةً مستاءً من طول الانتظار:

- وينك؟ تركنتني وحدي، طوّلتُ عليّ. لو كنت أدري هيچي القصة كان ما إجيت عندك.

- العفو، العفو، صبرك عليّ، هَسَّه تشوف شراح أسوي بيهم، قال لي أبو محطة التلفزيون: وينك؟ إجنه ننتظرك، البرنامج كلّه متوقف عليك، ليش ما اتصلت بي؟ قال لي: انت أهم حلقة بالسلسلة، يقصد أني أهم فقره بالبرنامج، أني ما قلت له قاعد أشرب بسّ هو يعر فني، عن إذنك راح أتصل بمحطة التلفزيون، أرجوك حبيبي أول ما أني أتصل بهم، أضغطُ انتّ على ريكورد حتى الفيديو يسجّل مداخلتي، أو كي؟ أني ما راح أروح لغرفتي، راح أبقى هنا حتى اسمع صوتي وأشوف البرنامج، أو كي؟

- بسّ انتّ وين رحت؟ أني أريد أحكي ويّاك، إلى متى تبقى شاغل نفسك بهذه الأمور اللّي ما تفيد؟ عموماً ولا يهمك، أني أنتظرك.

قال له صاحبه بصوت خافت ويائس وبدا عليه التعب والنعاس متمتماً بين نفسه وكان جفنا عينيه مغلقين "كم قناع عندك يا أبله؟".

أعلن مُقدّم البرنامج مكالمته هاتفيهً جديدة من أحد المشاهدين لي طرح سؤاله على ضيف البرنامج لكن بعد الفاصل. وقف الفطحل ماسكاً سماعة الهاتف اللاسلكي بيده متمتماً:

- ليش بعد الفاصل؟ ليش؟ هَسَّه تشوف إشراف أسوي بيهم؟ أه، بدأ البرنامج، انتّبه على التلفزيون، الله يخليك، ألو، نعم، ألو، أنا الأستاذ المنسق العام لمنظمات حقوق الإنسان و...

قاطعته مقدم البرنامج قائلاً:

- عزيزي المشاهد، أرجوك أخفض صوت التلفزيون أو أطفأه أو انتقل إلى غرفة أخرى كي لا يطغى صوته على صوتك، أرجوك أخبرنا اسمك وسؤالك، تفضل وبسرعة رجاءً.

- طيب، طيب أنا السيد المنسوب العام والمنسق الجماهيري لمنظمات حقوق الإنسان العراقية في الشمال.
قاطععه المذيع سائلاً بسخرية مبطنة:

- أي شمال حضرتك تقصد؟ شمال العراق الذي يسيطر عليه الأكراد؟
- لا، لا، أنا أقصد الشمال الأوروبي، وأرجوك أن تعطيني حقي بالكلام ولا تقاطعني.

- طيب، سأحاول ولكن توجه بسؤالك مباشرة لأن وقتنا قليل.
- أقول لضيفك أن الشعب العراقي ذاق الأمران من طاعيته الذي تدافع عنه محطتكم أما العراقيين فلن يدافعوا عنه إذا أراد الأمريكان إزاحته لأنهم ملؤا الحروب وتعبوا منها ونحن نناضل من أجل عراق جديد يضمن الحرية لهم.

- طيب يا أخي أنا أعطيتك الوقت الكافي وأقول لك إننا لا ندافع عن أحد بدليل أنك ألقيت خطبة عصماء ضد النظام العراقي ولم نقطع البث، نحن ضد احتلال الدول العربية من قبل أية دولة أجنبية أم عربية مهما كانت الحجج، رفضنا غزو العراق للكويت، ما هو سؤالك؟ باختصار. وبلا أخطاء نحوية مثل الأمران بدل الأمرين!
- أخي أني عراقي وأعرف أن العراقيين لا يؤيدون صدام ولن يحموه.
انقطع الاتصال، أدار مقدم البرنامج وجهه إلى ضيفه:

- ماذا تقول يا أستاذنا، هل صحيح أن العراقيين سيقفون ضد صدام؟
- بالتأكيد هذا ما ستفعله المعارضة المرتبطة بأمريكا والأحزاب الكردية وبعض المنافسين للحكم سيستغلون الفرصة وهذا سيؤدي إلى انشقاق داخلي كبير ولكن دعني أقول لك إنه حتى وإن احتل

الأمريكان العراق فسيكون من الصعب استتباب الأمن فيه بسبب وجود إيران وسوريا، وبالمناسبة أن الأمريكان يعرفون ذلك أفضل مني ومنك.

- عفواً جاءنا اتصال هاتفي جديد ولكن بعد الفاصل.

قال الفطحل لجليسه في صالة الشقة وهو يحتسي قليلاً من البيرة:

- شفت! دمرتهم، بالمناسبة، كان اسمي واضح على شاشة التلفزيون؟
لم يسمع جواباً من جليسه، لم يُعره اهتماماً متظاهراً بمتابعة البرنامج مما جعل الفطحل يعيد السؤال:

- كتبوا اسمي بوضوح؟ كتبوا موقعي الشخصي؟ كتبوا: المنسق العام؟
ردّ عليه صديقه قائلاً بصوتٍ خافت متثائباً متملماً ومعاتباً:

- إي، إي بس مرة كتبوا: المنسق العام، وأخرى: المندوب الجماهيري،
انت السبب لأن كل مرة تعطيهم صفة أو صفتين، وصرت ترفع المنصوب وتنصب المرفوع، الله يسامحك! يا أخي فعلاً انت ما عندك هم، عندك وقت فراغ كثير، انت شنو؟ رأسك ما به هموم؟

- مو مشكلة، كلّه يك حساب، المهم اسمي مكتوب واضح. بس بشر فك شفته إشلون يدافع عن النظام العراقي؟ شفته إشلون حقير؟ يطلب منّي أوّطي صوت التلفزيون! انت شنو دخلك بي؟ بس بشر فك إشلون مسحت الأرض بيهم؟ فضحتهم.

قال له صديقه باستحياء:

- والله أني أشوف كل هذه الشغلة ما تسوه.

ردّ عليه الفطحل قائلاً بحماس:

- أبدأ، هسه بدأ اللعب الجدّي، راح العراق يصير كلّه بروجكرات،
كلّه بروجكرات، يعني لا وزارة إعلام ولا تخطيط، ماكو أحسن

من البروجكترات، هَسَّه تشوف شغل البروجكترات على الطريقة الأمريكية.

- انت إشدتِحكِي؟ انت تعرف شنو يعني بروجكترات؟ يعني مصايح قوية، كل مرّة تكرر ها وما أعرف شنو قصدك، يجوز تقصد الأمريكان راح يملأون العراق بهذه الأضوية؟
قال له الفطحل بثقة عالية وكأنه مسؤول كبير:

- معلوم، عندك مثلاً وزارة الإعلام، راح يلغيها الأمريكان، حضّروا طاقم كامل وهم هَسَّه بواشنطن، ذاك اليوم اتصل بي صديق لي بعدين أقول لك اسمه، قال لي أشياء كثيرة، قال وزارة الإعلام مثلاً راح تصير فيها عدة بروجكترات وجماعتنا المثقفين العراقيين راح يستلمونها.

قاطعَه جليسه ضاحكاً وكان نشاطاً جديداً دبّ في جسده:

- آه، هَسَّه فهمتُ، تقصد بروجكترات، يعني مشاريع، هاي إسطوانة يضحك الأمريكان بها على المثقفين العراقيين اللّي بالخارج.

- المهم مشاريع يدخلون بها المثقفين العراقيين، العراق راح يصير جنةً.

- أنت تتصوّر الأمريكان يسوون العراق جنةً على سواد عيونك هاي اللّي ياكلها الدود؟ هم يعرفون القصة كاملة من أولها إلى آخرها، راح يحيبون المثقفين اللّي لفظتهم المنافي وتعبوا منها بلا شغل ولا عمل ويحطونهم بالواجهة، يعني بس ديكور، وانت بالذات أحسن لك ما تتدخل بمثل هذه القضايا اللّي ما إلّك بيها شيء لأنك إنسان طيب القلب ومسالّم وغايب عن العالم وراسك مليان تين ما تميّز بين بروجكتر وبروجكت. هُمّه اللّي أكبر منك ما دبروا رؤوسهم ويّا الأمريكان، يعني زين إذا خلّوك قرّاش عندهم.

تقبّل الفطحل المزاح وازدادت خفقات قلبه عندما ذكر صاحبه عينيّه، خاف أن يقول شيئاً آخر يذكّره بعورها، وغرقا في ضحك وهما يشربان

القدح الأخير، لكن الضيف تساءل قبل أن يخرج من شقة الفطحل:

- بالمناسبة سمعت أنت متزوج من هاي صاحبتك الأخيرة البولونية اللّي كانت تتردد عليك، صحيح؟ يا أخي انت إيجابك عالبولونيات؟ يعني انت لو تشوف لك وحدة بلغارية مو أفضل لك؟ على الأقل تفهم لغتها. والله انت عجيب أمرك، صحيح البلغاريات قليلات هنا بس لا بدّ وأن تحظى بواحدة.

- ها، من قال لك؟ طيّب مو مهم، صحيح أي تزوجتها قبل مدة، البلغاريات ما موجودات هنا وبعدين أي طلعت روجي منهن ولا تنسّ السفر من هنا لبولونيا أسهل من لبلغاريا والطريق أقصر وأرخص.

- إي ألف مبروك، بلكي هالمرة تكون أفضل من السابقة اللّي شُمّرت ملابسك برّه البيت، حاول هالمرة تكوّن عائلة وياها وتستقر، هذا من صالحك وصالحها، لا تفكر بالفلوس، فكر بالمستقبل، ترّه انت صحيح أصغر مني لكن انت دخلت الخمسينات وبعد مدة راح تحس بالوحدة بدون زوجة طيبة. ارتبك الفطحل وقال متلعثمًا معاتبًا:

- هاي شنو أبو الشباب؟ ليش تقلّب المواجع؟ هذيك قصة قديمة وانتهت وأرجوك لا تجيب السيرة لأحد آخر مرة ثانية، هاي صديقتي الحالية تعيش في بولونيا وراح تجي بأجر، هي بصراحة بنت طيبة ومن عائلة محترمة، أبوها كان جنرال في الجيش من جماعتنا، يعني أقصد سهل السفر عليها إلى هنا وتدفع إيجار البيت معي، ذيك الأولى جاحدة.

- الواحد ما صار يفهم منك من هي الصديقة الأولى ومن الثانية والثالثة، الله يساعذك ويهديك، حاول هالمرة تكوّن عائلة وياها وتستقر. طيّب، مبروك، مع السلامة.

- بسّ انت من اين سمعت؟ أصلاً أي حتى نفسي ما خبرتها، يا أخي

العراقيين ما يغيب عنهم شيء ولا يتخبي عنهم سر.
- معلوم؟ انت ما تعرف العراقيين؟ حتى النغل يدورون على أصله!
مع السلامة.

ففي اليوم التالي جَلَسَ الفطحل مساءً بعد قيلولته المعتادة أمام
منضدته، تناول بطاقة الهاتف، أخذ رقماً وبدأ يفتح البطاقة ثم اختار
رقماً إلى واشنطن.

- ألو، ألو، ألو، ها؟ إنجلش؟ نو إنجلش، ها؟ أوكي، آي وَنْتْ سبيك
دكتور أمجد، ها؟ انت سكرتيره؟ أوكي، آي وَيْتْنُجْ، أنتظره، أوكي،
ألو دكتور ي إشلونك؟ إشلون صحتك؟ عفواً، شفت اليوم برنامج
العرب؟ لعبت بهم طوية، قلت لهم الشعب العراقي ما راح يدافع
عن طاغيته.

- جاءه من هناك رد هادي:

- دكتور أمجد غير موجود، آني سكرتيره، البرنامج ما شفته بس هذه
المحطة إحنة نعرفها.

قاطعها الفطحل:

- إي صحيح، بس آني البارحة فضحتهم، والله يا ريت لو تسلم لي على
الدكتور أمجد وتبلغه تحياتي وتخبره بأني اتصلت بهذه الفضائية
وبالذات ببرنامج حوار حول قضية ساخنة وأوصلتهم رسالتنا.

- طيب، شكراً لك ولجهودك الطيبة.

- مع السلامة.

بعد ذلك أخذ قلماً وورقةً وبدأ كما يبدو يكتب فيها مقالاً بعنوان:
محطة ع. والقضية العراقية. في يوم الجمعة قدمت محطة فضائية
عربية معروفة برنامجها الأسبوعي المعتاد متناولاً هذه المرة القضية
العراقية واستضافت شخصية معروفة بولائها للنظام العراقي

ومخبراته... وقد اضطر مقدم البرنامج إلى إعطاء فرصة المشاركة للمندوب العام والمنسق الجماهيري العام للجمعيات العراقية لحقوق الإنسان في الشمال الأوروبي السيد... كانت مداخلة المندوب العام والمنسق الجماهيري بلسم للجرح العراقي رغم مقاطعة مقدم البرنامج حيث فضح نظام الطاغية ورغبة العراقيين في التحرر منه.

ثم أخذ الهاتف وبدأ يختار الرقم التالي:

- ألو، مساء الخير، معاكم... ها عرفنتي من صوتي؟ شكراً، إشلون الصحة، شنو أخباركم إشلونها؟ وبين أبو عبد الله؟ ممكن أحكي وإيّه؟

- عندنا اثنين أبو عبد الله، أي واحد منهم تريد، السمين لو الضعيف؟
الأول محرر الاقتصادية والثاني محرر الثقافية.

- والله أريد أحكي مع السمين.

- هذا هرب، سرق المال والحلال، "قَلْبُ بِالذَّخْلِ" سرق قاصة الفلوس وراح، اخنقى، فُصْ ملح وذاب.

- معقولة؟ أي كلام هذا؟ أنت تمزح؟

- أَللي سمعته، إحنه باقين بدون رواتب.

- هاي قصة غريبة، أنت تحكي جديات؟

- كلّه جديات وما أمزح، أقول لك باقين بدون رواتب، هذوله جماعتنا كل واحد لسانه طويل في التنظير السياسي والوطني لكن بسْ تصوير الفلوس بيدهم يتغير كل شيء، والله الناس هنا زعلانين.
قاطعها الفطحل متسائلاً:

- طيب ما عندك تلفونه، أريد أحكي وإيّه؟

- أنت غريب أمرك، ما تفهم عراقي؟ أني أقول لك قلب بالذخل، يعني نهب الخزينة وهرب بها، ومع ذلك انت تطلب مني رقم تلفونه!

أصلاً ماكو واحد يعرف مكانه حتى خارج هذا البلد، وبالمناسبة
انت شتريد منه؟

- أريد أبعث لكم مقالاً عن برنامج حوار حول قضية ملتهبة.

- إي مو مشكلة ابعته لنا بالفاكس أو الإنترنت.

- إي صحيح، بس ردت أحكي ويّاكم، في الحقيقة شاركت بالبرنامج
وفضحتهم.

- طيّب، عظيم، ابعته وراح ننشره.

- طيّب، راح أبعته، أكتب اسمك؟ إذا ممكن تعطيني اسمك؟

- لا، مو مهم تكتب اسمي، أكتب عنوان الموضوع وخلص.

- طيب، مع السلامة.

- مع السلامة.

وَضَعَ الفطحلُ سماعَةَ الهاتفِ مندهشاً مرعوباً مصدوماً من هول
الخبر الذي سمعه، لا يدري ماذا يفعل بسبب الصدمة الكبيرة التي
هزّت بدنه "حرامي بغداد، سرق الرواتب،" قَلَبَ بالدَحَل "قال لنفسه
ثم أردف متمتماً بين نفسه "يعني هيجي أبو عبد الله، بعدنا بأول
الطريق وأنت انهزمت بالفلوس! قلبت بالفلوس مثل الطير وعلقت
فوق، طرت بها للسما، أكيد أنت هسه تستمتع بها!

بدأ بترتيب بعض الأشياء، نقل الأقداح إلى المطبخ وفجأة توقف
عن كل شيء، أخذ السماعة وبدأ يختار الرقم ثم تحدث بالبولونية:

- ألو، ألو، سوشّي، اسمعي.

- ألو، ها، بدأت تتعلم البولونية؟ ماذا تريد؟

- متى ترجعين؟

- لماذا أرجع؟ أنت إنسان سطحي وأنا لا أثق بك.

- أنت تعرفين أنا صرت أحبك وأريدك.

- أنت تعرف زوجنا على الإقامة يهكم بس استلام إيجار البيت مني!
- لا، هذه المرة أريدك، أريد أكون عائلة معك.
- على العموم أنا سأتي بعد أسبوع، الطبيبة قالت إنني حامل.
- ها، ها، ماذا تقولين؟ ها، أنت تمزحين؟
- لا، أنا لا أمزح، هذه الأمور لا يمزحون بها. أنا لست هوائية مثلك.
- أنتِ تسخرين، سأكتب عنه قصة أو قصيدة.
- القصة لا تعيشني ولا تغنيني، فكّر بأشياء أكثر جدية من هذه.
- ها... ماذا تقولين؟
- هيك، لا شيء.

فكّر في نفسه بعد أن وضع سماعة الهاتف، يا ترى هل سيكون له فعلاً طفل بعد هذه الزيجات الكثيرة والحياة العائلية غير المستقرة، يا ترى هل هذا طفله حقاً؟ فهو أول وأحسن من يعلم أن علاقتها به هوائية وسطحية ولم تبادلها الحب برغبتها الحقيقية مرة واحدة، كل شيء تم على مضض ولم يأخذها يوماً برغبة في نفسها، ورغم أنّ عدد المرات التي جمعته وإياها قليلة لا تزيد على أصابع اليدين، لكن هل يعقل أن تكون هذه البولونية الحاقدة المتكررة المتكبرة حاملاً منه؟ إنه لا يعرف إن كان عقيماً أم لا لكن لم تحصل معه هذه القصة في علاقاته السابقة، وهل تم هذا "الحمل" برغبتها الشخصية أم بالصدفة والخطأ في الحسابات والاحتياطات، هل حصل ذلك رغماً عنها أو أن القصة كلها مفتعلة وكاذبة؟ ولكن ما هو قصدها من هذا الكذب إذا كانت حقاً تُلقق؟

لا يستطيع الفطحل الثقة بهذه البولونية الجاحدة وكان غالباً ما يقول لنفسه "لازم عليّ دائماً أشكك بكل تصرفاتها ولا يمكن لي أن أثق بها أو بأي بولونية بعد اليوم وبعد اللي حصل لي منهن" وكان يتذكر بألم ما حصل له مع مواظنتها البولونية السابقة، فهل يمكن له أن ينسى كيف رمت صديقته السابقة، تلك العاهرة البولونية، ملبسه وحاجاته

في الشارع وفي وضح النهار وأمام مرأى الجيران في المجمع السكني كله؟ يا لها من فضيحة لن ينساها طوال حياته. انتشرت هذه القصة المخزية كما تنتشر النار في الهشيم بين مواطنيه العراقيين الذين كانوا يتربصون له ويريدون سماع كل صغيرة وكبيرة عنه، وتذكّر كيف تألم وتأثّر لما قال عنه أحد العراقيين "انت هشيم ولا شيء ينفع ويّاك غير النار".

وكان يلوم نفسه على علاقته بتلك البولونية ويتمتع مع نفسه "كم مرة قدمت لها المساعدات واستضفت أهلها وأقاربها وسكنوا عندي مقابل أجور بسيطة ولكن ما حسيت مرة واحدة باحترامها لي".

أما هذه الحامل منه فلم يرَ منها غير الاحتقار والعنجهية والحقد الكبير على كل ما له صلة به. حاول الفطحل أكثر من مرة أن يفهم سرّ هذا الاحتقار واحترار كثير أكي يدرك السبب إلا أنه كان يشعر بها تكنُّ احتراماً أكثر لزملائه الآخرين ممّن يجيدون لغتها، هؤلاء تمتدحهم باستمرار لشهاداتهم العليا ولكونهم أطباءً ومهندسين تخرجوا من جامعات بلدها، وكان يقول لنفسه "ولكن شنو ذنبي آني إذا ما تعلمت هذه اللغة اللعينة وهل هي شرط حتىّ أكسب معاملتها الحسنة.

كنت ألاحظ كيف يسخر منها هؤلاء الذين يتقنون لغتها، يهينوها أو يمزحون معها بالبولونية، كنت أحس بهذا الشيء، وأفهم شويّة ومرّات هم أنفسهم يخبروني هذا الأمر بالعربي، وكانت تنتقم منهم من خلال احتقارها لي والصراخ بوجهي، شيء مؤلم، آني ما عندي حظ".

شعَرَ الفطحل بالغصة والألم والأسى من سوء طالعها عاضاً شفتيه بأسنانه. قال له مرة أحد معارفه ناصحاً إياه: "يا أخي انت ليش ما تتعرف على امرأة عربية، تسترها وتسترك وتكون مثك وبيك ومن مستواك، لا تزعل، انت شنو علاقتك ببولونيا؟ لا انت درست فيها ولا تخرجت منها ولا اشتغلت فيها ولا تعلمت لغتها، صحيح لو لا؟ بشر فك جاوبني على هذا السؤال. آني يا أخي، والله أقول لك ذلك حباً فيك أشعر انت مهووس بالأجنبيات، ليش؟". أشار الفطحل بيده رافعاً إياها

إلى الأعلى علامة على عدم الاقتناع ولا ضرورة لمثل هذه الأحاديث. تَجَهَّم وجه الفطحل، تتمم بشيء غير مفهوم، تلغثم قليلاً وكأنه يلوك بالكلمات ولم تُسمع منه في حقيقة الأمر غير أصوات مثل "لا، لا" وكأنه يخفي شيئاً ما في دواخله النفسية، وكان كعادته في مثل هذه الحالات ينظر إلى الأفق بعيداً صامتاً، شاردأً عن محدّثيه. لم يأخذ الفطحلُ طبعاً وكعادته بنصيحة هذا المتطفل المتدخل في حياة الآخرين الشخصية بحجة الصداقة والأخوة والطيبة ولا يدرك الهموم والمعاناة النفسية الداخلية.

لا يدري هذا الصديق الناصح النصوح أن الفطحل يعاني من سلب الذات منذ طفولته وأنه يريد أن يردّ على كل هذه النواقص التي ظلّ يعاني منها. هو بحاجة إلى امرأة أوروبية يفتخر بها أمام الناس إذا سار في الشارع وأهله إن رجع قريباً إلى العراق. ماذا سيقول للناس إن سألوه هل حصلت على شهادة عليا؟ هل تزوجت امرأة أجنبية من تلك البلدان التي أقيمت فيها؟ هذا الصديق الناصح النصوح المجاني يتظاهر بأنه رجل خير وطيب القلب لكنه لم يعان من هموم الفطحل وأنه لا ينصح لوجه الله، قد يفكر بتسويق إحدى النساء اللاتي يعرفهن. ماذا يعمل الفطحل بامرأة عربية؟ هل هو بحاجة إلى مشاكل جديدة؟ وطلبات لن تنتهي، بل فضائح كبيرة ستغدو على كل لسان، وهناك شيء آخر كبير وخطير وهو العداوات والمعارك والحروب ليس معها فحسب، بل مع أهلها وأخوتها وكلّ عشيرتها. ومرت في خياله صورة زوجته العراقية الأولى وحبها الحقيقي له وسفره معها إلى بيروت ومن هناك إلى بلغاريا وطلاقه منها، لكنه تذكّر أنها لم تحمل منه وتذكر أنها كانت تطلب منه بعض المرات عرض نفسه على الطبيب مستفزة إياه بمزاح وود، والآن وهو قد تجاوز الخمسينات من عمره بدأ يشعر بوحدة كبيرة بعض الأحيان متذكراً قول صديقه اللبناني: أبو الأبناء يعيش مثل الكلب ويموت مثل الملك أما الأعزب يعيش مثل الملك طوال حياته ويموت

مثل الكلب!

لكنه ففي هذه اللحظات غمره شعور بالحنين الكبير أو الرغبة الجامحة للقاء زوجته البولونية متمنياً قدومها إليه بأسرع وقت "عسى ولعل الله يهديها ويهديني ونرسو على البر ونتفق على حياة عائلية هائلة ومستقرة"، تخيلها أمام ناظريه، امرأة لم تبلغ الثلاثين من عمرها، أصغر منه بأكثر من عقدين، فارعة مثل غصن البان، شقراء الشعر، رشيقة. سيتباهى بها أمام أصحابه وعائلته. تذكر تلك اللحظات التي كان يقوم هو بكل شيء بدون تفاعل من جانبها "لكن عسى ولعل تهدأ وتستقر وتكف عن مناكفتي وإهانتني، عسى ولعلها فعلاً حامل مني من شخص آخر غيري، يا رب تكون حبلي مني، يا ترى لازم عليّ أن أسألها عن هذا الأمر، أستفسر منها عن أب الطفل، أقدر أقول لها أني عقيم؟ هل هو طفلي حقاً أم من شخص آخر؟ أوه، يا الله بالتأكيد راح تثور وتزعل من هذا السؤال وراح تعتبره استفزاز وراح تكيل لي الإهانات وتقول لي أني عربي متخلف! لكن ماذا إذا أبدت استعدادها للتحقق من أبوة الطفل؟ إذا فعلاً تم التأكد من أن الأب شخص آخر؟ إشراح أقول للناس؟ يا الله أني فعلاً بانس ومسكين".

أخذ يرتب آخر الأشياء، جمع الأقداح ووضعها في حوض مغسلة المطبخ ثم أسدل ستائر الصالة الرمادية المعتمة متوجهاً إلى غرفة نومه، وما هي إلا لحظات حتى غطّ كعادته في نوم عميق.

في النوم حلم بأنه يتسلق شيئاً مرتفعاً، في البداية كان نخلة سامقة رفيعة مائلة، بل تبدو آيلة إلى السقوط، تسلقها حتى وصل إلى قمته، إلا أنه شعر بأن كَرَب السعف الذي يمسكه بيديه مهترئ وغير قوي مما جعله يرتبك ويشعر بالخوف. فجأة تغير المنظر ووجد نفسه واقفاً مستعرضاً عضلاته على شيء مرتفع وصلد لا يمكن النزول منه ببساطة، شيء يشبه منصة القفز في أحواض السباحة لكنها عالية ومرتفعة للغاية وكان بعض أصحابه يتطلعون إليه رافعين رؤوسهم

واقفين على الأرض لا يعرفون كيف يساعده، خائفين أن يحدث له
خطب، شيء مخيف، خطير ومكروه شاعرين أن أقل حركة منه قد
توقعه على الأرض ويروح "سبعه ماي" كما يقول المثل العراقي. لكن
لم يحصل أي شيء من هذه الوسوس والمخاوف، فاجأهم بالقفز من
تلك المنصة الشاهقة كما لو أنه يرمي بنفسه إلى حوض سباحة صغير
أو شاطئ البحر، أغمض أصحابه الواقفون الواجمون أعينهم ولم
يتحمل أحد منهم النظر إلى هذا المشهد المؤلم أو يجرؤ على تلقي
الصدمة المتوقعة، إنه الموت بلا أدنى شك. لا بد أنها نهايته الحتمية
وكان هو يشعر بأن موته محتوم وأن جسده وعضلاته ستنمزق حالما
يسقط من عل.

لم يتجرأ أحد الذهاب إلى المكان الذي سقط فيه، إلا واحد منهم
توجه إليه مباشرة مهرولاً نحوه كالطاقة، وجده مرماً في حوض
صغير مربع الشكل، صغير الحجم مبني من الإسمنت، كان مغمض
العينين، يلبس ملابس الكثافة التي كان تلاميذ المدارس العراقية
يرتدونها، أراد أن يتلمسه لكي يتأكد من أن المنية فعلاً واقته، أو أنه لا
يزال على قيد الحياة. بينما كان صديقه يجس نبضه، فتح الفحل
عينيه مبتسماً قائلاً:

- عايش! اطمئن أني عايش، أني بزونه (قطّة) أم سبع أرواح.

فرح صديقه وصار ينادي الجميع بأن يحضروا ليروا أن صاحبهم
لا يزال حياً يرزق!

رَنّ هاتفه، فتح عينيه متوجهاً نحوه، نظر إلى الساعة كانت تشير
إلى الحادية عشرة صباحاً، شعر بثقل جسده وصعوبة المشي، تناوله
بيده اليمنى.

- ألو، ألو، لا، غلطان بالنمرة.

تألم كثيراً لهذه المكالمة المزعجة، التي حرمتها متعة نوم الصباح،
كان دائماً يقول لأصحابه "أحلى شيء في الحياة هو النوم وبالذات نوم

الصباح" الذي يمتد عنده حتى الثانية عشرة أو أكثر، وكانت كل النساء اللاتي تعرّف إليهن وأقامَ علاقاتٍ معهن يتضايقن من نومه الكثير على عكس أصحابه ومعارفه الآخرين حيث كانوا يستيقظون مبكراً كالديكة متجهين إلى أعمالهم ووظائفهم لكنهم في الوقت نفسه يشكون بوجع ودعابةٍ من نسائهم بسبب نومهن العميق والكثير وكان منهم من يقول له الرجل يبكر صباحاً كالديك أما المرأة المدللة فهي نؤوم الضحى. إنها معادلة غير مفهومة لدى هذا الفطحل.

عادَ إلى فراش نومه مرة أخرى، أغمض عينيه متحدياً ضوضاء المدينة وضوء النهار محاولاً النوم، وضع سماعة الهاتف اللاسلكي على المنضدة المجاورة لسريره. ما هي لحظات حتى رنَّ الهاتف مرة ثانية:

- ألو، ألو.

كانت زوجته البولونية تتحدث إليه من السماعة الأخرى بلغة بولونية اعتيادية عليه أن يركز كثيراً كي يفهما:

- أأزلت نائماً أيها الأمير؟ إلى متى تبقى على هذا الحال؟ أفقُ لنفسك أيها الطفيلي؟ أخرج يا فارغ وابتحث لك عن عمل يفيدك، ستصبح أباً عما قريب، هل تفهم؟ حاول أن تفهم قليلاً ولو أنا يائسة منك يا أبله لأنك طوال عمرك هائم ونائم كأنك محنط.

قاطعها مرتبكاً، لم يفهم كلَّ حديثها، شعر بالحرج أكثر من السابق قد يكون لأنها في هذه المرة تُدكِّره ببطالته وقرب ولادة طفل، كأنها تريد أن تشعره بصغر حجمه وعاره. وكان هو يخط المفردات السطحية من تلك اللغات التي يعرفها ولا يجيدها ليكوّن جملة مفيدة، بينما تسخر هي منه كعادتها.

- ألو، ألو، اسمعي، انت تعالي هنا، أنا ينتظرك.

قاطعته ساخرة:

- "انتِ تعالي هنا، أنا ينتظرك!"، اسمع، اسمعني جيداً، أنا كنت عند الدكتورة فقالت لي إني حامل، تفهم؟ أنا حامل منك واحتمال أنا أرجع إليك بعد أسبوع أو أقل أو أكثر وأريد أعمل إجهاض إذا لم تبحث عن عمل لك.

- ها، ها، ها؟ ماذا تقولين؟ أي شغل هذا؟ أنا سياسي! أي شغل؟ أنا شاعر! أي شغل هذا؟ أنا معارض للنظام! أنا ضد صدام! هذا شغلي! أنا شاعر! أنا كاتب!

- نعم، ضد صدام بس هذا لا يمنعك من العمل في الصباح والنضال ضده في المساء (ثم أردفت ضاحكة) الشعراء لا يعيشون من قصائدهم، يكفيك لهائناً وراء الآخرين، فهمت؟

- طيب، طيب، أنت تعالي هنا.

- "نعم أنت تعالي هنا"، أنا فعلاً سأتي إليك بعد كم يوم وسأتصل بك من بولونيا قبل المجيء ولازم تنظف الشقة كلها وتهويها فلم أعد أحتمل رائحة الدخان.

- طيب مع السلامة.

فرك الفطحل وجهه براحتي يديه متوجهاً إلى الحمام، غسل وجهه بالماء البارد متطلعاً إلى المرأة، تذكرَ بمرارة أنه لم ينظف عينه الزجاجية منذ فترة طويلة، أسدل ستارة شباك الحمام الصغير، أغلق بابَه بإحكام أحنى رأسه إلى حوض المغسلة، فتح صنبور الماء وأخرج الزجاجية بحركة سريعة ثم أعادها مكانها بعد أن شطَفها بالماء. انتبه إلى ذقنه وتيقن بأن عليه حلاقته الآن، وَضَعَ غَلَاية الماء ليعد الشاي وبدأ يفرّش أسنانه، ما هي لحظات حتى صار الشاي جاهزاً ثم تناول قطعة جبن ملفوفة بالخبز وشرب الشاي، فتح التلفاز وجهاز التسجيل ليشاهد ما سجله يوم أمس، فرح كثيراً لسماع صوته الأجنس العالي ولاحظ أن اسمه مكتوب بوضوح إلا أن صفته مكتوبة في المرة الأولى المنسوب العام أما الثانية فكانت بشكل مختلف عن المرة الثانية

(المنسق العام)، تألم قليلاً لهذا الاختلاف، لكنه قال لنفسه موسياً إياها "مو مشكلة"، وشعر بمرارة أكثر لأن صورته لم تعرض على الشاشة رغم أنه أرسلها إلى المحطة أكثر من مرة وتضاعف شعوره بالحسرة لقصر وقت مداخلته متمتماً بين نفسه "أه لو أعطوني شوية أكثر من هذا الوقت". أطفأ التلفاز غاضباً من سوء الطالع متذكراً زوجته البولونية، "كانت تحكي بلغتها الأصلية بسُرعة، وهي تعرف حق المعرفة أنني ما أفهم عليها إذا حكّت بهذه السرعة وكأنها تعمدت ذلك، يا ترى هل أرادت الإساءة إليّ؟ ليش كانت تريد تغيطني؟ لا، ومو بسّ هذا، كانت تستهزئ بي، قالت لي أشياء لم أفهمها كلها حتى لم أستطع الإمساك بخيط الموضوع، لكن عموماً أنني أعرف قصدها خير المعرفة، هذا هو مغزى حديثها دائماً، هي تعني ما تقول، أعتقد هي قالت كلمة مو حلوة أنني سامعها منها أكثر من مرة تقولها على اللاجئين، نعم قالت بارازايت، بوروزيت أو شيء من هذا القبيل، حَلّيني أكتبها وأسأل المترجم هذا أكيد راح يعرفها. تناولَ دفترَ أرقام الهواتف، وجدَ اسم مترجم يجيد العربية والبولونية، تريبّ قليلاً، أراد أن يتأكد من عدم معرفة زوجته بهذا المترجم، "لا، هي ما تعرف هذا المترجم، هذا بعيد عليها وطول عمره مشغول وما عنده وقت للآخرين كأنما مو من أصل عراقي، غريب طبعه!"، اختارَ رقمه وبدأ الحديث معه بهدوء.

- ألو، إشلونك؟

- يا هلا ومرحبا.

- إشلونك أبو الشباب؟ تذكرني؟

- أقول لك حبيبي سامحني أنني ما أتذكر كل الأسماء، حالياً أنا عندي ترجمة هاتفية، يا ريت لو تخابرنني المساء أو تقول لي طلبك بسُرعة، أمر؟ خدمة؟ تفضل بسّ بسُرعه.

- إي، أخي أنت شببيك طول عمرك مستعجل؟ أنتم المترجمين إشببيكم طول عمركم بسّ تتراكضون؟ ما راح أطول عليك، قل لي شنو

معنى كلمة بوروزايت أو بارازايت.

- طفيلي، يعني طفيلي، بارازايت، يعني اللي عايش على فتات
الأخرين، مَنْ قال لك: بارازايت؟
قال عبارته الأخيرة ضاحكاً.

- شكراً.

- تدلّل عيني، مع السلامة.

أغلق الفطحل سماعة هاتفه ماسكاً حنكه بكف يده اليمنى سانداً
عكسها بيده اليسرى "هيجي يعني؟ أني طفيلي؟ وانت؟ انت يا بولونية
يا ساقطة، انت وأهلك كلهم ما بقي شيء عندكم ما بعنوه، أني طفيلي؟
ها أني اللي تساهلت وإياك بكل شيء، على الأقل أني ما سرقت أي
شيء من أي شخص لكنكم البولون كلكم حرامية، أني أخذ حقي من
المجتمع هنا بكل احترام، أني مريض وغير قادر على العمل لكني ما
أسرق السيارات وأهرّبها لبولونيا، أني أعيش على الإعانات بكل فخر
واعتراز واحترام" هنا توقف قليلاً وشعر بانقباض صدره وحسرة ثم
تنهد بعمق متمتماً بين نفسه "أي شعور بالاعتزاز هذا اللي تحكي عنه
يا غبي، خليها مستورة، أكو واحد يحترم نفسه ويقبل أن يعيش على
الإعانات الاجتماعية ولكن هذا الموجود والظروف تضطرنني للقبول
وإلا شنو الحل؟ هو الشغل موجود وأنّي رفضته؟ طبعاً لا، هذا البلد
مليء بالعاطلين، ناس عليها العمل وعندهم شهادات عليا ومع ذلك
عطالين بطالين يذرعون شوارع لو مرضى نفسياً لو متقاعدین
لأسباب نفسية وصحية، قابل بس أني، شنو هي بقت علي؟ إن شاء الله
نخلص من صدام ونرجع للعراق".

توجّه نحو مرآة الحّمّام مرّة أخرى، وتذكّر نصيحة الصديق
الناصح النصوح "الطيب" بالزواج من امرأة عربية متطلعاً إلى عينا
الكريمة مقارناً إياها مع الأصلية متمتماً بين نفسه بألم وحسرة "صورة
طبق الأصل، ولا اختلاف ملحوظ". ومرّت في خياله تجاربه مع
العراقيات المتعجرفات اللاتي يخفين كبرياءهن وطلباتهن لمجرد

الزواج والحصول على الإقامة في هذا البلد ولكن بعد ذلك يريدن الاستحواذ على كل شيء: المال والسلطة والجاه والمعرفة والشهادات، وإعالة أهلن وأخوتهن وردد مع نفسه "جرب أن ترفض أبسط طلب من طلباتهن فما أسهل أن تسمع منهن كلمة "فارغ، فاهي، باهت بلا طعم ورائحة ولا لون، أعور"، لا، لا كل شيء إلا العراقية، إبعذ عن الشر وغن له"، الباب اللي تحيك منها ريح، سدّها واسترح". تعززت ثقته بنفسه قليلاً وشعر بالراحة النفسية، مرّر يديه على وجهه، تحسّن ذقنه مرّة ثانية، قرر حلاقتة، حلق ذقنه بسُرعة و عطرَ وجهه برائحة طيبة، مشطَ شعره الكث ناظراً إلى عينيه، وضع نظارته عليهما، ارتدى ملابسه، جمَع بعض الأوراق في عليجته العنتيكة.

خرج من البيت، تذكّر صندوق البريد، فتحه، لم يجد أي رسالة فيه، أغلقه متحسراً قانلاً لنفسه "صارت الرسائل قليلة بسبب الإنترنت".

كان الجو بارداً والناس يبدو عليهم الانشغال حد الهوس والمعاناة من الضغط، يبدأ يومهم منذ الصباح الباكر يعملون في المصانع والورش والمحلات والمدارس والسيوبر ماركات الكبيرة ورياض الأطفال والنوادي والمكتبات والبنوك وشركات التأمين، عليهم أن يقضوا حاجاتهم الخاصة ويتناغوا مأكولاتهم وأشياءهم المنزلية حالما ينتهوا من أعمالهم. بعد فترة العمل تكاد المدينة تبدو مغلقة والشوارع خالية من المارة فهم في بيوتهم يتناولون وجبة العشاء الساخنة ويستمتعون بمشاهدة الأخبار التلفزيونية المعروفة.

توقف عند كشك لبيع الصحف، قرأ عناوينها الرئيسية: وقوع حرب وشيكة، تحرير العراق، السطو على آبار النفط العراقية، الضربة الذكية، الهجوم الكاسح بأقل خسائر ممكنة، الأمريكان يريدون خروج صدام من العراق ومبادرة زايد تفضل.

قال لنفسه "يبدو أن ساعة الصفر قد حانت" وهذه هي آخر أيام صدام. توجه نحو الشارع الرئيس في المدينة وكعادته قطعته مشياً على الأقدام من بدايته حتى نهايته. التقى بأحد معارفه ودار حديث

بينهما، بدأه الفطحل:

- شنو رأيك بالأخبار؟ قربت ساعة الصفر، نضالنا ضد الطغاة راح
يجيب نتيجته ويصل إلى نهايته، كل طاغية وله نهايته، خينا نرجع
للبلد، نبنيه، نسويه جنة مثل البلدان الأوروبية.
قال له محدثه ساخراً:

- والله زمان صرت تحكي بلغة "نحن" بيش نبني الوطن؟ بقملاتنا؟
شيسفدنا من إقامتنا بهذا البلد؟ بقينا فيه لا شغل ولا عمل ولا فلوس،
طول عمرنا عايشين على الإعانات الاجتماعية، انت راح تبقى بهذه
القضايا؟ انت إشلون تبني الوطن؟ ومن راح يخليك تبنيه؟ انت أصلاً
ما عندك خبرة عمل وأهل الوطن راح يسألوك إشدرست
وإشحصلت وشيشغلت بأوروبا؟ وشنو هي خبرتك؟ تصور، قبل
فترة حكيت مع أهلي بالتلفون سألوني معاتبين: ليش ما درست
بالجامعة وأخذت شهادة على الأقل راح تفيدك لما ترجع للعراق!
عيني العراقيين مو سهلين، ليش انت تعتقد أهل العراق اللي بالداخل
ما عندهم كوادر؟ تعتقد هم محتاجين لي أو إلك؟ انت غلطان وطول
عمرك بطران وما تفكر إلا بالشيء السهل، إذا قلت لهم انت عاطل
راح يقولون عليك ما بيبك خير، لو عندك قدرة كان حصلت على
شغل في أوروبا، عفواً أني أقصد نفسي أني شخصياً أيضاً.

- ومن قال لك أني ما أشتغل؟

- انت تشتغل؟ إشتغل؟

- صحفي.

- هذا كلام فارغ ما يمشي لا علي ولا عليهم. يا أخي انت طول عمرك
شاغل روحك بالأشياء الفارغة، الشغل الحقيقي يعني شهادات
وخبرة عمل ورواتب. عال العال إذا كنت تدفع ضريبة للدولة، يعني
يحق لك أن تمتلك شقة أو بيت، المهم أن تعيل نفسك، هالمرّة تعول

على الأميركيان! انت من كل عقلك الأميركيان راح بينون العراق؟
وليش بينوه؟ شنو على سواد عيون العراقيين؟ وليش تفترض
محبتهم للعراقيين؟ أصلاً الأميركيان لو كانت نياتهم صافية كان بنوا
الدول العربية اللي علاقتهم ماشية ويّه حكوماتها، كان حلّوا القضية
الفلسطينية وخلصوا العالم منها!

- أهووو انت طول عمرك تحكي بالقضية الفلسطينية.

- نعم هي أهم مشكلة بالشرق الأوسط وبدونها لا هدوء فيه.

- طيب النقاش صعب ويأك، مع السلامة.

- مع السلامة.

عمّت المظاهرات المعادية للحرب شوارع المدينة وانقسم المجتمع إلى
قسمين، من الناس من قالوا إن هذه الحرب عملية سطو على منابع النفط
ليس إلا، بينما اعتبرها آخرون إنقاذاً للمجتمع الدولي والعراقيين من هتلر
جديد. نشط اليساريون نشاطاً كبيراً بحيث سيطروا على الشارع والرأي
الشعبي العام وكان أغلب الناس الذين يلتقي بهم الفطحل من أهل البلد
الأصليين والأجانب ومواطنيه يرفضون الحرب.

كان الفطحل يجلس مع البولونية بعد أن عادت إليه، متابعا الأخبار
أولاً بأول ويعيد سماعها عدة مرات ويطير فرحاً عندما يقرأ على
شاشة التلفزيون: "خبر عاجل"، وكان لا يكف عن تغيير المحطات
علّه يجد أخباراً جديدة ترتاح لها نفسه، وكان يشعر بالحسرة لعدم فهمه
اللغات الأجنبية ولا يقدر على متابعة محطة سي أن أن أو بي بي سي.

كانت البولونية تشغل نفسها بدراسة العربية كما كانت تقوم بذلك
سابقاً وصارت تفهم الكثير عن تاريخها وقواعدها ولاحظت أن
الفطحل لا يستطيع تعليمها باستثناء اللحظات العاطفية فيلقنها بعض
كلمات الغزل التي صارت تلفظها كما يلفظها العرب لكنه يصر على

طريقته: مثل خبيبي، أنا أخبك، إلا أنها صارت تفهم الكثير من الكلمات أيضاً بسبب علاقاتها السابقة مع الطلبة العرب في بولونيا. كانت كثيراً ما تجلس قبالة الكمبيوتر وتجلب له المعلومات من خلال الشبكة العنكبوتية البولونية وتعارضه بكل شيء وكثيراً ما تقول له إن هذه الحرب لا تجلب إلا الدمار والخراب ولا خير فيها للعراقيين والأوروبيين وإن إزاحة الدكتاتور بهذه الطريقة سيكون له عواقب وخيمة على العالم كله ومن الأفضل للجميع رفع الحصار عن الشعب العراقي ليشبع أولاً ومن ثم ليتمكن من إزاحة طاغيته بنفسه وبدون تدخل من الأجانب.

كان الفطحل يجد صعوبة في فهم كلامها، لا يدخل في نقاش عميق معها بل يكتفي بتكرار بعض المفردات التي يعرفها من البلغارية متصوراً إياها تفهماً كلياً أو الإنجليزية أو إشارات اليد وكثيراً ما ينهي الحديث بهز رأسه مدخناً سيجارته نافخاً الدخان بوجهها بين الحين والآخر مثيراً بذلك حفيظتها مرات ومرات لكن دون جدوى، وقالت له في إحدى المرات ساخرة وهي تسرح شعرها الأشقر الطويل بأصابع يديها الطويلتين متكئة على الأريكة:

- إذا كنت تتصور أنك ستحصل على حصتك من الكعكة العراقية، أنت غلطان وغلطان فاللصوص الكبار لن يسألوا عنك لكنهم قد يستخدمونك لفترة قصيرة ويرمونك فيما بعد كأبي خرقة، أنا المفروض أفرح فقد تحصل على منصب لكنني أعرف أنك غير قادر على الحيتان الكبيرة.

كانت هذه البولونية متضايقة منه وتصرفاته، إلا أنها شعرت في هذه المرة بأن عليها أن تحتفظ بالجنين وبدأت الاقتراب أكثر من الفطحل فقد يكون أباً لوليدهما القادم. لكن هناك قوتين تتنازعان في دواخلها ومزاجها وتفقد السيطرة على نفسها في بعض الأحيان فتثور غضباً أو تنتقص منه مرات أخرى.

وكان في بعض المرات يقتنع في داخله بكلامها المنطقي الذي يكرره العديد من الناس إلا أنه تعب من الغربة وبقاء الدكتاتور في الحكم، أما العراقيون في الداخل فقد هلكوا من تصرفات هذا الطاغية السياسية الغيبية، لكنه بدأ يشعر بأن عليه اقتناص فرصة تواجهها معه في بيت واحد وميلها إليه معتبراً إياها ذهبية كآون شعرها الجميل وكان يتطلع إلى بريق عينيها الخضراوين فيزداد إعجابه بها لكن الشكوك كانت دائماً تراوده في ولائها أو حبها له متضائفاً من طلباتها المادية في كل مرة تقترب منه وكان يفكر بمستقبل علاقتهما فيما إذا استمرت تسكن عنده وحافظت على الطفل، فيا ترى هل ستدفع له إيجار الغرفة كما كانت تقوم سابقاً أم أن العلاقة لا بد أن تتغير. كان هذا الأمر يحيره فعلاً. ومما كان يشعره بالحرج رغبته الجامحة لممارسة الحب معها باستمرار والميل إليها في بعض الأحيان لكنه لم يشعر بالحب الحقيقي لها ولم يحس بأن مشاعرهما نحوها تغيرت فعلاً بحيث يستطيع أن يقول لنفسه إنها تحبه، أجل كانت تتجاوب معه وتلبي رغباته لكنه لاحظ نظراتها الحزينة أكثر من مرة وشرودها منه وانشغالها بأمور أخرى كثيرة لا علاقة لها به. وكان انعدام إتقان اللغة بينهما حاجزاً كبيراً أعاق انسجامهما وكانت هي عموماً تشعره بأنها أوروبية متفوقة عليه وأنه شرقي بدوي ارتبط ماضيه ببلد متخلف بالنسبة إليها مثل بلغاريا لا يشرفها كثيراً وكانت كثيراً ما تقارنه بمواطنيه خريجي بلغاريا وبلدها من المهندسين والأطباء والصحفيين وتتنظر إليه نظرة استعلائية وتعتبره فارغاً وأجوف، بل لا شيء بالنسبة لهؤلاء، ولاحظت أيضاً سخريتهم منه لكنها كما يبدو رضيت بقسمتها ويبدو أنها تميل نحو ترتيب وضعها معه.

وكانت كثيراً ما تشغل نفسها بالاتصالات الهاتفية مع أهلها في بولونيا وصارت تلاحظ انزعاجه رغم أنها تقوم بذلك من خلال خدمات الإنترنت المجانية، بينما كان هو أيضاً ينشغل عنها كثيراً

بالخروج لوحده يومياً لقضاء مشاغله كما كان يقول لها وعندما يعود إلى البيت يتناول غداءه لينام قيلولته المعتادة وعندما يستيقظ يأخذ زجاجة الجعة وبعدها تبدأ المكالمات الهاتفية والمحطات الفضائية العربية أو يزوره بعض معارفه الذين لا يتقنون كالعادة لغة يمكن لها أن تتفاهم بها معهم، أما أولئك المتعلمون والخريجون الذين كان يسميهم بالأكاديميين فكان يتحاشاهم ولا يدخلهم بيته أثناء وجودها مما يثيرها كثيراً، هي تعرف عنه اهتمامه الكبير بهؤلاء الأكاديميين ويعجبه كثيراً أن يقول "اتصل بي الدكتور الفلاني أو المهندس العلاني" وإلخ من التصريحات فهي تعرف خير المعرفة أن هؤلاء المتعلمين لا يكونون له الاحترام ولا يتصلون به إطلاقاً وهم متعالون عليه يسخرون منه.

كان الفطحل يتصل هاتفياً باستمرار ويبدو منشغلاً بتطور الأحداث متابعاً إياها ومتحمساً لها أيما تحمس وكانت هي تسمع مكالماته الهاتفية وتتضايق كثيراً من هذا الاهتمام السياسي اليومي في كل الجلسات والمناسبات فكثيراً ما تسمع كلمات مثل أمريكا، صدام ولم يكن هو ليبالي بها.

اتصل الفطحل بسكرتير الدكتور المعارض العراقي أمجد.

- ألو، إشلونكم حانت ساعة الصفر؟

- ها؟ انتظر خايني أتصل بالرئيس بوش وأسأله عن هذا الموضوع!!

انت تتصورني أشتغل في البيت الأبيض!

- لا، عفواً هذا مو قصدي، عموماً حبيت أخبرك، راح أتصل بالمحطات

كلها وأخبرهم وأوضح موقف المعارضة من الحرب، البارحة قلت لهم

الشعب العراقي كله ما يريد الطاغية، ها إذا دخل الأمريكان.

- انت حصر نفسك، إذا دخل الأمريكان سنكون هناك وراح نأخذك

ويانا.

- أني حاضر، ولا يهكم أني حاضر، بسْ خَبْرني.
- أكيد راح نخبرك ونتصل بكل جماعتنا.
- وَضَعَ سماعة التلفون، توجه متهلاً الأسارير نحو البولونية، التي كانت ترتدي ملابسها لتخرج إلى الطبيب، قال لها بالعربية.
- تعالي يا خبيبي تعالي.
- ثم أردف بالبلغارية:
- العراق مُلْكٌ لنا، عراقنا، صار لنا.
- ثم أشار بيده إلى نفسه قائلاً بالإنجليزية كأنه يلقي قصيدة بنبرة خطابية على طريقة الشعراء العرب:
- آي إراك، إراك آي! "أنا العراق والعراق أنا" وار فينيش آي جو تو إراك، نيو إراك، وار فينيش كويكلي، أمريكا جو، صدام جو، فينيش كويكلي، نو مشاكل نو دمار، فلوس في إراك كثير، نفط كثير، غاز كثير، إراك فيه موني، موني.
- أرادَ أن يقترب منها كثيراً، أزاحتها قليلاً عنها قائلة له:
- اسمع أنا اليوم سيك، لازم دكتور، فاهم، أنت وأنا سَوّه دكتور، أوكي؟
- ها؟ لا، أنت روجي وحديك، انت سيك إنجليش، دكتور هنا نو فار، مو بعيد، قريب، أنا مشغول، بيزي، أوكي حبيبي انت روجي دكتور.
- كانت مرتديةً معطفها، خارجة من الشقة، رمقته بنظرات شزر مستهجنة تصرفه قائلة له بغضب:
- أوكي، اللّي يخون وطنه يمكن أن تتوقع منه كل شيء.
- بقي وحده، ضاق ذرعاً بها، تمنى لو تخرج من حياته ولكنه شعر أنه سيطلب عودتها لو فعلت ذلك حقاً، سيرجوها أن تعود إليه، صار متعلقاً بها قليلاً، لام نفسه قليلاً، لا يعرف ماذا يريد بالضبط، وشعر أنها أول مرّة يلوم نفسه فيها بسبب كائن آخر، هذه هي المرة الأولى،

التي بدأ يشعر فيها بما يسمى بتأنيب الضمير .

أخذ سيجارة، بدأ بالتدخين وهو واقف وسط الصالة مشاهداً التلفاز الذي يبيث المظاهرات الكبيرة المنددة بالحرب، شَعَرَ بالضيق والانزعاج، أخذ سماعه التلفون، اتصل بأحد الصحفيين المحليين وصار يتحدث بلغة متلعثمة:

- ألو، هاي "مرحبا"، أنا معارض عراقي وكاتب ومن المنفى، ممثل البرلمان العراقي في الشمال الأوروبي، أريدكم أن تعملوا مقابلة معي حتى نبدي رأينا بالأحداث.

- أوكي، رائع، أعطني رقم هاتفك وعنوانك وسأتصل بك (ساد صمت ليرهة ثم أردف)، ففي الحقيقة هل يمكنك أن تأتي إلى مكان المظاهرة الآن، أنا أقف وسط مظاهرة كبيرة جداً مُنَدَّدة بالحرب ونحن نغطيها للمحطة الثانية، ما رأيك أن تأتي هنا؟

- هذه مظاهرة مناققين، لا يفهمون الوضع العراقي، هؤلاء يستلمون مبالغ من صدام، فلوس، فلوس.

- طيب، هذا يحتاج إلى نقاش طويل وأنا أكاد لا اسمعك وقد أنقل رأيك إلى الآخرين، وسيردون عليك بأن المعارضة تمول من أمريكا، سأتصل بك.

شَعَلَ الفطحلُ التلفاز، بحث في المحطات الفضائية العربية حتى استقرَّ به الحال على محطة العرب، كانت هناك أخبار لا تهمة، نهض من كرسيه، تركه غير مبالي به، توجه نحو الهاتف واختار أحد الأرقام.

- ألو، أي حاضر بس أرجوكم أن تكتبوا تحت اسمي وصورتني اللي بعثتها لكم صفتي السياسية، أقصد موقعي السياسي: ممثل البرلمان العراقي في الشمال الأوروبي...ها؟.. راح تعطوني مداخلة واحدة؟ ليش؟ ما أنا مشارك في البرنامج؟. طيب بس أرجوكم لا تنسوا وضع صورتني الشخصية لتوثيق الموضوع بس، طيب أنا حاضر وراح أنتظر.

بدأ البرنامج بعد ساعة من المكالمة الهاتفية، ظهرت في هذه المرة صورته واضحة العيان، كانت قديمةً أثر أن يقدمها لهم، كان يبدو أجمل في شبابه وكانت تبدو كأنها لممثل سينمائي هندي أو سيريلانكي، كان شعره يبدو هذه المرة مصقفاً طويلاً من تسريحات السبعينيات يغطي قليلاً عينه اليسرى وكان يضع يده تحت حنكه، لم يرفع صوت التلفاز كما كان يعمل سابقاً بل التزم بنصيحة المحطة، بدأ يتحدث ممسكاً بسماعة الهاتف متطلعاً إلى صورته الواضحة على شاشة التلفاز وضغط على جهاز التسجيل مباشرةً، كان في هذه المرة أكثر استقراراً، رابط الجأش، لبقاً وبدأ حديثه بطريقة سهلة:

- أخي أنا أحب أن أوصل رسالة شرائح كثيرة وهامة من العراقيين، إنها وباختصار غير متحمسة للدفاع عن صدام، إحنه مع إزاحتها عن الحكم لكن بدون احتلاله، لا أعتقد أن هناك من يريد بقاء هذا الدكتاتور، نحن ناضلنا من أجل العراق وسنبقى نناضل ضد الدكتاتورية وسنبنّي العراق الجديد، العراق الديموقراطي.

في مكانٍ آخر كان يجلس هناك مشاهدون جُلهم من العراقيين المتعلمين والمهمشين، صاروا يطلقون على أنفسهم في هذه الأيام: الأغلبية الصامتة، كانوا يجلسون عند أحد أصدقائهم عدنان السمين في صالة شقته. قال عدنان السمين مشيراً إلى شاشة التلفاز، كان مرح المزاج كثيراً ما ينهي كلامه بضحكة:

- لئكَ، لئكَ، لئكَ هذا روني الفطحل، خَرَبَ عَرَضَكَ صار اليوم قائد المعارضة، هنا والله هالمرّة كاتب اسمه القديم عبدالجبار، أعتقد هذا اسمه الصحيح، لا، لا، لا، اسمه الحقيقي طايح، نعم، أعتقد طايح، والناس كانوا يصيحون عليه طايح، يا طايح الحظ لأن هو كان دائماً يردد عن نفسه: "أني طايح الحظ"، بشرفي يمكن هذا هو اسمه الحقيقي، والله بيني وبينكم ضاعت عليّ، بعد ما أذكر

شنو اسمه الحقيقي، وهذه صورته القديمة أعرفها من قبل أكثر من عشرين سنة، صحيح كان دائماً يحط شعر كذلته على عينه اليسرى حتى يغطيها، حَرَبَ عَرْضِكَ طايِع وعبد الجبار، يوم غوني وإلا روني وإلا محمد، وإلا عتبار لو قرندل، لَكْ أنت بعرضي شخصية عجيبة، أنت رهيب، والله رهيب وفعلاً فطحل زمانك.

وضحك الجميع متطلعين إلى شاشة التلفاز بانتباه بينما راح كرش السمين يهتز بقهقهاته وعيناه الزائغتان تبدوان أكثر صغراً مما زاد من حجم أنفه الكبير!

قال الثاني كريم الأسود، كان ضعيفاً شاحب الوجه، يبدو عليه المرض والإرهاق:

- هذا طول عمره يدور شغلات فارغة ما بها حظ، حياته كلها كلاوات.
عَلَّقَ جليس ثالث، باسم الوجه أبيضه، يتحدث باللهجة الشامية:
- بالمناسبة شو معنى كلاوات، عن جَدِّ سمعتها كثير من رفقاته العراقيين.

ضحك الجميع، سُمعت ردود مختلفة، أجابه الثالث:

- يعني (احتيال)، لكن اصلها عرقجين أو طاقة مثل مال اليهود بس شوية أكبر منه يحطوه على الراس.

ضحك الشامى، قال متسائلاً:

- والعرقجين شو هذا خيو.

شرح له الجليس الرابع بهدوء:

- مثل الطاقة اللي توضع على الراس، والقصد هنا أنه يدور قضايا مو مضبوطة فيها غش وكذب، وإحنه عندنا مثل يقول: اللي يعيش بالحيلة يموت بالفقر، وراح تشوفون إشلون يصير مصيره لأنه بدأ يلعب بالنار وبشغلات كبار أكبر من حجمه بكثير.

- قال الخامس مدخناً سيجارته، وهو يرتب من وضع نظارته قليلاً،

متطلعاً إلى الشامي موجهاً حديثه إليه بالذات بلباقة المثقفين:

- شوف كلاواته هذا المحتال، مثلاً هو يقول حالياً كلام حق أريد به باطل، كلامه صحيح وممكن أكو عراقيين يتفقون وإياه لكن نيته باطلة وهو ما له علاقة بهذه الأمور لأن إحنه نعرفه حق المعرفة واحد فارغ وكذاب وطفيلي (كلاوچي)، بالمناسبة كلاوچي من كلمة كلاوات يعني يلبس الآخرين كلاوات، يعني يضحك عليهم، يقال في زمن الدولة العثمانية كل شخص تبعية فارسية لازم يحط كلاو على رأسه حتى يميّزوه عن الأتراك وما ياخذوه للجهة لأنهم غير خاضعين للخدمة، فصار الناس يغشّون ويحطّون كلاوات على رؤوسهم، ويجوز كانوا يقصدون بها اليهود لأنهم يُسمّون طاقياتهم تقريباً بنفس الاسم، شوف الآن صاحبنا بدأ يستغلّ المواقف، كل يوم يقدم نفسه بصفة معينة، يوم يقول إنه ممثل البرلمان الوطني العراقي في الخارج ومرة يدعي إنه ممثل حزب الأمة في الشمال الأوروبي وإلخ من الترهات.

ضحك الجميع ساخرين منه أعقبهم السمين قائلاً بسُخْرِيته المعهودة:

- بابا إشبيكم أنتم مهتمين به؟ الرّجال الّلي يعبّي بالسكّة رقي: كلاوچي، تافه، أجوف، فارغ، فطحل زمانه، كذاب، شترديدون سمّوه، المهم هو يأخذ الشيء الّلي يريد، الله يوفقه، يا معودين الباقيين ترّه مو أحسن منه، قبل كم يوم شفت واحد يقول لي "خلينا نرجع للعراق ونعرف بالفلوس، لعدّ بس هُمّه، إحنه همّ لازم نأخذ حصتنا، سألتّه من أنتم؟ قال لي: إحنه العراقيين الّلي عايشين بالخارج، المعارضة، قلت له: أنت إشوّقت صرت بالمعارضة؟ طول عمرك كنت تشغلّ موظف بالعراق وذاك اليوم طلعت من البلد، عمرك ما سألت لا على السياسة ولا على واحد، قال لي: هسه أنت شكو د تقطع رزقنا، خلينا ندبر أمورنا، قلت له: إي والله والنبي محمد كل العراقيين صاروا كذابين وكلاوچيه ورزق

البزازين على المعثرات.

و غرق الجميع في الضحك بينما قاطع ضحكاتهم الشامي متسائلاً:

- لك شو هالحكي يا أبو زكي؟ شو هالكلام الما مفهوم يا عراقيين؟ شو يعني سِكَلَّة رَقِي والبزازين شو هاي يعني؟ والله ما فاهم عليك.

وازدادت فهقهات الآخرين معلقين بعفوية مقاطعين بعضهم بعضاً بينما كان الشامي يلتفت إلى هذا وذاك مبتسماً كعادته، قال أحدهم: "هاي أنت ينراد لك معلم لهجة عراقية" بينما قال آخر: "سكَلَّة مكان يعبّون أو يعبّون فيه، يعني يحطّون بيه البطيخ الأحمر وهذا يعني الشاطر هو اللّي يحصل على مراده، اللّي يحقق هدفه والغاية تبرّر الوسيلة"، علّق آخر متشجعاً "والبزازين يعني القبط، تمشي تبحث عن أكل، وأي شيء تعثر به بالصدفة يكون طعام تاكله، وهذا صاحبنا رزقه على الأشياء اللّي يلقيها بلا تعب".

رَدَّ الشامي بشيء من العتاب والجديّة والأسى:

- لك هذا كيف يسمي نفسه عراقي؟ أنا عن جد كثير متألم لأن العراقيين اللّي عرفتهم وشفتهم قبضايات ورجال أبطال، لك أنتم شو صاير لكم العراقيين عمّ تبيعوا وطنكم بلاش، صدقوني يا شباب هذا كله مش مضبوط وما بتصدقوا بوعود الأمريكان، شوفوا اللبنانيين شو عملوا فيهم لما دخلوا على لبنان، لفتوهم درس ما بينسوه طول عمرهم وهذا اللّي راح يصير بالعراق لما يدخل الأمريكان.

قاطعوه كلهم مرة واحدة، كان السمين يمسك سيجارته واضعاً يده على ركبته اليمنى متطلعاً إلى الشامي بتعاطف وألم لا يقوي على الكلام الكثير غير الاختصار: "ولو، القضية مو بها لدرجه"، بينما قال كريم الأسود، صاحب الوجه: "ومنّ قال لك إحنه نبيع الوطن؟ هَسّه تشوف إشلون النتائج تصوير وخيمة؟" وعقّب آخر: "أخي العراقيين ما يريدون يدافعوا عن صدام، بسّ ما يتخلوا عن بلدهم، لا تصدق

بمبالغات الإعلام الأمريكي".

قاطعهم الشامي:

- والله يا جماعة سامحوني، المعارضة العراقية الحالية أنا عندي ما بتسوه شيء لأنها حطت إيدها بيد الأمريكان.

قاطعها السمين قائلاً:

- ليش هُمّ الأمريكان من أين راح يهجمون على العراق؟ من المريخ؟ أكيد من الدول المجاورة وبمباركتها وحتى إيران، بابا أنت إيش تحكي؟ ليش الأمريكان إذا يريدون احتلال العراق يطلبون تأشيرة من المعارضة العراقية لو الدول العربية، لو يترجّون هذا الفطحل الأبلّة اللي يطلع بالتلفزيون ممثل البرلمان العراقي، أي برلمان هذا؟ هذه مجرد دكاكين وأسماء فارغة.

قال ذلك مشيراً إلى التلفاز بيده وكانت السجّارة بين أصابعه المنتفخة، بينما نهض الشامي قائلاً "يَلّه شباب أستودعكم"، تشجع الآخرون هم أيضاً لينهضوا مودّعين بعضهم بعضاً.

كان الجو السائد في أوساط المسلمين والعرب محبطاً ومأساوياً باستثناء قسم من العراقيين ممّن استبشروا خيراً، لكن الغصة لتقهقر الجيش العراقي وعدم مقاومة بغداد كانت كبيرة لا توصف وازدادت عندما عبرت الدبابة الأمريكية الجسر العراقي.

كان الفطحل يجلس في مطعم شاورما متطلعاً إلى التلفاز، كانت هناك محطة فضائية عربية تبث أخباراً مناوئة للأمريكان، تطلع إلى الشائشة: خبر عاجل، خبر عن سقوط التمثال وظهور مجموعة من المتظاهرين المؤيدين في ساحة الفردوس، عبثاً حاول الفطحل وهو يقضم ساندويجة الشاورما أن يتذكر ساحة الفردوس، كاد أن يطير من الفرحة لهذه الأخبار، تمتّم بين نفسه "كلب، حقير، دمرّ البلد بالحروب" بينما صار يسمع تعليقات بعض الجالسين باللغة العربية قال أحدهم:

"كل السبب من الدكتاتورية"، وقال آخر: "كلب ابن الكلب، رفض كل شيء وتالي متالي طلع فارغ ما عنده كل قوة"، وعلق آخر: "هذا متأمر، متفق مع الأمريكان"، وقال آخر باللهجة اللبنانية: "هذا كله ما يضبط مع الأمريكان هَلْه تشوفوا شو يصير بهم لما يدخلوا العراق، حتى لُو عندهم نية بناء العراق شعبنا ما بيخليهم، هيك حصل عندنا في لبنان"، وعلق آخر باللهجة المصرية:

"آه طبعاً، إزاي يخلوهم يخرّبوا العراق، دُول مِش حَيِينوا العراق، دُول حيسرقوه، أنت فاكهم عبيط بينوا العراق، وليه حيينوه؟ على سواد عيوننا إينه العرب، دول يهود حاقدين على قوة الشعب العراقي"، بينما علق آخر باللهجة العراقية: "أخوان أنتم ما تعرفون إشصار بالعراقيين في فترة الحصار، وقبلها حرب إيران ثماني سنوات، الشعب تعب وهلك، وهذا صدام طاغية قتل حتى أقرباءه، ويَنّم أحفاده، هو في النهاية شيطان صغير أما أمريكا هي الشيطان الأكبر وخَاصت العراقيين منه، أيده الآخرون مرددين: معلوم، معلوم، بينما كَرَّر المصري قائلاً: معلوم، معلوم مضيئاً: "بَس مِش عشان سواد عيون العراقيين، ده مصير كل طاغية، لكن إينه لازم نفرق بين الحاكم المستبد والوطن، صدام سقط أهُو قدامنه، نشوف الصنم يسقط لكن العراق باقي والشعب باقي وحنشوف مين اللّي يضحك الآخر". قال آخر باللهجة السورية: "هَلْه تشوفوا شو حَتعمل فيهم المقاومة، إمبارح حكيت مع أهلي بالاتفون، عَمّ بيقولوا الشباب العرب كلن دخلوا على العراق، راح تصير دم والأمريكان سقطوا بالوحل العراقي، هَلْه بتشوفوا"، كان كَث الشعر، واسع العينين يتكلم بثقة عالية بالنفس.

كان يبدو على الفطحل أنه عموماً مرتاح وغير مبال لتعليقات هؤلاء العرب لهم كثيراً، دفع ثمن الشاورما وخرج متجهاً إلى مسكنه.

كانت زوجته البولونية مستلقية على فراشها تقرأ بعض المجلات،

بعد أن تناولت فطورَها، استيقظ الفطحل في هذا اليوم ليس كعادته مبكراً كأنه بدأ يستعد لأمر استجبت، قال لها بعد أن تناول فطوره ولبس ملبسه، بلغة مليئة بالإشارات والتمتمة:

- آي تومورا فوق (قالها مشيراً بيده إلى الأعلى) إراك، إراك، يو هَيْر، أوكي، أوكي؟

- أوكي!

رَن الهاتف.

- ألو، آني حاضر، اشتريت التذكرة، بعد كم ساعة أجيكم، كلها ساعات وتطلع طيارتي من هنا إلى الكويت، راح تلتقون بي هناك؟ طيب؟

- وضع السماعه مبتسماً، لا يصدق ما سيقدم عليه، متطلعاً في أرجاء صالته و ثم استمر يكلم البولونية: مشيراً إلى غرفته والمفتاح:

- هذه الغرفة، ها، قفلتها، أنت تستعملين الصالة والغرفة الثانية، أرجوك لا تفتحيها، أوكي؟ أوكي؟ الرسائل، تحفظيها هنا.

قالها مشيراً إلى صندوق كارتون مستطيل الشكل.

- أوكي، أوكي؟ مع السلامة، سأتصل بك على رقم الموبايل وسأعطيك رقم موبايلي الجديد، موبايل أمريكي!

ودّعها الفطحل محتضناً إياها، ثم خرج من باب شقته يدفع حقيبة سفره بعد أن تأكد من جوازه وتذكرته وأوراقه الأخرى التي يحملها في حقيبة أخرى صغيرة.

صار الفطحل كثيرَ الحضور في المحطات الفضائية، وأصبح يرتدي البدلات الأنيقة للغاية وأربطة العنق المورّدة، المزركشة، ذات الألوان المتنوعة كالأحمر والأرجواني، غالباً ما كان يظهر حليق الذقن مصفف الشعر سبله ويبدو مزيّناً، أصبح وجهه أكبر أو أسمن وبدت وجنتاه متوردتين رغم سمار بشرته، وأن العز بدأ واضحاً على

ملامح وجهه، قَدَّمَهُ المذيعُ باسم آخر غير الذي اعتادوا عليه سابقاً حيث أصبح اسمه وتُأب عنبر الناطق الرسمي لحزب البرلمان العراقي، تحدث في البداية قليلاً عن حياته وقال إن والده أسماه وتُأبا تيمناً بالوثبة، وكان مقدّم البرنامج الرجل الكبير في السن ذو الخبرة الإعلامية الواسعة يبدو عليه أنه لا يثق بهذه الادعاءات، ينظر إليه بريية من طرف عينيه، قاطعه مبتسماً:

- لكن يا دكتور وتُأب هناك من يقول إن هذا ليس اسمك الحقيقي، يُقال إن اسمك الأصلي: طايح أو طايح، بل إنه عبد الجبار وهو الاسم الذي استخدمته مؤخراً قبل السقوط.

- في الحقيقة كلّ الأسماء الأخرى لم تكن حقيقية في فترة الاختفاء، وبالمناسبة أني أستغرب لهذا الاهتمام بالسما عفواً أقصد بالأسماء، ولنفترض أني غيرت اسمي ما دخل الآخرين بالأمر أليست هي قضية شخصية.

- حدثنا قليلاً عن حياتك الشخصية.

- أنا عراقي مقيم في المنفى وهربت كأخوتي العراقيين الآخرين إلى المنفى حيث أقيمت فيه ومن هناك لم أنقطع عن التحريض لإسقاط الطاغية وأنا صحيح متزوج من امرأة أجنبية لكنها تحب العراق وتجيد الطبخ العراقي مثل الدولمة والمحشي وتحب كل شيء له صلة بالعراق، وأنني حصلت على الدكتوراه في الإعلام وعندي شهادات أخرى وجوائز.

- ما هي مخططات المستقبل، كيف ستعاملون مع الوضع الجديد؟

- سنحاسب كلّ من اقترف الجرائم في زمن الدكتاتور وسنجنث كلّ من سؤلت له نفسه إبان عهد الطاغية وسنقتص من المفسدين والفاستين ولا مكان لغير الديموقراطيين في العراق الجديد، وأنا أدعو من برنامجك الرائع هذا كل العراقيين الأكاديميين وأصحاب

الشهادات العليا أن يعودوا إلى عراقهم الجديد وسنهتم بهم ونجد أعمالاً تليق بهم فبلدهم أحوج إليهم من الدول الأخرى التي يقيمون فيها، ويمكنهم الاتصال هاتفياً بي مباشرةً وأنا سأتركه عندك لتعطيه إلى أي شخص عراقي يتصل بك.

- طيب شكراً لك أستاذ وثأب والآن لو سمحت جاءتنا مكالمة هاتفية من أحد المشاهدين.

- ألو، السلام عليكم، والله الكلام حلو والمثل يقول اسمعك أصدقك، أشوفك أكذبك، وشكراً على كلام الدكتور ضيفك، لكن بصراحة انت أستاذ مقدم البرنامج رجل محترم ونحن نشكرك، إشلون تسمح لنفسك وتستضيف مثل هذا الصعلوك الكذاب اللي يعتقد أنه فعلاً عنده سلطة؟

- لا، لا، يا أختي المشاهدين هذا أسلوب غير صحيح ونحن قلنا نقطع مكالمة كل من يتجاوز حدود اللياقة، بالمناسبة دكتور ما هو رأيك بهذه التساؤلات؟ أنا في الحقيقة وردتني أسئلة تقول إنك استخدمت أسماءً مختلفة ونشرت بعض الكتب فما هي قصتها لو تفصل قليلاً؟

- كما قلت لك سابقاً أنا عشت في مختلف البلدان واضطرت إلى الاختفاء والتكرار وتغيير الأسماء وبعض المرات طواعية ومرات أخرى الناس المحببون هم الذين أسموني على سبيل المثال في فترة من الفترات صار بعض أصحابي يسموني عتبار وقرندل وهما اسمان لم يطولا كثيراً وبعدها أسموني روني وكان حرف الراء يلفظ غاءً فكانوا يدعوني غوني لكني عندما دخلت هذا البلد لغرض اللجوء بجواز مزور وكان اسمي فيه محمد ومرة أخرى عبد الجبار لكن اسمي الحقيقي هو وثأب وبالمناسبة آني أدعو المتصل قليل اللياقة ولا أقول الأدب أن يتصل بي كي أجد له عملاً في بلاده بدلاً من التسكع في الخارج كما يبدو عليه يقيم هناك.

- هل تعرفه شخصياً من نبرة كلامه وصوته.

- هذا غير مهم، أتمنى له الخير وليكف عن حسد الآخرين، هؤلاء لا يحبون الناجحين.

كانت الإشلة تجلس هذه المرة أيضاً عند عدنان السمين، الذي قال مبتسماً كعادته:

- شفتم المقابلات ويا صاحبنا الفطحل وثأب، الناطق الرسمي باسم البرلمان الوطني العراقي؟
قاطعته الثاني، صديقه الضعيف كريم الأسود.

- بالله عليكم إشلون يتجرأ هذا الصعلوك على هذا الكذب، يعني فعلاً لو قالوا: اكذب، اكذب حتى يصدقك الآخرون! صار دكتور واسمه وثأب، على أساس تيمناً بوثبة كانون 1948.
قاطعته الثالث:

- هذه مو أول مقابلة، وهو فعلاً طلع أكثر من مرة، لا تستهينوا به، ثرّه هو وصل وصار يحكي بلغة نحن والظاهر عندهم سلطة، لكن بالمناسبة صار مدة ما أشوفه وانقطع عن الإعلام.
قال الرابع:

- أنتم فعلاً معلوماتكم قديمة، هذه مقابلات قديمة، الظاهر أنتم ما سمعتم باللي صار له، ومصيره وقصته الأخيرة!
قال السمين:

- إي والله بالله آني صار لي فترة ما اسمع عنه أي شيء، شنو قصته بالله عليك، انت تعرفها؟
وتابع الرابع متشجعاً شاعراً كما لو أن صاحبه السمين أعطاه الفرصة ليكمل حديثه:

- إي معلوم، آني سمعت الناس يقولون إنه خبط له خبطة كبيرة

وتورط، الأمريكان شالوه وحطّوه بأبو ز عبل، والله صحيح هذه القصة عندي من مصادر موثوقة، سمعتها من اللي جابه أصلاً لهذه المجموعة، أعرفه شخصياً وهو حكالي القصة، المهم يُقال إنّه اتصلَ بزوجته هذه البولونية وهي حامل وتريد تولد واتصلَ بالسفارة البولونية وحكومتهم، وهذوله البولون توسطوا له عند الأمريكان وأطلقوا سراحه بسّ قالوا لزوجته: هذا زوجك تعالي وأخذه، بسّ بعد لا تخلّيه يجي هنا أبد، فعلاً أخذته وراحت به إلى بولونيا وهسّهُ هو بالمناسبة لحد الآن خاتل، مختبئ هناك عندها هذه البولونية، والله طلعت أصيلة وأشرف منه، يقولون بمدينة أو قرية بولونية صغيرة.

قاطعهُ الخامس باقتضاب ولكن بثقة عالية بالنفس:

- أنا سمعت أنه هرب من العراق إلى الأردن ومن هناك سافر إلى بولونيا، وهذه القصة فعلاً حقيقية وصحيحة، فعلاً هو ما طلع على التفازيون صار له مدة.

وأصرَّ الرابع صاحبُ الرواية الأولى على صحتها:

- مثل ما حكيت لكم القصة، هذه هي الحقيقة وهو حالياً في بولونيا وحتى سمعت أنه متورط مع البولون بقضية اختلاس وصفقة السلاح البولونية، هذا مصير كل هذوله الدجالين والسطحيين، والتاريخ راح يلفظهم ويسميهم خونة لا أكثر ولا أقل، ولا تتصوروا أن الأمريكان يعطوهم سلطة، أبد، هسّهُ تشوفون إشلون يخلوهم يقتلوا بعض، فرّق تسد عيني، هاي قصص معروفة من التاريخ.

بدأ الخامس حديثه محاولاً جهده عرض قصته بمصداقية عالية، كان يتحدث ويجول بناظره إلى جلسائه، وكان وجهه تبدو عليه

السماحة والهدوء والثقة العالية بالنفس، كان واسع العينين سوداوين، حاجبان كثان وشفتان ورديتان، تبدو عليه علائم الثقافة والقراءة من خلال نظارته الطبية الأنيقة، كان يتحدث زاماً شفتيه بين حين وآخر وكأنه يجلس في مقابلة رسمية.

- والله أنتم كلكم تعرفوني، آني حذر من الأقاويل وما أتناول سير الناس الشخصية، آني بصراحة استفسرت وسمعت عنه قصصاً مختلفة، هذا يا سيدي يقال عنه إن الأمريكيان ضجروا منه لأنه باختصار صار فعلاً يتصور نفسه عنده سلطة، وهو بطبيعته دبق ويتجاوز حدوده، ما يعرف يتصرف، يعني بالعراقي ما يتطه عين، والظاهر اشتكوا منه لأنه اختلس مبلغ مال بدون ما يشارك الآخرين ويّاه لأنه ما يعرف أصول اللعب، لا ومو بس هاي، صار بعد يحكي بلسان طويل بالثوريات والصدق والإخلاص، الأمريكيان حطوه بأبو ز عبل مثلما قال صديقنا، توسّط له البولون وطلعوه من السجن، لكن عصابة مسلحة وخطفته وطلبوا بفدية 100 ألف دولار، ما دفعها ولا واحد رغم محاولات زوجته من خلال بلدها بولونيا، والله والحق يقال طلعت فعلاً إنسانة آدمية وأصيلة، لكن بدون جدوى ويقال العصابة اعتدوا عليه وباعوه لمجموعة أخرى طالبت بفدية بسّ هذه المرة اعتدوا عليه وصوّروه وحذروه وقالوا له: إذا نشوفك مرّة ثانية في العراق ننشر الفيلم ونفضحك، ويقال إنه الآن مختفٍ في قرية بولونية يعيش هو وزوجته وطفلهما الصغير.

تابع الجليس الرابع قائلاً كأنه يؤكد صحة رواية الخامس:

- والله آني شفت أحد المواقع يصور اعتداء أحدهم، بسّ بصراحة ما أذكر إذا كانوا كتبوا اسمه أو لا.

حَتَمَ السَّمِينُ الْحَدِيثَ قَائِلاً:

- كلها قصص لا نعرف صحتها لكن هذا مصير الهوائيين والفارغين
والكذابين، والمثل العراقي يقول اللي يعيش بالحيلة يموت بالفقر.

الدنمرك 2003-2006

زهير ياسين شليبه
آخر قصة قصيرة عن مصير الفطحل:

الفطحل في مغامرة بصراوية*



كان الفطحل يرتدي سترةً فوق دشداشةٍ بألوانٍ مبهرجة مزرکشة كأنه قرقوز !
قد تكون سترته "مقفلّة" لكنها تبدو ملطخة، متسخة، بل قدرة! أو رمادية اللون عند التمعن ببقايا لونها الأساسي، تختلط الألوان هنا، القرمزي والأصفر والبنفسجي، مؤطرةً بخيطٍ أخضر رفيع. دشداشته البيجية لم يبقَ من لونها الأصلي شيء يُرى بالعين المجردة، فضفاضةً، متهرئةً .

صارت ملابسه خارطةً بفعل آثار الزيوت والسوائل وفضلات البهائم. الغريب، إنّ الدشداشة أيضاً تبدو فيها خطوط خضراء دقيقة تلمع في بعض الأماكن كأنها في الأصل سلك حريري لتكتمل صورة الفطحل كمهرج يسخر منه الآخرون .

كان الفطحل يتذكر وجوه بعض أعضاء عصابة، "عَلسته" كما يُقال في هذه الأيام، وحسب المعلومات القادمة لنا من حبيبتنا المنكوبة بغداد .

و"العلس"، وما أدراك ما العلس، مصطلح جديد كما يبدو يُطلق على أي مختطف أو بالأحرى مختطف تبيعه العصابة الخاطفة إلى نظيراتها الأخرى، يعني إلى "زملائهم" في المهنة والعمل، بزنيس! ليش لا؟ كل شيء مباح في البلد المستباح! كل ما تريد ممكن في العراق الجديد، ذي الدم المراق، المحرر من قبل الرفاق، كاوبوي النفاق .

تذكّر الفطحل المسكين كيف قال له مرّة أحد التافهين "العلاسة"، ويبدو من هيئته ونظراته ولسانه أنه من أولاد الشوارع :

- لك أعور العين ابن النعال! زمال ابن الزمال!
أخ ال... أنعل ابوك يا بو الجابك علينا هنا، هالمره كسرنا شرفك ون ... وصورنا كل شي بفيلم، دير بالك، جسك عينك ترجع هنا، روح لبولونيا، يقولون مرّتك البولونية توسلت بربعنا وراح يدفعون فلوس حتى نطلق سراحك .
دير بالك وترجع للعراق بعد!
طبعا لا يمكن نقل كلّ مفردات هذا المجرم بحذافيرها،
قبيحة يندى لها الجبين !

لكن صاحبنا الفطحل غاسل وجهه ببوله! كعادته لم يُصنع كلام أصحابه ونصائحهم، يُشاع، وحسب روايات المقربين منه طبعا، لم يُطق الغربة هناك وإهمال زوجته البولونية له، يقال إنها رمت ملابسه أمام سكان البناية البولونيين ساخرة:

- فينوخا زمويغو دومو تي برودني آربوسه، مام
جي دوشج، زامينجيويش منيه، يوش نبي مويو فاس
زنوشج دووشي، هيبوكريسي، نيغوسي، كوامتسي،
فينوخه زووجيو ز بغدادو ! يعني بالعراقي الفصيح:
(اطلع من بيتي ايها العربي القدر، انا تعبت منك، لا أقدر
بعد على تحملكم، منافقون، أفاقون، كذابون، اطلع حرامي
بغداد!) **

لم يتحمل الفطحلُ بردَ بولونيا وصعوبةَ لغتها الغريبة عليه
وإهانات زوجته وتهكمها المتواصل به، وأغرته حياة
"الجاه والسلطة"، تصوّرَ نفسه أنه يتمتّع بها في بلده
العراق، كما كان يسميه بدلاً من العراق .
صحيح أن أهله قطعوا اتصالاتهم به وتتكروا له خوفاً من
"الإبادة الجماعية"، نعم، كان يمكن أن يتعرضوا لها
بسبب حبه للظهور في برامج بعض المحطات التلفزيونية
والتباهي والادعاءات وإصدار التهديدات والتحذيرات
والإنذارات هنا وهناك مؤشراً بسببته متهماً كل
معارضيه الاحتلال الأميركي بالإرهاب والتكفير، كما
فعل في بداية السطو متصوراً نفسه بأنه يملك سلطة
حقيقية في البلد، إلا أنه اقتنَع أخيراً بتحذير أحد
"السياسيين" من القادة الجدد واستجاب لإغرائه بأن يسافرَ
معه لفترة قد تطول إلى بولونيا كعضو في وفده. وكان
للفطحل ذلك، وصار يخدمه خير خدمة ويوفر له
السندرات الجميلات لاسيما أن زوجته تقبلته على
مضض أو ببرود في البداية، لكن الأمور تغيرت من
سيء إلى أسوء إلى أن ضاقت به ذرعاً، وساءت أحواله .

عاد الفطحلُ إلى بلده متصوراً أنّ جيّبه المليء
بالدولارات سيُجلب له الجاه والاحترام. اتّصلَ بوالدته،
قالت له نائحةً في الحال :

- يُمّه الله يخليك ارجعْ لا تبَقَ هنا، ما إلّك مكان هنا
بديرتنا، العراق صعب، الناس هنا مو سهلين، قبل
كان عندنا حصار وكنا فقراء، وصدّام فَرَك
خشومنا! هسه تغيّرت أحوال الناس، دخل
الأميركان وصدّام راح! قبل كم سنة، كان أي
واحد يقدر يضحك عليهم، يقشمرهم بورقه
وورقتين، مستعدين يقتلون ابوهم ويفجّرون بناية
إذا تدفع لهم ورقة، يعني ١٠٠ دونار امريكي!
هسه صاروا يطلبون الملايين!! صار عندنا ألف
صدّام! ابني! بعد من يقدر يگّمهم هذول
العراقيين، صايرين نار كبره، يمّه! لا تتّصلَ بينا،
تره كلهم انقتلوا بسببك، انتقلنا لغير مكان بسببك،
ما نريدك بعد هنا، خليك بعيد وسعيد .

وصار الفطحل الإنسان المسالم يبكي ويلقي شعراً :

بصقة إثر بصقه
على البلد العاق!
بصقة على تلك الصفقه!
الكذب والنفاق!
يخيرونك بين الآلام
والنعيم
نحن لها رغم النعاق

في البراري نهيم
بالعناق
وفي الوديان والصحاري نقيم
والبلد المعاق
حتى نقض مضاجع الإرهابي اللئيم !

اتَّصَلَ الفطحل بأحد محرّري الصحف الجديدة المدعومة
من لوردات الحرب والأمريكان، لا يقرأها أحد، قال له:
- عندي قصيده عن الإرهابيين أريدك أن تنشرها .

نُشرت القصيدةُ العصماء في اليوم الثاني مع صورته
الكبيرة وهو يوشّر بإصبعه قائلاً:

- لا مكان للإرهابيين في بلاد الموسويّاتاميين!
اخرجوا من بلاد الرافدين!

لكن يا خسارة "ماعمرت الحاره"، بعدها بأيام وَجَدَ
الفطحلُ نفسه في صريفةٍ وزربيةٍ مليئةٍ بالقاذورات
والدواب وجها لوجه مع مجموعة من العتاة أولاد
الشوارع السفلة يوجّهون له أقذع الإهانات والازدراءات
"أمداك! ما تجوز من سوافك؟! راح تبقى هنا، هذا
مكانك، حالك حال الغنم إلى أن تجينا الفلوس .

مَسَكُهُ "الضابط" كما يسمونه، من زيّق دشداشته الممزقة
المتهدلة هازاً جسده، سقطَ شماغه القذر :

-اسمع، انت الظاهر كل شيء ما يفيد وياك، المرّه
السابقه بترنا لسانك، المرّه الجايّه نقطعه كله ونكسر
رجلك وناخذك نجدّي بيك، بس نقتلك؟ لا، مستحيل، لازم
نخليك على هالحال الى أن نستلم الفدية، طلبنا 100 ألف

دولار! وإلا نخلي حتى الدواب تن... وياكلك الدود وتموت، يَلّه، قُمْ من مكانك، تحرك! كان أفراد الحماية يقهقهون بوجودهم القاسية المشوهة قائلين بأصوات عالية كأنهم دمي أو ببغاوات متأرجحة يهزون رؤوسهم "أحسنت سيدي! عاشت إيدك سيدي!" كلما سنحت لهم الفرصة، لكن سيدهم أدار وجهه إليهم، كما يبدو مشمئزاً صارخاً بهم:

- كم مرّه قلت لكم ما تضحكون لما أتكم؟ بهائم!
- عفواً سيدي! قالوا بصوت واحد
- انصرف! روحوا شوفوا شغلكم! خلّوني أدخّن!
- جلسَ زعيمهم على كرسي متحرك قديم، لكنه لا يزال مريحاً، يبدو أنه من مخلفات "الحواسم" مسروق من مؤسسات الدولة بعد السطو الأمريكي على العراق، لم يستطع الضابط أن يمنع ابتسامه صغيرةً أن تظهر من بين شاربين منسدلين على شفثيه عندما جاء أفراد حمايته واحداً تلو الآخر يسألونه "سيدي! سيدي! محتاج شيء؟"، أخذهم قال له "سيدي، عفواً ضحكنا شوّيه لما كنت تتكلم مع هذا الجرو!" أشار لهم بيده أن يغربوا عن وجهه. قرّر الضابط أن يسترخي قليلاً بعد أن تركوه لوحده حتى غلبه النعاس.

- لك وين رحنت؟ ابن الق... ليش خلّيت الدواب تسرح

وحدها، آني كم مره قلت لك ما تتركها! جراب ابن

الجراب! يَلّه قُمْ!

بهذه الكلمات خاطبَ "الضابطُ" المتسلطُ صاحبنا الفطحلَ
بينما كان زبانيئُهُ أفرادُ "حمايته" يقفون وراءه بوجه
عابسة يتلفتون يمينا ويسارا. ما كان من الفطحل إلا أن
نهض قائلاً كأنه يتمتم بلسانه الألتغ محاولاً استرضاء
عنجهية هذا القائد :

- شمعاً وتاعاً، شمعاً وتاعاً، شَيّدي (يقصد سمعاً
وطاعةً)

مَسْكُهُ الضابط هذه المرّة من "خوانيقه" وهو يدفعه إلى
الوراء :

- جِسِّك، عينك، تروح بعيد من هذا المكان، مفهوم !
وصرخَ به بصوت عالٍ وبكل ما أوتي من قوة بلسان
سليط والرذاذ يتطاير من فَمِهِ:

- يَلِّه! فوت منّا! دير بالك عالحوال! وخر من قدامي!

- أمرك شَيّدي، الله يخليك لا تخنقني، آني إيشنويّت؟
آني ماقتلت ولا ضربت أحد، والله آني مشكين والله
مشكين !

وانهارَ الفطحلُ في البكاء بينما راح "يَهشُّ وَيَبشُّ" الدواب
يركض وراءهم و"حادهم" نحو الحظيره. وبقي هناك
خائفا مذعوراً من نظراتِ الحراس يبخلقون فيه ساخرين
منه .

أشار "الزعيم" إلى حارسين طويلي القامة أن يأتيا اليه،
وراح يهمس بإذنيهما، يبدو أن أحدهما تململ، قال له
بصوت خافت معاتباً متوسلاً به بخنوع "سيدي والله
صعب عليّ، ماد أقدر، ريحته تعط، ماتقلي إشلون أسوي
هاي الشغله؟". رد عليه الضابط " لك كلب ابن الكلب،

تريدني أسويلك اجواء شاعريه؟ هذا شغل أني جبتك من
الرعيان وسويتك حمايتي، بعد شتريد؟ أحسن أرجعك
للحلال؟ تريد أخليك تسرح بالغنم؟ كلب!" ردّ الحارس
مطأطأ الرأس:

- أمرك سيدي، اللي تريده يصير .

بدت علائم الارتياح على وجه قائدهم "الضابط"، بينما
أمر الحارس الثالث أن يصور كل شيء بكامرته
الصغيرة .

وجلس حاكمهم الأوحد على أحد الكراسي يدخن سيجارته
مستمعاً لصراخ الفطحل وتأوهاتة وبكائه وأنيبه
بهستيرية .

كان الفطحل يجلس لوحده يعاني من الجوع حائراً بين
تنظيف الدم من ملابسه والقدارة، أراد أن يأكل كسرة
خبز إلا أن شهيته كانت مسدودة، وصار ينحب ويصرخ
ويأن باكياً مغمماً يلفظ الكاف تاءً والقاف دالاً والراء
والذال لاماً ومن لا يعرف حاله لا يفهم من كلامه شيئاً،
لكن اللبيب تكفيه الإشارة:

"لج يمه ليش عفتيني؟ وينكم أهلي؟ أهل الحمولة؟ مو
آني تنت داعد ببولونيا، ليش لجعت مله تانيه لهالبلد،
هلولة قتالين قتله، مدرمين (محرمين)، تلهم مدرمين
البولون حكراء والعراقيين مدرمين .

وكان لسان حاله يقول "يا ريت لو أقطع لساني كله وأفقس
عيني الثانيه كي ابدو أبكم وأعمى، فالى متى سأتحمل هذه
الحياة المملة، ياليتني أعود الى القرية البولونية وأتصالح
مع زوجتي، لكن إشلون؟ إشلون؟ فانا اليوم لا جواز سفر

ولا هويه، منعزل بهذا البستان، لا أعرف مكانه، يقولون إنه في أطراف البصره، وأخدم هؤلاء الساقطين شذاذ الأفاق الذين يهددونني بأن يسلموني إلى عصابة أخرى أو المجهول، لكنهم يعدوني بأن يطلقوا سراحي إذا استلموا الفدية، وبعدين يهربوني الى الكويت لكنهم لم يفوا بوعودهم، "ماكو شيء، لا فدية ولا هم يحزنون، ولهذا "ضباطهم" السرسرية يعاملوني أسوء معاملهم، أخدمهم بكل شيء لكنهم يشتموني دائماً، يارب ماذا أفعل لهم؟" ويردد بين نفسه مقطعاً من اغنية كانت جدته ترتّمها، مستوحاة من حكاية قديمة عن "أم صنكور"، امرأة عجوز نرجسية متعالية "شايفه نفسها شوفه"، تعشق الدنيا، ذات طموحات ورغبات وأمان وأحلام كبيرة بأن تبقى على قيد الحياة أبد الدهر، كانت تضغط على ابنها صنكور بأن يجد لها مكاناً يعيشون فيه لا يدفنون موتاهم في القبور ! أجل، لم تُرد أم صنكور العجوز أن ترضى بالواقع وأن تكف عن التطلع إلى الأعلى، وأن عليها أن تتعايش مع فكرة الدفن، وأن يكون مصيرها القبر عندما تحين منيتها وتنشب أظفارها كبقية الناس العاديين، وطبعاً لا تريد والدته تقبل هذه المصير أو النهاية أبداً، وتهللت أساريرها وفرحت بالمكان الجديد الذي انتقلت إليه مع ابنها حيث سمعوا أن الموتى لا يدفنون فيه كما أخبروهم، إلا أن النهاية لم تكن سعيدة كما هو الحال في الحكايات الشعبية وكما توقعت هي وابنها طيب القلب وصافي النوايا، وأن المطاف انتهى بها عند أكلي لحوم البشر حيث طبخوها بدلاً من دفنها حسب تقاليد سكان هذه المنطقة الجديدة، عبثاً حاول ابنها صنكور أن يردّهم عن ذلك، لكن سبق

السيف العذل وانتهى الأمر فلا مناص، عندها صار ابنها
يردد متأسفاً باكياً، و الدموع تُرقرق من عينيه، تسيل
منهمرةً "رباع ربا:"
"يا أم صنكور يا أم صنكور
ماردتِ دفن بقبور
أخذي طبخ بقدر !!

أيلول 2006-2009

*تصميم الرسم: الكاتب عدنان المبارك.
**تعليق عدنان المبارك على هذه القصة بعد قراءته لها
في موقع "القصة العراقية": "يبدو أن شخصية
"الفطحل" رواية لمؤلفها زهير ياسين شليبه ألهمتني فكتبْتُ
عنه قصةً ضمَّنتها أشعاراً جديدةً من استلهاماته. وسأروي
ما تبقى من مغامرة الفطحل البصراوية وعموما مغامرة
عودته الى ربوع الوطن".

غوني الملائخ

أشعار فطحية

الإهداء

إلى أولئك الراقدين في مستشفيات المجانين.
إلى أولئك الذين ماتوا ضحايا أحلامهم.
يا مجانين العالم اتحدوا !

القصيدة الأولى

عشرون عاماً،
مَرَّتْ كَلِمَحُ البَصْرِ،
كان شاباً فتياً يافعاً صغيراً
يعشقُ الخيار المملح،
وأنواع المخللات،
والفودكا،
والفتيات الريفيات،
لم يعرف الهزيمة مرةً،
لم يخضُ الحربَ مرةً،
كانت أمُّه شابَّةً،
تركَّته يرحلُ عنها بعيداً بعيداً.

يجوبُ الطرقات،
والمحطات،
والمطارات،
يَرحلُ من مدن صغيرة ضائعة حالمة،
إلى مدن الكوابيس،
فيها العمارات والمتاحف،
والحبُّ والمراقصُ،
والأمطارُ والمعاطفُ،
والمرابعُ الخضراءُ،

يملّّ البنائياتِ والمواعيدَ والإداراتِ والإشاراتِ،
والفتياتِ وزمنَ القنصِ،
والتلوجِ والملاحفِ،
يَرحلُ إلى الجبالِ والوديانِ،
يجتازُ الجزرَ والبحارَ والمحيطاتِ،
يعودُ من مدنٍ جميلةٍ مغلقةٍ بالجليدِ،
إلى مدنٍ رمليةٍ خائبةٍ،
فيها الحرُّ والموتُ والخرابُ،
الخرابُ اليبابُ،
والأسواقُ المحليةُ الشعبيةُ، تتناثرُ فيها الأوراقُ والقاذوراتُ،
والرجالُ الحفاةُ، والنساءُ الفاطساتُ،
حيثُ التجارُ والفجارُ،
والسماسرةُ يعبرونَ الحدودَ البحريةَ والبريةَ،
يخفونَ أغلظَ الأيمانِ ِ وعباراتِ العتابِ،
عن أشياءٍ وهميةٍ،
التاجرُ فاجرٌ حتى يتفقه.

1994

القصيدة الثانية

تسقط الطائرات،

تتفجر الحافلات،

والقطارات،

لم يبقَ غير الجمال،

السُّيَّاح فرحون بها،

والحزن يأكل قلبه،

لهذه العودة،

لهذا العصر

1992 .

القصيدة الثالثة

يَنبهرُ الجميغُ بهؤلاء البيض،
والشقر،
والغيد الحسان،
يركبون الدراجات،
يتحدثون بهدوء المخصيين،
إلا هو،
يرى ما لا يرونه،
يشعر ما لا يشعرونه،
يتكلم عن أمورٍ لا يفقهونها،
يحزن لأشياء لا صنعة لهم بها،
يسمع الأخبار من مصادرها،
ماذا يقول بوش؟
ماذا يقول ميتران؟
ماذا يقول ميجر؟
ماذا يقول غورباتشوف؟
ماذا يقول صدام والملوك والأمراء والرؤساء؟
ماذا يقول الجرس ماذا يقول الجرس؟
احتار لهذا الزحام،
أين يضع نفسه فيه؟
جرّب الصمتَ مراتٍ،
جرّب الموتَ مراتٍ ومراتٍ.

جرّب حباتٍ صغيراتٍ،
كان يأخذها كلما يدق الجرس،
كلما ينشب اليأس أظفاره،
وهل لليأس أظفار؟
هذا غير مهم الآن،
بل المهم هو أن جسده،
كان يئن ويئن،
لكنه كان أقوى،
وكانت سيارة الإسعاف،
أسرع من المنية.

1993

من على سطح القمر

شِعْر على الطريقة الشمالية

مَحْنِي الظهر،
يَجْلِسُ على كنبه في صالة الجلوس المقبرة،
يسمونها الهول أو غرفة الضيوف،
لا بد أنه يشاهد التلفاز،
أراقبه من شباك في ليالي الأرق،
يُنِير أضواءه،
أطفئ مصابحي،
ألمح رأساً أنثوياً هناك،
لا بد أنها امرأة تجلس قربه، على الكنبه الأخرى،
آلاف الكيلو مترات تبعد عنه،
لا تُكَلِّمُهُ بشيء،
لا تَقُولُ له شيئاً،
يَنْظُرُ إليها نظراتٍ مختلفةً،
يَمَلُّ التطلع إليها،
يضجر من حركاتها،
يسأمُ من التلفاز، يَمَلُّ التلفاز،
أراه يتحرك، ينهض كالغول،
كالمارد، المارد الجبار،
يا تُرى إلى أين ذاهب هذا العملاق الغوريلا؟
بعد برهة،
أراه من خلال الشباك الآخر يَفْتَحُ الثلجة،

طبعاً يفتح الثلاجة، فماذا عساه يفتح؟
هل تتوقعه سيفتح أشياءً أخرى لا وجود لها؟
هل سيفتح الأندلس مرة أخرى نيابة عن العرب؟
أم هل سيكتشف أمريكا مرة ثانية نيابة عن كولومبس؟
يقف جنب الثلاجة العالية،
رأسه أعلى منها،
متران وثيق من السنتمرات،
يرفع يده،
يا لها من قامة،
يا لها من عضلات،
يأخذ قنينة صغيرة،
لا بد أنها قنينة جعة،
إذن فهو كان في التواليت،
قبل أن يأتي إلى المطبخ،
يعود إلى قاعدته،
سالماً،
"سالماً منعماً"،
"سالماً منعماً"،
"موطني، موطني"،
والرأس الخنثوي الأنثوي هناك لا يحرك ساكناً،
أية امرأة جبارة هذه؟
أخيراً تنهض،
كأنها تظهر من عمق البحر،

حورية تظهر من البحر ،
تتساقط القطرات على فراش الأرض ،
ينظر إليها بعينين...
يغض النظر ،
يا إلهي ، لِمَ كل هذا الاستفزاز ؟
تظهر بسرعه ،
أراها من خلال الشباك الثاني ،
لا بد أنها في المطبخ ،
لكنها لم تفتح الثلاجة ،
إلى غرفة نومها دون عودة ،
تدخل إلى مخدعها ،
والرجل الفحل ينتظر ،
يبقى جالساً في قاعدته ،
يحرّك يده اليمنى مرة ،
واليسرى مرة أخرى ،
ودوائر الدخان لا ألمحها ،
ملّ الرجل جلسته ،
نهضَ مرة أخرى ،
عسى ولعله يعود بها تلك الجبارة ،
فعاد بقتينة الجعّة ،
أبى أن يرجع بخُفي حُنين
منذ خمسة أعوام ،
وأنا أراقبُ هذين الجبارين ،

المنهارين،
الرافضين السقوط،
يستيقظان في السادسة صباحاً،
يسوقان دراجتيهما،
ويعودان في السادسة،
يكرران نفس المشاهد كما في مأساة يومية شائعة.

1994

رأس الرجاء الصالح

هلوسات الليل

جدي مات قبل عشرين عاماً،
مات وأذنه على " هنا لندن"،
أبي في السبعين،
يعشق الموجات القصار،
سقط بوش، كلينتون يهز بذيله،
أين الوعود لأولئك القروء؟
أمي في الستين، تنتظر وتنتظر،
التحليلات وملفات الأخبار،
وسقوط الجبار،
أختي فوق الأربعين،
ابنها يناديني في الهاتف "خالو"،
صار علي أن أعرف هذه النبيرة،
والأخرى صارت أمماً لولدين،
وأصغرهن مطلقاً لاثنين،
لن تفلت هذه المرّة،
أبي يَلْقُ وَيَلْقُ،
وأنا لَقَلُّ!
أمي تبحثُ وتبحثُ،
ماذا يريد هذان العجوزان؟
جدّتي ما زالت تَحْتَضِرُ وتَحْتَضِرُ،
أبي يأكل بسرعه، بسرعه عجيبة،

يأكل ويتحدث: اليوم التقى أحد أصدقائه وأخذَه بالأحضان ووو

يأكل بَنَّهُم، يا إلهي أي نهم ذلك؟

لستُ بأحسن منه، كلنا سبحنا في النهرين الطافحين،

وشربنا من مياههما.

والأوروبيات الجميلات، والأوروبيون الجميلون يشربون بهدوء،

يتناولون سندويجاتهم وجباتٍ غذائيةً كاملةً،

أين طناجرك يا أختي؟ أين قدورك يا أمي؟

هلاً عرضتموها في معرض الصناعة الثقيلة الدولي؟

جزيرة الواق واق،

ليلة 2-28-1993

عباس المستعجل

أنت تأكلُ بعجلةٍ، مُسرِعٌ دوماً، تُحب بعجلةٍ، تهربُ بعجلةٍ،
أنت عجلةٌ، أنت إطارٌ منفوخٌ، إطارٌ دراجةٍ، دراجةٌ مكسورةٌ،
مكسورةٌ من شدة الريح، ريح الشمال،
تَسخرُ بسرِّعةٍ، تَسْتنتجُ بسرِّعه،
تَسْتَنسخُ بسرِّعةٍ، تَعْمَلُ الواجب بسرِّعة،
تقضي حاجتك بسرِّعة،
طول عمرك مسرع، تعمل كل شيء بسرِّعة،
تَنسى كلَّ شيء بسرِّعة، تَنسى الأماناتِ،

وتنسى أيضاً: "المستعجلُ يُضحكُ حتى الدجاج!" هل رأيت
دجاجةً تضحك؟ نعم! أعرفُ أنك سمعتَ بالبقرة الضاحكة، لكنك لم
تفهم الدجاجة الضاحكة بعد. ألم ترَ الدجاج يسخر منك؟ ها! لم تسمع
بهذا المثل؟

إن، إليك مثلاً آخر، أقوى منه لكنه قبيح وأخشى أن تتهمني
بالسوقية: المستعجل يتغوط مرتين، على أية حال إليك إياه مترجماً إلى
الفصحى: "المستعجل يقضي حاجته مرتين"، ومع ذلك انزعجت من
هذا التعبير أو بالأحرى المثل العراقي الشعبي؟ لكنه مهم لمعرفة
العراقيين! تعتبرني غير مؤدب أو مهذب، أليس كذلك؟ هل تريدني أن
أقول على طريقة الحداثة: المسرع يدخل الدبليوسي مرتين!؟ ولكن
هل يغير هذا الأسلوب الجديد من حقيقتك وجوهرك الجهمي العجائبي
الغرائبي، ألم تقله أكثر من مرةٍ على مائدة الطعام بحضور الضيوف؟
هكذا أنت، دائماً تتحدث بكل صلافة عندما يحررك الآخرون
ويواجهونك بالقضايا الجديدة أو بفظائعك.

ولكن، دعني أقول لك على أية حال كلمة شرف:
إن ما يشفع لك ليس كونك أفضل ولا أقوى أو أصلح منهم، بل وهنا
الطامة الكبرى، إنهم ليسوا بأحسن ولا أقوى منك، وقوتك الهشّة في
ضعفهم، هذا إذا كان لك حقاً قوة، فأنت "فاشوشي"
والآخر هاشوشي وكلا الأخوين ضرّاط.

جزيرة الواق واق 1990

مقطع غير جدي من رسالة جدية للغاية

المهم لدي، يا عزيزي، أن أحلم،
المهم يا أبو العلم والفهم أن أعلم،
"أتعلم أم أنت لا تعلم، بأن جراح الضحايا فم"،
وليس المهم تاريخ النشر،
ولا تاريخ البشر،
بل المهم عندي الآن، "الآن الآن وليس غداً"،
"أجراس العودة فلنقرع، أنا لا أنساك فلسطين"،
وهل هناك من ينسى رقم هاتفه الشخصي؟
ويقول لك: أعطني رقم هاتفك،
سأتصل بك خصيصاً لأعطيك رقم هاتفي!
منقار،

ينقر صلعة السباح في عمق البحر،
نقرة، نقرتين،
لن يبالي،
يغطس، يغوص في عمق الماء
غطسة، غطستين،
نقرة، نقرتين،
تطير العنقاء،
يطير النسر،
يحط من جديد على الصلعة،
الغطاس لا يبالي،

أين المنقار؟
يا إلهي ما أمتع تلك النقرات!
أبهي ما في تلك الحياة أن تُنقر صلعتك أيها الغواص،
فتشم رائحة الدنيا،
والديمومة ومياه البحر.

شمال شرقي جزر المريخ 1994

نرمين والبنفسج *

إلى نرمين،
هل تبكين حزنك؟
هل من عودةٍ إلى زمانٍ الوصل
فيه فرحة الروح
الطائر المهاجر
في الصباح
تحت الغيوم
هل سيبقى يُراقبُ حزنها من بعيد؟
وأنت هل ستبقيين صامتةً وحزينة؟
يا

ن

ر

م

ي ن ن ن ن

جزر القمر 1993

(*) هذه قصيدة حقيقية لـ "الفطحل" الحقيقي. عدنان المبارك.

التفاحة والرأس

أنا تفاحة،
سَقَطُ
تُ،
على رأسه،
هل يتألم الرأسُ،
مِنِّي؟
هل تتألم التفاحة،
من رأسه، أم يتألم رأسه منها
يا لها من أشياء جميلة،
تلك البذور المتناثرة،
على الأرض،
هل تلتقطينها،
تعالِي وانهمري،
اخلطيها مع الماء،
وخذِها جرةً واحدةً،
ساعتها ستغادرين القوم،
صاعدة نحو السماء،
ستُحسدين على هذا التحليق،
ورجفاته.

جزر المريخ 1992

النازحُ

أنتَ النازحُ،
كم كنتَ متفهماً أنتَ أنا،
وجمعتَ أشياءك الكبيرة والصغيرة،
أحصيتها واحدةً واحدةً،
حتى الألف،
لم تقصمَ ظهرَكَ حاجاتك،
غير تلك الخفيفة،
إنها القشةُ،
التي قصمتَ ظهرَكَ.

كل الجزر الفلبينية 1991

من رسالة ملخبطة أو مخلبطة أو مخربطة
أو مخربقة إلى صديق حميم

إلى صديقي الصحفي أحمد البوسطة أبو فهد

وهل هناك يا عزيزي أجمل من بياضات المغرب،

والدار البيضاء،

والأندلس،

والملايات،

والجلاليات والقوقيات والبرانص،

والحمّامات وروائح الأفران والخبز،

والماشيات الهويناء،

يا أبا الفهود كالغزلان،

ونحن كنا نحتقن بالتاريخ،

ونحنه،

علنا نهزم الملح في العيون،

وهل هناك "بطران"،

يحلم في "ديايمات" المادية الديالكتيكية،

و"إيستمتات" المادية التاريخية،

في ثلوج أذابتها الدموع المالحة،

وهل هناك أسخف،

من هذه السخافات والتفاهات،

ونقول عنها،

علوم الفلسفة،
ذابت فينا، وذبنا فيها،
رمزية الشعر هذه،
نكررها، وتكررنا،
كما كنا صغاراً نلهو في الحمامات،
والأنهار والجدول حيث كان آباؤنا يخافون علينا من الرجال الكبار،
لكن،
قد يسقط البندول،
على رأسي يا أبا الفهود،
وأدخل الغيبوبة الجميلة وأذكر مقهى المعقدين،
والروضة، والجندول،

ومقهى السلام، والبنائية العالية الجديدة على شارع أبو نواس،
المزينة زجاجت نوافذها، لم يسكنها أحد بعد، ولم يمر منها أحد بعد
غير أولئك الحالمين "المارقين" من ذوي الشعور الطويلة والسرراويل
الكابوي الفذرة، كلهم أربع عيون وعدسات مقعرة وكراسات وكتب
وأوراق مستنسخة من كتب ثمينة بالنسبة إليهم، لم يسأل عنها أحد
سواهم،

والمصورين المخبرين والدجالين، والمنافقين،
والمتهورين والمزاودين،
والمعتوهين،
والمطرفين،
اليمينيين واليساريين، واليمساريين
والفأس يقع بالرأس،

يموت مضرجاً،
مضرجاً بدماء العيون،
لن أزعجك كثيراً،
بشعر بلا جنّيات،
وقلبٍ محروق الجنّيات،
وظفلة صغيرة،
عمرها خمس سنوات،
تعدّبُ أباهَا،
منذ خمس ساعات،
أُكتبُ لي يا بابا رسالات،
إلى عمّي والجدات،
وكان كلامها كله بالآت،
وهل هناك أجمل،
من شعر امرأة حنطاوية،
ومن شعر صعلوك،
يدّعي الحداثة،
ويشتكي عصفورة صغيرة،
عذبته في خمس سنوات،
وخمس ساعات،
ويدّعي ويدّعي الحداثة وأشياء كثيرة،
أين الجواهري منه؟
أين البردوني منه؟
أين أدونيس، أين أنسي الحاج ولا توفيق صايغ،

كل هذا يحدث قبل الطاسة الأولى،
أو الكأس الأول كما يخلو له،
ويغني بعد طاستين،
ولا خوف عليه من ثلاث طاسات.
حافظ عليها يا أبا الفهود،
هذه الرسالة العظيمة،
فقد يأتيك نوبل بعينه،
قد ينهض من لحده،
ويسأل عن الحنطاوية،
اهتم بها أيها الصديق الغالي،
فقد يشتاق الرجل إلى شعرها،
وإلى شعرها،
وإلى بابل،
صنّها فقد يسأل عن الصعلوك البابلي العنود،
يوم خرّفها قصيدةً جهنميةً،
أعتذرُ يا صاحبي على هذا الغيض من الفيض،
و"طيحان الحظ"،

في عالم قطع فيه أحد الطيبين الحالمين رقبتَه بسِكِّين حادة، أحد
من سكاكين الجزائر المشهورين، كان ذلك قبل يومين، قطع رقبتَه
الطويلة بنفسه وسقط الرأس في براغ التي لم يبقَ فيها شيء دون أن
يُشترى أو يُباع.

فأين أنت يا أنكيدو؟

أين أنت يا جلجامش؟

وأين بلادك الجميلة؟
وعاهراتها الطيبات؟
وغيرهن من غير الطاهرات المنافقات والأفاقات؟
وأين الخصب والزوجة؟
هل ضاعت كلها في الرمال؟
أم أكلتها الأسماك؟ والحيتان؟
أم جرفتها البحار بعيداً إلى هناك حيث الرمال الذهبية؟
أنفدّها بالله عليك يا صاحبي،
قد تكون هدية لأنكيو،
قد يفرح بها عندما يخرج من قبره يوماً ما،
أو لنوبل،
أو لزابانيتة، أو
للصعلوك،
أو للحالم السرحان، الشاعر الولهان،
ينافس الفطحل بشعره،
وبأشياء أخرى كثيرة
وقليلة
كبيرة
وصغيرة، يكتب الأشعار تلو الأشعار
تلويه القصيدة ولا يلويها، فما عساه يفعل؟
قد تطمئنه هديتك عندما تصبح ورقة صفراء،
سيظنها مخطوطة تتجاوز قيمتها الأسعار،
وقد يكف عن اللعب بالنار،

والعبث بالأشعار،
عسى أن يبقى شيء في هذا العالم
فيه طهرٌ وعبادة،
قد ينتهي الكذبُ والبغاءُ؟
والظلمُ
وهذا الجاثم على صدور الملايين؟!

جزر المشتري 1994

إلى الأستاذ الهندي القلق سودانشو "عن قصة الخلق"*

بيضة تُكسر

منقارٌ وردي...

دفةٌ جديد...

رائحةٌ نورانيةٌ،

لستُ شاعراً ولكني أحببتُ الرسمَ والتصويرَ،

هل لكل ذلك معنى؟

هل من معنى لكل ذلك ما دمنا نمارس الحزن؟

على الأقل أن صديقنا الطيب كُنُودُ السكيرِ المجنون المختفي خلف
لحيته القذرة، قد اكتشف مؤخراً، بعد نصف قرن من الوجود والعيش
في غرفة وسط أقدار الأشياء، بأن لحياته معنى، فهو يصلح أن يكون
مثالاً سلبياً يجب أن تتجنب الأجيال القادمة هفواته ونزواته وصعلكته.
أمله الآن بعد خمسين سنة من مرارة الحياة ألا يُحتذى به من قبل
الشباب أو يكرّره أحد ويبقى هو شخصيةً فريدةً من نوعها في البؤس
والفوضى فقد يحوز على جائزة نوبل للفوضى.

أما المعلم الهندي الملتحي فهو يقيم في بلاد يخاف أهلها الذقون
السوداء، ولا يثقون بعلومهم ومع ذلك فقد علمهم أشياء كثيرةً، مثل
الكتابة عن الخلق وخروج المنقار من البيضة المتكسرة وشم رائحة
الحياة ومضار غلاف زجاجة النبيذ الأحمر، إذن فهذا الصداق الذي
يعاني منه المدمنون في الصباح ليس بسبب النبيذ حقاً.

يقول كُنُودُ المدمن والمريض نفسياً سابقاً والمجنون عمداً ومع سبق
الإصرار حالياً ولاحقاً، بأنه جميل أن تعرف بأنك تعاني من الصداق!

(*) سودانشو أستاذ جامعي وكاتب هندي عمَل محاضراً زانراً في الدول الإسكندنافية.

على الأقل أنك ستُتقن نفسك بأنك تعرف شيئاً! عن هذا العالم
المنتهي لا محالة.

هذا إذا كانت المعرفة بحد ذاتها بهجة ولا تزال فعلاً تعني شيئاً
بالنسبة لسكان هذا العصر.

.....

ويقول كنود المهورس أيضاً بأنه نفسه عانى ولا يزال يعاني من
آلام الرأس الدائمي ولم يشعر به ولم يعلم بأن ما كان وما سيبقى يعاني
منه هو الصداع نفسه.

كان يتصور الصداع أمراً آخر،

ويكرر كنود بأنه كان ولا يزال يعتقد أن قلبه يقع في الجهة اليمنى
وليس اليسرى، يبرر ذلك بأنه رغم إحساساته المرهفة بالأشياء إلا أنه
لم يشعر بوجود قلبه في الجهة اليسرى،

يبررُ كنود ذلك بأنه قد يكون حصل لتعاطفه مع الطبقة العاملة
والمدمنين الطبيين،

كنود أسطورة،

كنود قصيدة شعر ملحمية فريدة من نوعها.

لامثيل لها، هذا ما قاله عنه أحد معارفه في إحدى المرات،

سأله مندهشاً لماذا؟ ثم فهقه ضحكته المعهودة الطويلة والتي غالباً
ما تنتهي بضيق تنفسه أو اختناقه بدخان سيجارة لا تفارقه أبداً.

يخرج منقار الكتكوت من البيضة،

أمي كانت تجلس وتصب الشاي والدي يتابعها وينظر،

إلى تقاطيع وجهها متحسراً،

ألا ليت الشباب يعود يوماً،

تسقط تفاحةً على رأسي،

تسقط تفاحة أخرى،
في هذه المرة ليس على رأسي،
بل على يد أمي،
تكسر أقداح الشاي الجميلة فتصرخ،
يدق جرس البيت، منقار، تفاحة، أمي، أبي،
أفيقُ يا وفيق من حلمٍ موقِّقٍ قد يصلح مادةً لموضوع كتابةٍ جميلةٍ.

إلى سودانشو مرةً أخرى وطالبته ويني السويدية التي تكبر أمه
بعشرة أعوام وتبدو أصغر منها بعشرين !

قصيدة بالأسود،

أخرى بالأحمر،

ويني السويدية تحضر حفلةً الوداع،

طفلة فرحة بالخياط،

والشفافيات،

كنود الاشتراكي السابق المحطم لم ينسَ فلسفته،

الأستاذ الهندي سودانشو يتوسل،

كورت النرويجي المعوق مشغولٌ بنظرياته وأسئلته الرهيبة،

كيفن الأمريكي الضال،

كريزي كعاداته،

طلبوا من كورت المعتوه،

أن يكتب عن كيفن ومن الأفضل له أن يكتب عن كورت، ذلك
المتظاهر بالبلاهة والبلادة والأمراض النفسية كما تظن كارولين
الزنجية الامريكية.

من يكتب عن؟

"عصفور كقل زرزور واثنين طيارة"،

بالأحمر زوقناك،

بالأخضر لوناك،

بالأصفر زيناك، يا ليتك لو تعرف العربية يا كورت،

يا ليتك لو تقرئين التوراة والإنجيل والقرآن يا ويني،
فقد تكتبين لسودانشو الطيب،
عن قصة الخلق وخيوطك الذهبية والفضية والمشعة الألوان،
يحلم كنود المريض المزمّن بها ويحلم كُورث أيضاً،
يسقط الخيط الأول وينقطع الآخر،
كُنُودُ عسبي المزاج في مثل هذه الحالات،
يكسر الروح والمرمر والأجر،
على عكسك يا ويني فأنت تحلمين بهدوء،
أنتِ تحلمين ولا تحملين، أنت السيدة الأولى،
سيدة العالم وملكة زمانك والجزر الشمالية،
ملكة إسكندنافيا، والعالم بين راحتي يديك،
تسافرين حيث تشائين وتمارسين ما تريدين،
تسافرين إلى الكيبوتيزات في إسرائيل والمخيمات في لبنان،
في اليونان تتزوجين يونانياً وفي الهند هندياً،
تتزوجين عربياً أصغر من حفيدك،
تشتريين لأمه الفقيرة غسّالة ملابس،
تتحدثين عن بؤسها بصدق،
لن تغسل الملابس بيديها،
ستذكرك بالخير كلما تغسل وجبات الملابس،
سيصيبك الأجر والثواب عند الله،
تشتريين لأخوته الصغار حلويات ولُعباً،
لأبيه أكثر وأكثر، ويسكي وتبغاً أصفر،
يتحول الرجال إلى لُعبٍ،

تدفعين نقداً، بالأقساط، لا يهم ذلك ما دمت تقترضين لتقاضي
الجياح،

تموتين وتبقى ديونك من بعدك،

من سيدفع عنك الأقساط، ومن سيستلم ديونك؟

هذا ما لم أفكر به حتى الآن،

والعمر...العمر كله،

لا تبالين له،

مرات ومرات ومرات تجربين،

الجمر والبرد وتنافسين الحلو والمُرَّ،

والبحر والبرَّ،

فهل تقنعين يا مدللة الأروقة والمحافل.

شمال شرقي عطار د 1994

الشاعر العربي الكبير غوني الملاخ في سطور

وُلد الشاعر الشاب غوني الملاخ صدفةً في قرية من قرى الجنوب وتلقى تعليمه في قرى الشمال متنقلاً بين الشرق والغرب حتى أنهى دراسته الإبداعية وليس التقليدية.

يُقال إن اسمه الحقيقي طابع وتغيّر فيما بعد إلى طايح إلا أنه نشر ملاحمه بأسماء مستعارة كثيرة ليس جزاء التنكر كما يتوقع بعضهم، بل لعشقه الحرية ورغبته في الانصهار بالموضوع الفني للعمل الأدبي. معلوم!

أما اسمه الحالي: غوني الملاخ فإن اختياره يعود إلى الجماهير، رغبت في أن "تدله"، حوّرت اسمه المستعار روني إلى غوني. أما الملاخ فهو لقب أطلقه عليه الناس أيضاً، حيث كان الناس يقولون عنه يملخ الشعر لا ينظمه وكانوا يدعونه الملاخ سخرية، فما كان منه إلا أن يفاجئهم باستخدامه هذا الاسم واللقب علناً نزولاً عند رغبتهم.

عُرف منذ نعومة أظفاره بحبه للحرية وملخ الشعر وبدأ النشر مبكراً ناهلاً من خياله الخصب وتراث الحداثة أجمل الصور وأروعها رافضاً الأساليب التقليدية البالية.

انشغل بالأدب وتعبد في محرابه غير مبالٍ بالتعليم المنهجي السقيم، الذي لا يغني ولا يسمن.

نشر عشرين ديواناً وعشرين مجموعة قصصية، وقام بترجمة قصائد عديدة من عشرين لغة حية وميتة وعتيدة لشعراء لا يُعدّون بعدد أصابع اليدين والقدمين.

أعدّ سيناريوهات العديد بل العديد والعديد وأكثر من العديد من الأفلام المسرحية والتمثيلية السينمائية، وكتب الأغاني والأمانى بالعربي والهندي والروماني ويعمل على دمج لغات الهوسا بالفلاني

غير مبالٍ بالزمان والمكان. هيك بالعاني (يعني عن قصد).
دُعي الشاعر الفحلُّ إلى أمسياتٍ أدبيةٍ كثيرةٍ أقامتها جمعياتٌ مختلفة
في الشرق والغرب والشمال والجنوب، في سيبيريا والتبت والهاواي
وجزيرة الواق واق وبروناي وطبعاً مونت كارلو، وكل جزر العالم وقد
حاز على جوائزٍ عديدة يرفض الإعلان عنها شعوراً منه بالتواضع.
ونكتفي هنا بهذه الكلمات في الحديث عن حياته نزولاً عند رغبته
لتواضعه وتصوفه وزهده ورفضه الدعاية لأدبه، فتصوّر أنه يكتب
ويتكوّر بوجهٍ منورٍ في عالمٍ مبعثرٍ ومدوّرٍ!

الناشر

الدكتور زهير ياسين شلبية

- حائز على جائزة الثقافة لعام 2002 في مدينة روسكيلدة الدنمركية.
- ولد في العراق عام 1954، درس في مدارس بغداد والجامعة المستنصرية ولم ينهها.
- سافر إلى الاتحاد السوفييتي لغرض الدراسة.
- درس الإعلام والآداب في روسيا ونال شهادتي الماجستير في الإعلام والأدب عام 1980.
- حصل عام 1984 على الدكتوراه في الأدب الحديث من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية في موسكو.
- عمل باحثاً وأستاذاً جامعياً بعد تخرجه مباشرة.
- درس الترجمة دراسة أكاديمية جامعية في كلية التجارة كوبنهاجن ونال شهادة الترجمة الأكاديمية.
- درس أساليب العمل الاجتماعي والتربوي في المدرسة العليا للعمل الاجتماعي في كوبنهاجن.
- حصل على شهادة مدرس لغة دنمركية للمغتربين.
- عمل مستشاراً في بلدية روسكيلده لأكثر من عقدين فضلاً عن الترجمة من الدنمركية والروسية والكتابة والبحث في مجال الرواية.

*** صدر للكاتب:**

- غائب طعمه فرمان. دراسة نقدية مقارنة عن الرواية العراقية، دار الكنوز الأدبية، 1996.
- مختارات من الشعر الدنمركي، دار شرق - غرب، 2000
- ميخائيل باختين ودراسات أخرى عن الرواية، 2001
- كوابيس المنفى. مجموعة قصص قصيرة. مركز الحضارة العربية، القاهرة 2004
- أنطولوجيا الشعر الدنمركي الحديث، مركز الحضارة العربية، القاهرة 2004
- الفطحل. محاكاة وقصص ساخرة. مركز الحضارة العربية، القاهرة 2009
- في الأدب العربي. دراسات وحوارات في التنويرية، دار الأنام، بيروت 2025
- جودليته. رسائل من زمن الحصار لكاتب مجهول. سردية عابرة للأجناس، مركز الحضارة العربية، القاهرة 2025

قالوا عن كتاب الفطحل:

خبر عن إصدار الفطحل للدكتور زهير ياسين شليبه

صدر عن مركز الحضارة العربية في القاهرة كتاب "الفطحل" محاكاة ساخرة ونصوص مفتوحة للدكتور زهير ياسين شليبه. والدكتور زهير ياسين شليبه باحثٌ أكاديمي في الرواية العراقية و مترجم يقيم في الدنمرك وسبق له وأن اصدر عدة كتب مثل كتابه عن الروائي العراقي الراحل **غائب طعمه فرمان** ومجموعته القصصية "كوابيس المنفى" وترجم أول وأكبر انطولوجيا الشعر الدنمركي الحديث، إضافة إلى كتابه عن ميخائيل باختين.

سرديّة "الفطحل" الساخرة تقع بين الرواية والمحاكاة، تدور أحداثها في أوساط العراقيين المقيمين في الخارج منذ السبعينات حتى احتلال العراق من قبل الأميركيين.

وقد كتب الروائي العراقي الراحل **فؤاد التكرلي** عنها " يجب أن أعترف لك بأنك تملك قدرة حقيقية على السخرية والتهكم بنفس عراقى صميم لم أواجهه مع أي كاتب آخر.

إنها سخرية "مطلقة"، إذا أمكن أن نسميها، لأنها لا تترك أحداً ولا تقف عند حد، ولقد ضحكْتُ بصوتٍ عالٍ وأنا أقرأ بعض الفقرات التي لن يفهم دلالتها إلا العراقي".

وقال عنها الكاتب والروائي العراقي المعروف **عدنان المبارك** " يقوم زهير شليبه بخلطٍ عجيب للحقيقة بالاختلاق فيما يخص سيرة الفطحل. أكيد أن لكلمتي الحقيقة والاختلاق ثقلهما النوعي أي التاريخي قبل كل شيء، لكن خارج الفن عامة والروائي

خاصة. فالكاتب يفعل كما الراوية حامل الربابة الذي يزيّن صورة بطله بشنتى الإضافات: برواز شعري، مقرنصات بلاغية إلخ، بل يقودنا المؤلف بنفسه إلى شتى التخيّلات التي تحتل أكثر من تفسير واحد.

إن زهير ياسين شلبية مسلح هنا ليس بالمرؤيات العربية القديمة فحسب بل الأخرى كالروسية والفرنسية والإنكليزية خاصة. وهناك ملامح تلمس باليد، في فطله، من أولئك الأبطال التشيخوفيين والغوغوليين والرابيليين والفولتيريين والديدرويين وغيرهم. ولا أجدني مبالغاً إذا قلت بأني عثرت على لمحة هنا وهناك في الفطل مستعارة من رجال إليوت الجوف".

وقال عنه الروائي المغربي إسماعيل غزالي:

"فمن جهة يبدو زهير شلبية كساخر كبير (سخرية قائمة على المزج الحاذق بين علم الاجتماع وعلم النفس)، يرصد العالم من زاوية حادة مندلعا بالفقهات التي تفخخ متن الكتاب من أوله حتى آخره. ومن جهة ثانية يتمرأى ناقدا للشعر وهو يتوجه بخطاب انتقادي مضمّر وجسور، معريا زيف الحداثة وانحطاط الذائقة. وعبر الجهتين معا ينجح زهير شلبية في روايته بصنع كوميديا الهوائيين، موجهها حزمة ضوئه الكاشف إلى منطقة البهلوانيين في مسرح اليومى، وفاضحا بكل أصالة جسورة وبسالة مرحلة للصبخ الأجوف الذي يعكر به الفطاحلة مزاج العصر".

وقال الأستاذ الجامعي الدكتور عمر ظاهر عن الفطل "هناك على هذا العمل الذي اعتبره وثائقيا، بمعنى أنه يوثق لهجة شعب في مرحلة من تاريخه. واتمنى عليك ثلنيا أن تجمع التعابير الشعبية التي اوردتها، وهي جامعها وشامله...".

وقالت الشاعرة زلى اللحام كلما أقرأ للدكتور زهير ياسين شلبية يلفت انتباهي ما بين السطور حيث هناك شيء يجذبني

ويدعوني للتفكير بشأن لمعرفة اسرار المفردات وتلميحاته. وفي كل مرة أقرأ مقطعا أفاجيء بمفردات معينة تجعلني ابتسم او اضحك واشعر بالتعلق بقراءة القصة والرغبة في انهائها. لغة هزلية وجدية في الوقت نفسه تأخذ القاريء الى اعماق الواقع. العامية العراقية تصبح مفهومة رغم الصعوبة بعض المرات، وفي احيان اخرى اقرنها بمرادفاتها باللهجة الفلسطينية او الشامية عموما.

وقال الأستاذ جمال جودة "هناك الكثير من الأعمال الأدبية التي تتناول شخصية تبدو فردية بمعنى أنها لا تشكل ظاهرة عامة لكنها بعد إمعان النظر فيها تبدو "عامة" أيضا مثل "الأبله" و"المقامر" لدوستويفسكي و"دون كيشوتي" لسيرفانتيس الخ. لاحظ هنا استعمال الصفات بدلا من الأسماء المحددة الفردية أو أسماء العلم في العناوين أعلاه كما هو الحال في "الفتحل"، ويبدو أن اختيار المؤلف لمفهوم "المحاكاة parody" كتصنيف أدبي لكتابه مصدره مثل هذا الاعتبار".

وقال عن الفتحل أحد أهم قراء الدكتور زهير ياسين شلبيه الأستاذ المهندس شيركو أحمد سامي المفتي " لقد عزى فتحلك بعض الأفراد من قشورهم وأظهرهم على حقيقتهم بطريقة ساخرة رابطا بخيط رفيع بين قفشات وتخيلات الفتحل وزهوه وتلك اللحامات الإنسانية في داخله وما حوله. هذه الرواية كتبت لإنسان مثقف واسع المخيلة واعتقد سيأتي يوم تؤخذ بالدراسة والنقد وستحتل مكانها اللائق في الأدب العراقي المغترب".

قراءة في رواية "الفطحل" لمؤلفها زهير ياسين شلبية

رصد ساخر لنموذج بشري دائم

تذكرنا رواية "الفطحل" لزهير ياسين شلبية بالسيرة القديمة. لا يشرك المؤلف هنا مع صوت السخرية أي صوت آخر في روايته. ولا أظنها سخرية تقليدية، فثمة تعاطف خفي، رغم كل المواقف التي يتخذها المؤلف من بطله. ويخال إلي أن زهير شلبية يروي حياة بطله على الطريقة الشعبية: بمرافقة الربابة واللهجة العراقية.

قسّم الراوي مرويته إلى فصول لا تجمعها أي من أدوات الرواية التقليدية لكن ظاهرياً فحسب. فثمة خيط متين، رغم دقته، يمسك بكل ما حدث لهذا البطل. ولا أظن أنه، أي الكاتب، قد عنون عن طريق المصادفة، فصول الرواية وأعطاهما مثل هذا التسلسل الذي يذكرنا بأبرز الأعمال الأدبية المكرسة لمثل هذا النموذج البشري. فالفصول اعتمدت، بشكل بيّن، على تقنية الفلاش باك.

يقوم زهير شلبية بخاطٍ عجيب للحقيقة بالاختلاق فيما يخص سيرة الفطحل. أكيد أن لكلمتي الحقيقة والاختلاق ثقلهما النوعي أي التاريخي قبل كل شيء، لكن خارج الفن عامة والروائي خاصة. فالكاتب يفعل كما الراوية حامل الربابة الذي يزيّن صورة بطله بثتى الإضافات: برواز شعري، مقرنصات بلاغية إلخ، بل يفودنا المؤلف بنفسه إلى شتى التخيلات التي تحتل أكثر من تفسير واحد.

إن زهير شلبية مسلح هنا ليس بالمرويات العربية القديمة فحسب بل الأخرى كالروسية والفرنسية والإنكليزية خاصة. وهناك ملامح تلمس باليد، في فطحله، من أولئك الأبطال التشيخوفيين والغوليين والرابيليين والفولتيريين والديدروربيين وغيرهم. ولا أجدني مبالغاً إذا قلت بأنني عثرت على لمحة هنا وهناك في الفطحل مستعارة من رجال الجوف لإليوت. وعليّ أن

أستدرك هنا: نحن لا نعثر، بالطبع، لدى فطحل زهير شلبية على ذات النسغ الفلسفي الإليوتي. ف "فطحله" مثال تقليدي لشتى الأنوات التي يعرفها كل مجتمع يعاني من صعود وهبوط مفاجئين، أي محرومين من الإيقاع والوتيرة، في بارومتر الحضارة المادية. وقبل كل شيء يكون الفطحل عينة مخيفة لنبتة خرجت من أرض يصعب تحديد موقعها، فهي في تنقل شبه أبدي بين قحولة ومشروع نماء. وفي الحقيقة لا يمثل بطل زهير شلبية أيّ فئة اجتماعية محددة. فالمؤلف تعمد تعليقه في فراغات عدة وليس في فراغ واحد.

أعودُ إلى رجال إليوت الذي جعل منهم نموذجاً شمولياً لإنسان هذا العصر الذي روّضت مشاعره وتلافيف مخه أقانيم هذه الحضارة المادية. فالإليوت الذي صار كاثوليكياً وتقبّل الكثير من دوغماها، وجد أن القدح المعلى في حضارتنا لـ"الفطاحلة" الذين هم ليسوا بحاجة إلى إيمان وأيّ كان. وكما قلت فـ"الفطحل" يحشر نفسه وبحركات بالغة الطبيعية بين رجال إليوت خاصةً أنه مثلهم لا يعرف الابتسام:

نحن الرجال الجوف

نحن الرجال المحشوين

يتكئ أحدنا على الآخر

الرؤوس حُشيت بالقش، وا حسرتاه!

أصواتنا التي جُفّت

حين نهمس لبعضنا بعضاً،

هادئة و بلا معنى

كالريح على غصنٍ يابس

أو قائمة جردني على هشيم زجاج

في قبونا الجاف. (الأبيات من ترجمتي).

بالطبع لا يمكن إطالة "فطحل" زهير شلبية ولا تضخيمه كي يصبح رمزاً يتخطى حدودَ محليته، أي على العكس من رجال إليوت (الشاملين). وقد تبدو المقارنة بين الفطحل ورجال إليوت قسرية أو مفتعلةً لكن حجتى هنا تشابك جذور كل الظواهر في عصرنا بشكلٍ خاص (ربما كان الكاتب قد قرأ إليوت) ومن ثم عثر رجاله الجوف على حيِّزٍ ما في لا وعيه). ومرة قرأتُ كتاباً عن إليوت بحثتُ مؤلفه عن منحدر عنوان قصيدة إليوت الشهيرة هذه. وظاهرياً يبدو هذا موضوعاً آخر لكن ليس تماماً. فلقد جرى البحث عن أصل "الرجال الجوف" وتبين أن من المحتمل أن يكون للعنوان ثلاثة أصول: مقال وليم موريس W. Morris بالعنوان نفسه، وقصيدة لروديارد كيبلينج R. Kipling بعنوان

Broken Men

أو من "يوليوس قيصر" لشكسبير الذي استخدم النعت نفسه في مسرحيته هذه. وفي الحقيقة توائم الأوصاف الشكسبيرية الأخرى الإليوتية. فشكسبير يقول:

الرجال الجوف

هم مثل الخيل الناري في الظاهر:

مظهر رائع

يعلن عن النار.

لكن أعطها مهمزاً،

سترى كيف

يسقط هذا الحيوان

مثل حصانٍ عجوز. (هذه ترجمتي أيضاً).

لا أظن أن تأثيرات مباشرة في تكوين شخصية الفطحل جاءت

من الأدب الروسي لكن من الصعب أن نطرد هنا بعض الروائح
التشيخوفية والغوغولية خاصةً. المهم أنها لم تترك بصماتها
للحوحة على أصالة "الطفل". لكن هل بقي هناك كلام عن
التأثيرات؟

أكد أنها مسألة مفتوحة. إذ لا شيء أصيل تماماً في الأدب
والخلق الفني عامةً بل في كل خلق.

في الختام لا بد من التنبيه إلى نفور زهير شلبية من الأقنعة
ونرفزته مما نسميه في العراق ب"الكلام المصفّط". وواضح أنه
لا يلجأ هنا إلى أيّ قانون للسرد الأدبي سواءً أكان تقليدياً
أو "محدثاً".

كما بوسعي القول إن "فطله" قد مدّ جذوره في أكثر من
تربة. ولو كنت ناقدًا متفرغاً أو أفرخ بمؤهلات نقدية ما، لأخذتُ
بالبحث الأكاديمي عن جميع أزمنة وأمكنة هذه الجذور. لكنني
مجرد قارئ تمتع كثيراً بقراءة "الطفل" الذي ذكرني بعبقرية
الأدب الروسي أيضاً.

لقد قام زهير ياسين شلبية في "الطفل" بتدوير عدد من عللنا
العراقية، (وفي الواقع هي ليست عراقية فقط) ورشّ خليطاً مدهشاً
من توابله عليها!

لقد جاءت "الطفل" محاولة جريئة لتعرية أكثر من بعد نفسي
بل هي، بالأحرى، تعرية لنوي البعد الواحد. وأكرر مرة أخرى
تهنئتي للصديق المؤلف على هذا العمل المتميز في حصيلتنا
الأدبية.

عدنان المبارك، نيكويينغ، 15 تشرين الثاني 2005

إسماعيل غزالي

الصّخب الأجوف:

حول رواية الفطحل للكاتب العراقي زهير شلبية .

"أنا كاطالوك ضخم من الشوائب" تقول بطلّة مسرحية بوليوس قيصر في حوار فيلم " أنا وأورسن ويلز " للمخرج ريتشاردلينكلايتر، الفيلم المستند إلى رواية بنفس العنوان للكاتب روبرت كابلوا. يمكن تحويل هذه الجملة اللاذعة بصدد رواية الفطحل لزهير شلبية كالتالي: " أنا كاطالوك ضخم من الانسانية الجوفاء".

تلك هي الفكرة الحادة لكتاب الفطحل الذي يعنى بتوثيق سيرة رجل معنوه يراكم رصيذا هائلا من الأوهام الصفيقة اللاتتناسب ومقدرته الفكرية الساذجة والانعدام الكاسح لموهبته المفقودة. رجل أبله هو نموذج شاسع لظاهرة من الشعراء الرديئين والمتقفين المعوزين معرفيا يضج بهم المشهد الأدبي مطليا وكونيا.

في الظاهر المعلن تبدو القصص الثلاث في كتاب الفطحل: الاستباحة – الكلب والسيدة القتيلة – توزن تآك، امتدادا طبيعيا وموضوعيا لقصص مجموعة كوابيس المنفى عبر تيمة مركزية مشتركة هي (الأحلام)، فتوحي بانفصالها عن المتن السردي الموالي الخاص برواية الفطحل (محاكاة ساخرة).

في المضمّر الخفي تستبطن القصص الثلاث موضوعا رئيسا ممهدا لرواية الفطحل فيما يشبه مقدمة سردية تومئ بمسعى الرواية إلى تشخيص التكوين العراقي والقبض على اللحظة الاجتماعية الجوهرية. ثم تستطرد فتنوه بالأشياء المحمّوة داخل فعل الكلام أو الأشياء المحتشدة ما وراء السرد كمبرر وظيفي لأسلوب الانقطاعات الحكائية المقصودة والقفزات والفرافات التي يزدهر بها النص ككل.

القصص الثلاث تلمع عبر خطاب إيمائي منذ البداية إلى نموذج الشخصية الفطحية العراقية (والعربية عموماً) المغتربة الموسومة بالفراغ الفادح، كظاهرة ثقافية سطحية واجتماعية مختلة ونفسية متوترة.

هذه الظاهرة تتمثلها شخصية "الفطل" في المحاكاة الساخرة التي تلي القصص الثلاث، وهي عبارة عن متواليات سردية ترصد سيرة الشاعر الأجوف الملقب بالفطل، عبر لوحات متعاقبة وحالات متواترة تتأرجح بين تجربته الكاريكاتورية في شمال أوروبا وذكرياته المؤرقة في العراق.

تكاد شخصية الفطل هنا تحقق ما يسميه جيل دولوز بالشخصية المفهومية، فهي تذكرنا بشكل من الأشكال بأبله دوستوفسكي ويمكن أن ترقى لتصير استعارة حول الرجل الأجوف الذي يطمح للوصول بأسرع ما يكون عبر أدوار موهومة لكي يصنع لحظة تاريخية صاعقة دون أن تنز منه في طريق ذلك قطرة عرق واحدة. فالفطل نموذج عملي للأحلام المتضخمة ذات البصمة الدونكيشوتية التي تستند إلى قاعدة هشة بل منعدمة أساساً.

الهوس بإنجاز الشيء الفني العظيم انطلاقاً من الفراغ المعرفي المهول والجهل الفاحش والبلادة الجسورة يغدو عند البعض هاجساً مرضياً وهستيرياً فيتحول إلى ظاهرة مع طفوهم كطفيليات في الننتاج الثقافي والسياسي والاجتماعي، بل وينجحون عبر وسائط في خلق أسمائهم الأدبية الوضيعة ويزحفون كفطريات على صفحات الجرائد والمجلات وشاشات التلفزيون الخ فيمارسون التمويه ويستوطنون الضوء العام ويؤثثون المشهد زعيماً عبر بهلوانيات لا تنطلي إلا على المجوفين مثلهم.

الفطل الذي كان مذموماً خلقة وخلقا في العراق، سيحاول أن يبحث عن نموذج نقيض لشخصيته في أوروبا وتتحول مذماته إلى محاسن بقدرة قادر في البلاد الشقراء. فكلل العراقيين الهاربين من جحيم الدكتاتورية وفوضى البلاد الأم، ينجح في أن يهاجر بذريعة إجراء عملية حول عينه العمياء ويخفي ذلك فيما يصرح

بأنه يسافر من أجل الدراسة ببلغاريا ويطلق السمراء السومرية ويتزوج من بلغارية، ثم يسارع إلى ترجمة الشعر البلغاري ليلفت الانتباه وهو الذي لا يتكلم البلغارية أصلا، ثم يغادر بلغاريا ويختار له أمًا شمالية الخ

و إذ تطغى السخرية اللاذعة لنبرة السارد وهو يدون حالات الفطحل المتعاقبة، فلا يعني هذا أن الخطاب يلتزم هنا بهذه النبرة الفاضحة التي تعري الشخصية بشكل مبرح يتخلق عنه نوع من الكوميديا السوداء و روح الدعابة (الباروديا تحديدا). ففي ثنايا الخطاب يتوارى حس درامي ينتزع منا لحظة للتعاطف مع هذه الشخصية على سبيل الشفقة انطلاقا من افصاح السرد عن الندوب والكدمات والجراح التي تنتعر ذاكرة ووجدان هذه الشخصية ذات النزوع المسالم. الشخصية المعرضة للهزء ذات الخلقة الاجتماعية المشوهة من الداخل.

فبحثا عن تجميل هذا التشوه الجواني تهافت الفطحل في البلاد الشمالية من أجل خلق مجد واهم عبر طرق وصولية وأساليب واهنة لم تكلفه حتى هدر قدر صغير جدا من الطاقة أو الجهد. وكان الطموح المتلهف هو تشييد رأسمال معنوي ضخم عبر قناع الشاعر وقناع المترجم وقناع المشرقي الذي يعود إلى البلاد مع زوجة شابة شقراء ... ثم قناع المثقف الموسوعي الذي يفقه في كل شيء وقناع السياسي أخيرا (فصل: عودة الفطحل إلى ربوع الوطن الشامخ) ...

و لا تنجح أي من هذه الأقنعة في تلميع وجهه، فيظل لاهثا وراء تسلفاته الوضيعة و تليفقاته المفضوحة و ادعاءاته المكشوفة وترهاته الفاقعة الشبيهة بضراط في منام كابوسي إلى أن ينتهي نهاية مأساوية (تضارب الشهادات حول سجنه من طرف الأمريكان و اختفائه بقرية في بولونيا بعدما اغتصب من طرف عصابة الخ) .

بعد المتواليات السردية، يفرد المؤلف ملحقا لأشعار الفطحل في مختتم الكتاب، بمنزلة ديوان للشاعر الفطحلي المدعو غوني الملاخ، وفيها يتقمص المؤلف ظواهر شعرية مما ينشر في

الملاحق الثقافية والمجلات وعبرها يواصل السخرية اللاذعة من هذه القصائد الزائفة والسادجة ويبدع لها أشكالاً تدعي العمق الأنطولوجي وخلق الأبعاد الرمزية والفلسفية موقعة في أكثر من مكان جغرافي للكرة الأرضية كجزيرة الواق واق بل وحتى الكواكب المجاورة كعطارد الخ.

هكذا يسلك المؤلف في رسم ملامح الشخصية الفطحية ذات الصدى الروسي البعيد (نيقولاي غوغول) استراتيجية سردية قائمة على المتواليات الحكائية سواء المتعاقبة أو المبعثرة، وينجح في القبض على تلاوين النموذج الانساني الأجوف من زوايا مختلفة عبر لغة تنحاز للمحكي العراقي العامي دون أن تلغي الفصيح الرصين فيما يشبه تعالقا لغويا بحسب تعبير (ميخائيل باختين). فمن جهة يبدو زهير شلبية كساخر كبير (سخرية قائمة على المزج الحاذق بين علم الاجتماع وعلم النفس)، يرصد العالم من زاوية حادة مندلعا بالقهقهات التي تفخخ متن الكتاب من أوله حتى آخره. ومن جهة ثانية يتمرأى ناقدا للشعر وهو يتوجه بخطاب انتقادي مضمحل وجسور، معريا زيف الحداثة وانحطاط الذائقة.

وعبر الجهتين معا ينجح زهير شلبية في روايته بصنع كوميديا الهوائيين، موجهة حزمة ضوئه الكاشف إلى منطقة البهلوانيين في مسرح اليومي، وفاضحا بكل أصالة جسورة وبسالة مرحة للسخب الأجوف الذي يعكر به الفطاحلة مزاج العصر.

إسماعيل غزالي روائي مغربي

قراءة في رواية "الفطحل" للدكتور زهير ياسين شلبية
تشخيص أدبي لأزمة نفسية عانت منها عدة أجيال بسبب خلل
في النهضة العربية الحديثة.

تدور أحداث هذه الرواية حول شخصية الفطحل وادعاءاته ومغامراته وفضائحه في الوطن وفي المهجر. وهي شخصية بلهاء وصولية تعيش في عالم من الأوهام حول عقريتها المزعومة، ولهذا أصبحت بؤرة النميمة لدى عراقيي الخارج. للفطحل هذا أسماء مستعارة كثيرة تختلف حسب مزاجه وتقلباته وأفضلها كان غوني الملاح! يترك الفطحل المدرسة ليتفرغ لشعره، يهاجر مع زوجته العراقية الى بلغاريا ليطلقها ويتزوج من بلغارية، فيسارع الى ترجمة بعض القصائد البلغارية دون اي علم بلغتها الأصلية أو تاريخ أدبها، ثم يطلق زوجته الثانية مهاجرا هذه المرة الى شمال أوروبا ليبدأ سلسلة جديدة من الادعاءات والفتوحات الخيالية، وعند بداية الغزو الأمريكي للعراق يحاول الفطحل أن يقحم نفسه في الحرب بصفته "معارض عراقي وكاتب من المنفى، ممثل البرلمان العراقي في الشمال الأوروبي"، وينتهي به الأمر في مصير مجهول، إذ تكثر الإشاعات حوله فمنهم من يقول إنه أغتصب وأهين، ومنهم من ادعى أن صديقه البولندية أنقذته وأنه الآن يعيش في بولندا، الخ. مصير الفطحل مجهول.

ولعله من الطريف والمفيد أن الأديب العراقي المعروف عدنان المبارك نشر قصة بعنوان تقلبات الفطحل، هي عبارة عن تشخيص لما آلت له حياة هذا المدّعي الصغير حيث يعمل خادما في إحدى قرى البصرة ويتعرض لمختلف أنواع الإساءة! أنظر موقع القصة العراقية.

والفطحل هذا ينشد الاستحسان والشفقة من الآخرين، فيدعي مثلا أن أهله هلكوا جميعا في العراق الدكتاتوري، بما في ذلك أمه التي كانت حية ترزق، فاصطنع قصة من المعاناة والأسى التي قد

تناسب صورة الشاعر المرهف الإحساس الذي عانى الأمرين والذي يتكلم عن معاناة عميقة، والطامة الكبرى أنه يصدق كذبه. ورغم هذا كله شعرت أكثر من مرة بالأسف تجاه هذا المسكين الأبله "على قد نيته"، كلما سمح لي الراوي بالدخول الى مجالس النميمة، حيث يجتمع عراقيو المهجر وبعض العرب ممن يعيشون على برامج المساعدة الأوروبية، لا ينفكون عن السخرية منه ونهش لحمه حيا، فموضوع "الفطحل" مُسكِّنٌ للألام يشفي غليل فشلهم وألم غربتهم، والأنكى من هذا كله أن لهؤلاء آراءهم النقدية والفنية الخاصة بهم! إن ردود فعلهم على سفاهة الفطحل هي الجزء الأكبر من المشكلة! بل يمكن القول إن الناس من حوله هم من يزيدون شأنه، ولا يقلون عنه جهلاً.

من عادتني أن أفكر في التأثير الكلي نفسيا وفكريا لأي كتاب بعد قراءته مرة أو مرتين، وهذا التفكير بحد ذاته جهد أو عمل نقدي له شرعيته ولا يحتاج لأي تبرير، و"الفطحل" كتاب يستحق التفكير لتأثيره الغريب علي، فكما سبق بيانه اختلطت المشاعر بين الاستهزاء والسخرية من جهة، والشفقة والألم من ناحية أخرى، وبين الإفراط بالضحك والتهكم من شخصية هي في الحقيقة مسكينة لا تضر ولأنتفع، عدا عن أن عنصر التشويق لم يختف ولو لحظة!

هناك الكثير من الجوانب المهمة في الكتاب التي استحوذت على انتباهي كدور الأحلام مثلا والتي لا تقتصر أهميتها على الأسلوب السردي من ناحية تقنية، بل يتعداها الى الجانب الرمزي أيضا، إضافة الى علاقة الراوي بالفطحل والشكل الأدبي، هي كذلك جوانب مثيرة للاهتمام في هذه الرواية التي يصير كاتبها أن يصنفها كحكاية. ولا يمكنني أن أعطي كل هذه الجوانب حقها في هذا المقال، ولهذا سأركز أولا هنا على المسألة الأكثر إلحاحا بالنسبة لي شخصيا وهي الشكل الأدبي في المقام الأول ومن ثمة شخصية الفطحل نفسه.

- العام والخاص:

هناك في رأبي ازدواجية مهمة في شخصية الفطحل التي نجح الكاتب في بنائها، وتلك هي ثنائية العام والخاص. لقد نجح المؤلف في بناء شخصية مركبة، أو بعبارة أخرى، "عامة" يعرفها الكثير من الناس في المهجر والوطن. أي أن الفطحل هذا يوحى بنزعة يعرفها الكثير من القراء في العالم العربي، فهو يشير ويذكر القارئ بتلك النزعة، فشعوره بأن الفطحل نوعية أو صنف من الناس قد مرَّ عليه سابقا يزيد من حيويته على الرغم من فرديته. فكم تذكرت فلانا وعلانا من أيام الدراسة في المدرسة الابتدائية والثانوية،

وكم تذكرت أشخاصا قابلتهم في الجامعة والمهجر بين العرب، حيث يزدحم الفطاحلة من كل مذهب ومشرب، من الفطحل "الإسلامي" الذي لا يتوقف عند تكفير داروين ونظريته دون أن يقرأ سطرا واحدا في الكتاب المشؤوم بنفسه فيعمل فكره فيه، إلى "الماركسي" الذي يتحدث عن ماركس وإنجلز صباحا مساء دون أن يقرأ أي كتاب لهما، وإلى الفطحل الأدبي الذي لم يكتشفه أحد، إلى الناقد "العقبري" الذي يشتم إمرأ القيس "المنحط" دون أن يقرأ معلقته وهلم جرا!

يمكن القول إن الفطحل في هذه الرواية تشخيص أدبي لحالة أو أزمة نفسية وعقلية أصابت أكثر من جيل في العالم العربي، تعود بدايتها إلى خلل أساسي في النهضة العربية الحديثة.

أرفض اختزال النص الأدبي في نية الكاتب، حيث يبرز المعنى من تفاعل القارئ مع النص، ولهذا تختلف القراءات والمعاني. بكلمات أخرى، لا يهمنا هنا فيما إذا كان الفطحل شخصا "حقيقيا" مستمدا من حياة الكاتب أو العكس. المهم هنا هو الازدواجية بين فردية الفطحل كشخصية أدبية عراقية محددة من جهة، وعموميته من حيث هو ظاهرة اجتماعية بامتياز. وهنا تكمن في رأبي فاعلية هذه الشخصية الأدبية، فهي في المقام الأول محددة وفريدة، وليست شخصا "حقيقيا" بذل الكاتب اسمه بـ"غوني الملاح". لكنه أحد أعراض "المرض العربي" المزمن إن صح التعبير، وهو ما سأوضحه لاحقا. أظن إن أغلب القراء العرب سيشعرون أنهم

قابلوا أو مروا على هذه "النوعية" في حياتهم أكثر من مرة. وهنا تكمن الازدواجية أو أوجه الشبه بين الشخصية "العراقية" ذات الاسم والهوية المحددتين من جهة والتشخيصية العامة التي تطال وتصور أكثر من شخص أو "نوعية" في أغلب أنحاء العالم العربي. أشعر أن هذا التشخيص العام هو السبب الرئيس خلف ضحكي المستمر، إذ عرفت هذه "النوعية" وتفاعلت كقارئ معها أو الحالة المرضية ومع كيفية تعامل الآخرين معها.

- "عروبة" الفطحل

وتُعد الظاهرة الفطحلية أو "الفطحلزم" كما يحلو للكاتب ان يسميها ساخرًا مرضاً مزمنًا في البلاد العربية. إنها ظاهرة عربية بامتياز حيث لدينا العديد من المدّعين ممن يريدون أن يكونوا مفكرين وفلاسفة وقادة سياسيين عابرة باي ثمن. وأود أن أشدد هنا على "عروبة" الفطحل حتى النخاع! يشدد ويؤكد بعض النقاد على "عراقية" النص من حيث اللغة وشخصية الفطحل ذاته، وصحيح أن لغة النص عراقية أحياناً وأن عدداً من الأمثال الشعبية أو التشبيهات استعصت على كقارئ فلسطيني، لكن لا بد في رأيي المتواضع من التأكيد على عروبة الفطحل التي أثرت في قراءتي للكتاب رغم عدم "عراقيتي". إن تفاعلي الحي مع النص ومع شخصيته الرئيسة وفهمي لمعضلات الإنسان العراقي فيه رغم الفارق بيني وبينه دليلٌ يؤكد انتشار هذه الظاهرة.

غوني الملاح "الطايح الحظ"، "ذو العين الكريمة" مصاب بمرض "الفطحلة" هذا في الميدانين السياسي والأدبي، همه الأول والأخير النجومية والشهرة باي ثمن كان، فهو إذ لم يتمكن من تحقيق هذا كله كأديب فذ، انقلب إلى السياسة منتهزاً فرصة الاجتياح الأمريكي للعراق. ولا أعرف بالتحديد أسباب انتشار هذه الظاهرة في العالم العربي، لكن يبدو لي من حيث المبدأ أنها نتيجة تشابه الظروف فيه.

يبدو لي أن جذور "الفتحة" أو الوصولية السياسية تعود إلى الاختراق الغربي للعالم العربي خصوصا عقب انهيار الإتحاد السوفيتي التي تمثلت بسلسلة أحداث متشابهة مثل الاجتياح الأمريكي للعراق، اتفاقية أوسلو وسياسة الانفتاح في مصر، فكثر المشاريع الديمقراطية السطحية التي تمولها الدول المانحة، وتفجر عدد "الخبراء" الذين صاروا يجيدون اللغة السياسية "المربحة" التي أضحت تجارة.

- الشكل الأدبي

هناك الكثير من الأعمال الأدبية التي تتناول شخصية تبدو فردية بمعنى أنها لا تشكل ظاهرة عامة لكنها بعد إمعان النظر فيها تبدو "عامة" أيضا مثل "الأبله" و"المقامر" لدوستويفسكي و"دون كيشوتي" لسيرفانتيس الخ. لاحظ هنا استعمال الصفات بدلا من الأسماء المحددة الفردية أو أسماء العلم في العناوين أعلاه كما هو الحال في "الفتحة"، ويبدو أن اختيار المؤلف لمفهوم "المحاكاة parody" كتصنيف أدبي لكتابه مصدره مثل هذا الاعتبار.

لا أرى من حيث المبدأ أي تعارض بين الرواية كصنف أدبي والمحاكاة عموما، سواء أكانت ساخرة أو جدية، لسببين رئيسيين. يجدر بنا هنا أن نتذكر، أولا وقبل كل شيء، أن المحاكاة الساخرة ليست شكلا أو صنفا أدبيا بحد ذاتها. لا بدّ هنا أولا أن نوضح المفاهيم كما أستعملها هنا. يمكن ترجمة كلمة "محاكاة" بالمعنى الاصطلاحي الأدبي إلى "mimesis" أو "parody" بالإنجليزية، وهي كلمات من أصل إغريقي. المعنى الأول هو مفهوم عام فلسفي وأدبي يدور حول أهمية "التقليد" أو "المحاكاة" في عملية التربية والنضوج في المجتمع وفي الفنون والأدب. ليس هذا المفهوم المقصود في موضوعنا الحالي، بل هو المعنى الثاني، أي "parody"، وهي أسلوب أدبي وفني ذو معنى محدود على العكس من الأول، حيث يقلد الكاتب، الشاعر أو الفنان عملا معيناً إما بغرض نقده، أو نقض الذوق الأدبي في العصر الذي ينتمي إليه العمل المعني.

أما السبب الثاني لرأيي أعلاه في انعدام التعارض بين الرواية والمحاكاة، فهو أن الرواية كشكل أدبي وبالمعنى الحديث كلها مبني أصلا وتاريخيا على المحاكاة، وبالذات المحاكاة الساخرة. يحاكي سيرفانتيس مثلا في رائعته "دون كيشوته" التي نشرت لأول مرة في العام 1605 تراثا أدبيا طويلا طغى على أوروبا في العصور الوسطى يدعى بالأدب الفروسي "chivalric romance" والتي تناولت بطولات أسطورية لفرسان كثير خصوصا "مغامرات أماديس الغالي" إضافة الى "إنجازات إيسبلانديان" وغيرهما من الأبطال الحقيقيين والوهميين على السواء، فإما كانوا جزءا من الحملات الصليبية أو فرسانا تصدوا أو قاوموا جيوش المسلمين في إسبانيا.

فكان الأدب الفروسي الديني هذا طاغيا تسلطت على كل محاولة إبداعية تجديدية، وانكسرت شوكتها بصدور "دون كيشوته"، ومع أن الراوي يسخر بطريقة لاذعة مؤلمة من بطله، إلا أن القارئ قد ييكي على موت دون كيشوته في نهاية الكتاب. لكن وعلى الرغم من هذا كله فلا تعتبر جمهرة النقاد هذا العمل محاكاة، بل على العكس من هذا تماما، إذ ترى الأغلبية أن "دون كيشوته" أول رواية في العالم بالمعنى الحديث للكلمة.

لا أرى للأسباب أعلاه خاصية تميز المحاكاة عن الرواية. إن ما يميز رواية "القطر" هو كونها مبنية على أجزاء متقطعة إن صح التعبير، فالسرد فيها يبدو لأول وهلة وكأنه مكون من شظايا fragments، أي تبدو لأول وهلة وكأنها تفتقد إلى حبكة وبنية سردية narrative بالمعنى التقليدي للكلمة، من حيث إن تسلسل الأحداث لا يتبع في هذه الرواية "ثم كذا ثم كذا"، من بداية واضحة لحبكة محددة تتوَج في ذروة تنحل عفدتها في النهاية، لكن هناك عوامل جامعة من حيث الشكل، إضافة الى وحدة الموضوع ووحدة الشخصية المتمثلة في القطر، وهي بديهية في رأيي، إلا أن هناك عوامل شكلية أهم، ف"القطر" عمل نثري ذو امتداد

زمني واضح منذ العام 1990 إلى 2006 تحديدا. هناك أيضا صوت الراوي، وهو العمل الأساسي في وحدة السرد والشكل. يتابعنا صوت الراوي في رواية "الفتحل" من البداية الى النهاية، وقد يتناسى القارئ هنا دوره بسبب شخصية الفتحل. لكن لا بد في رأيي من مناقشة دور هذا الراوي المشاكس الذي يعرف تماما أن القارئ تحت رحمته! ليس سهلا أن نحدد علاقة هذا الراوي بالأشخاص الآخرين في الرواية لاسيما الفتحل ذاته، لكن أظن أن الراوي هنا كان زميله منذ أيام الدراسة وأنه رافقه في الغربة حتى اختفائه.

وراي "الفتحل" هنا بالمناسبة مشاكس محترف، لأنه يحجب عن القارئ مصير البطل الفتحل، فهو لا يرب يعلم بعاقبته ويتلذذ في تخمينات الجهلة من أصحاب النميمة. كيف لا يعرف بمصير الفتحل وهو يعلم سريرة كل أشخاصه بل حتى أحلام الفتحل وكوابيسه في الليل؟ هذا الراوي الذي ينصح الفتحل بالزواج والعمل، متعاطفاً معه رغم علمه بتفاهته، ما علاقته بالفتحل؟ لا شك في أن الراوي يتعاطف مع الفتحل الأبله، على الأرجح شفقةً.

ناهيك عن أن الراوي يغير أسلوبه السردى ووجهة النظر بين عدة شخصيات، بما في ذلك الفتحل نفسه. يستهل الراوي سرده بضمير الغائب "هو" في الفصلين الأول والثاني، فيحدثنا هنا عن كل كبيرة وصغيرة من أحلام الفتحل وكوابيسه، ثم ينقلب فجأة في الباب الثالث إلى ضمير المخاطب "أنت" وكأنه يتكلم مباشرة إلى الفتحل والقارئ بشكل غير مباشر، ثم يعود الى ضمير الغائب في الفصول اللاحقة.

كذلك تتبدل وجهة النظر، فتارة نرى الأحداث بعيني الراوي، وأخرى بعين الآخرين، لكن الراوي هو نفسه الراوي لا يتبدل. الراوي هنا لا يكتفي بالمراقبة من بعيد، أو يتظاهر بذلك كي لا يبدو مباشرا وتقليديا ولكي يجمع بين السرد والدراما مطلا برأسه بين فترة واخرى، فيحس القارئ بوجوده عدة مرات. يذكرني

الراوي هنا بنظيره في رواية العجوز والبحر Moby Dick للكاتب الأمريكي Herman Melville.

فالراوي يطل فجأة من المحيط السردي ليعلق على الأحداث مثل الحوت في الرواية، والحوت هنا ليس شخصية فردية بل هي نمطية ورمزية الى حد بعيد.

ولا يمكنني في هذا المقال أن أعطي مسألة الشكل الأدبي في هذه الرواية حقها من النقاش، وأضيف الى هذا الكثير من الجوانب المهمة في الكتاب الجديرة بالانتباه كدور الأحلام وعلاقة الراوي بأشخاصه.

لقد نجح الكاتب في بلورة شخصية مدّعية ووصولية "عربية" بامتياز بعيون نقدية ولغة لاذعة، سنحت لي أن أرى بعض الأفراد والإشكاليات بعيون مختلفة، شخصية عامة وفردية في آن معا، أضحكنتني من "شر البلية" لساعات طوال ممتعة ومؤلمة!

• **جمال جودة**، ماجستير في الألسنيات من جامعة كوبنهاجن، استاذ اللغتين الدنمركيه والإنجليزية في كوبنهاجن

محمد السنباطي

الفتحل: محاكاة ساخرة، كتاب جديد للدكتور زهير ياسين
شليبه، إصدار مركز الحضارة العربية في القاهرة

عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة صدر كتاب الفتحل
للدكتور زهير ياسين شليبه في مئتين وأربعين صفحة من القطع
المتوسط.

والكتاب، كما وصفه صاحبه، محاكاة ساخرة ونصوص سردية
مفتوحة. ويطالعك الغلاف الخارجي الأول بلوحة كاريكاتورية
ساخرة للفنان المغربي مصطفى جباري، وفي صفحة تالية إهداء
اللوحة بخط الفنان الذي كتب: "أرجو أن تكون اللوحة مناسبة
لشخصية الفتحل."

تأتي بعد ذلك صفحات بقلم الأستاذ عدنان المبارك عنوانها: قراءة
في رواية زهير ياسين شليبه "الفتحل"، رصد ساخر لنموذج
بشري دائم. ويعلن المبارك أن رواية الفتحل " تذكرنا بالسير
القديمة. لا يشرك المؤلف هنا مع صوت السخرية أي صوت آخر
في روايته ."

لقد أكد المبارك تأكيداً جازماً على أن هذا العمل الأدبي رواية وإن
كان المؤلف غير مهتم ب"التصنيف الأدبي لهذا الكتاب محاكاة أم
رواية أم مجموعة قصص"، ويقول مؤلف الكتاب: صورت
المجتمع العراقي وظواهره الاجتماعية السلبية من خلال أبطال
القصص وشخصية الفتحل السطحية المسالمة والآخرين الذين لا
هم لهم غير تهميشه والسخرية منه. هذا هو موضوع هذه
القصص". المؤلف هنا يعتبرها قصصاً كما تلاحظ. ليس هذا أهم
ما في المقدمة التي كتبها المؤلف عام 2008 وهو في الدنمرك،
ولكن: " هذه المحاكاة الساخرة مكرسة لشخصية نموذج لأولئك

الذين يرسمون لأنفسهم أدوارا دونكيشوتية كبيرة فيبدون بهلوانيين، وللطريقة القاسية، العراقية بامتياز في التعامل معه."

ندلف بعد ذلك إلى عنوان: الاستباحة.

تحت هذ العنوان نبدأ في التعرف على تلك الشخصية، "كان قلقا تلك الليلة. سمع كما هائلا من الأخبار الزفت كما يقولون". "أدار رأسه إلى حيث الجدار والظلام". "مرت في خياله صورة تلك الفتاة العراقية الشابة التي عبثت فيها الأيدي القاسية". "قابعة تحت الغول". "إنها صورة الذل والهوان والعدوانية والاستباحة."

ثم ينتقل بنا إلى فتاة أخرى كانت تلهو. "لم تدم اللعبة طويلا حتى اكتشفها زوجها". "طلق هذا الرجل العصبي شريكه حياته على الفور"، لكن الحقيقة تبدت له، فلم يكن ذلك حقيقيا! يقول الكاتب صراحة: "إذن كان كل ذلك حلما"، وسنرى لاحقا أحلاما أخرى تختلط بالواقع وسيطالعنا الكاتب كل مرة منبها أن تلك كانت أضغاث أحلام. وبطل القصة أو بطل الحلم يصر كل مرة أن يسترجع كل صغيرة وكبيرة في الحلم أو في الرؤيا كما يسميها المؤلف. هناك قتل وتنكيل، ثم هناك العراق المضرج بالمآسي: "هل هناك في هذا العالم الشقي أكثر أهمية من المخلوقة العراقية وصوتها الرهيف الحزين؟"

حتى السلة القديمة قال عنها: "سلتك عمرها آلاف السنين العراقية"! أريتم؟ حتى سنين العراق لها أطوالها المختلفة.

حتى اللوحة المرسومة فيها ما فيها من القسوة والمواجع: "كانت هناك لوحة بانورامية قوية معبرة، فيها أجساد بشرية نحيفة ترتدي ملابس ممزقة ووجوه نائحة ناتئة العظام بينهم فتاة في مقتبل العمر لم يعد هناك شيء من ملابسها المتهرثة يستر جسدها،

كانت نظرات الشرطة مصوبة نحو صدرها العاري، تتعرض للضرب بسياط خيالة يقفون حول هذه الكومة البشرية العراقية."

أتابع وأنا واثق أن الكاتب سيقول إن ذلك كان حلما، ولعلك لو راجعته في هذا لقال لك: "يا إلهي، حتى الحلم ممنوع علينا، حتى الحلم لم يخلص منا نحن العراقيين!". العراق مرة أخرى: "نحن شعب عريق مولع بالصفعات، حكمته المرفوعة ليلا نهارا: اضرب أخاك ظلما أو مظلوما. أو اصفع، اصفع حتى يرهبك الآخرون". وبعد أن قرأت: "هذه هي دورة العنف العراقي مصممة بدقة منذ آلاف السنين".... بعدها بسطور فاجاني الكاتب وكنت قد نسيت: "أفاق من نومه!"

النوم والحلم لهما ما لهما في هذا الكتاب حتى إن الفطحل في قصيدته عندما يدعو حورية البحر يدعوها هكذا: "فتعالى

يا حورية البحر

إلى منامي!

نتقل من تلك الاستباحات إلى "الكلب والسيدة القتيلة". وكما كان الكاتب ينبهك في القصة الأولى إلى أن ذلك كان حلما فهو هنا ينبهنا إلى شيء آخر: "لكن سرعان ما ابتلعه عالم الذكريات". وفيها نطالع المقارنة بين حالتين متناقضتين مختلفتين كل الاختلاف: "كانت الأوروبية تنظر ساهمة إلى الأفق مبتسمة، بينما كانت أصابعها تعبت بشعره الأسود سارحة بذاكرتها إلى عوالم الفيلة والقردة والأسود وزئيرهم واللون الأسود والقوة والدفء والحياة. لم يكن الولهان يدرك ما في خلد هذه الجميلة وإلهامها وحبها لبلاده المشوقة الغربية، التي لم ينم فيها يوما وهو مرتاح البال. أي تناقض هذا؟ بلادي وإن جارت علي عزيزة. أخبر يوسف زوجته الخياطة السلطنة الزلاطة الطباخة النفاخة بقصة

هذه الأوروبية الرومانتيكية، ردت عليه ببرود خيالي: رُح لها،
يجوز تسمع أشعارك". لا نكاد نخرج من ذلك الجو حتى ندخل
في عالم الجريمة: "امرأة رائعة الجمال والبهاء، في متوسط
العمر، وكلب كبير مثل كلاب الشرطة مقتولان بالرصاص
والدماء تسيل منهما. لكننا وقد مضينا في تقصي خيوط الجريمة
نصحو على الجملة العتيدة: "إذن كان ذلك مجرد حلم."

والعجيب أن الدكتور شلبية يأخذنا ليس إلى الحلم فقط وإنما إلى
الحلم داخل الحلم: "واستسلم يوسف للرقاد بعد سيل الذكريات التي
شرحت صدره. في النوم حلم أنه نائم ويحلم، وأنه ذهب في الرؤيا
إلى البريد ليرسل طردا بريديا مليئا بغداء المعلبات إلى الرجل
المقولب بونامارييف."

وابتداء من (توزن تاك) ينهمر الحكى عن الفطحل، الفطحل
الوحيد في نظر نفسه. "هناك فطاحلة مثلك أيضا ويجب أن
تعطيهم حقهم"، لكنه لا يفعل.

ها هو ومن معه تائهين في مدينة غربية بعيدة، يتصدى هو للمارة
ويسألهم عن المكان الذي يقصدونه، صار يؤنبه زميله: "ولم يبق
شارع إلا دخلناه، ولا زقاق صغير إلا وسلكناه، لم تبق امرأة إلا
وسألناها، ومع ذلك لم نعثر على المكان. الناس يقولون لك إن
المكان المنشود قريب من هنا. وأنت تصر على إلقاء القوائد
عليّ بخطابيتك المعهودة". ثم ينهال عليه سخرية: "مقطع من
كل العالم، تعيش على هامشه ولا يشغلك غير أمسينك وإلقاء
الشعر. والله حقا! فهل هناك شيء في الحياة أجمل من تحقيق
الذات. أنت جميل. أنا والله سعيد بك. أنت فرحي الدائم
والمفروض مني أن أكرس وقتي لك". وفي العنوان التالي نقف
علي مطلع قصيدة للفطحل: اسألوا عنا في كل مكان نحن جهازة
هذا الزمان

وينقلب عليه صديقه: "لو كنت فطحلا حقيقيا لعرفت ذلك، ولكن ألم أقل لك دائما وأبدا بأنك ماركة مزورة!"

ولقد تغير الفطحل ولم يعد كما كان..... صار يتطلع في المرآة ليرى نفسه في النيو لوك فإذا هو: "شاب طويل القامة فاحم الشعر، أسمر البشرة بمعطف مطري طويل ونظارة شمسية، كانوا في العراق الصعب يسمونك (ساخرين منه): كعيير، كعييري! لكنك الآن والحق يقال شاب وسيم في نظر هؤلاء الأوروبيين لا محالة."

فما الذي تغير في حياة الفطحل؟

نقرأ: "لكن هناك أمورا كثيرة تغيرت في حياة الفطحل فقد تعلم تنفس الهواء الطلق ونسيم الحرية في البلدان الجميلة، وصار له مسكن خاص به له حرمة لا يدخله الغرباء بدون دعوة منه لهم، ولا يزوره إنسان أينما كان بدون اتفاق أو دعوة مسبقة. وله عنوان ثابت وصندوق بريد خاص به. لم يعد أحد يسخر من شكله أو شعره الفاحم أو سمار بشرته أو كبر أنفه وغلظة شفثيه بل صار هذا ملاذا لشفاه الأوروبيات الجميلات، وما كان يعد قبحا صار مبعثا للإلهام والخيال والجادبية بالنسبة للفتيات المهوسات، بينما صارت البلاهة والشرود وعدم التركيز واللباقة سببا للتعاطف والمودة والمحبة ورمزا للمسالمة.

تغيرت ملامح شكل الفطحل نحو الأجل والأفضل إلا عينه الكريمة بقيت كما هي عليه مختفية خلف النظارة المعتمة وخصلة من خصلات شعره."

وها هو في بلاد الشمال يتوق لاستلام الرسائل، يطلب ذلك من ساعي البريد ويحفزه ليتأكد من خلو جعبته من رسائل له. وتأكد له عدم وجود رسائل باسمه فإذا به.... "ينظر إلى الأشجار العالية

والغيوم، كادت تسقط من عينه دمعة". حتى الاتصالات الهاتفية لا يوجد. دب اليأس في صدره فقال لصديقه: "إذا أهلك اتصلوا بك مرة ثانية وسألوك عني فقل لهم أنني فعلا مت بكردستان."

والفطحل مولع بشيئين: المكتب الفيزيت كارد، فأما بطاقة الزيارة فمكتوب فيها اسمه ولقبه وعنوانه ورقم هاتفه" وتزوي هناك بخجل كلمتان: كاتب/إعلامي. يتفحصها الفطحل بإعجاب صباح مساء، كان بوده أن يكتب عليها كلمة شاعر". وأما المكتب فلا بد منه لأنه الجاه والسمعة.

ويسخر الكاتب: "الناس في هذه البلاد أساتذة في الشكوى من الفقر والقحط والضرائب والمساعدات الاجتماعية بينما يبحث هو العاطل عن العمل عن مكتب يتفاخر به وسط المهمشين والمهشمين المنبوذين."

ليس فقط يتوق إلى البطاقة والمكتب وإنما يتوق أيضا إلى أم بديلة. "كانت والدته القصيرة البطينة، واقفة ترتدي ثوبا مهلهلا تنظر إليه بتوسل وتقول له بسخرية ضاحكة مغطية أسنانها بكف يدها اليمنى: عاشق ومفلس!"

وها هو يتذكر قولها هذا ويتملكه الأسى ويتنمّر: "المفلس لا يحق له حتى العشق، أي ظلم هذا؟ معلوم! الفلوس تجيب العروس والمعطف المطري والنظارات السوداء."

ها هو صار يلبس النظارة الشمسية رغم الجو الغائم المضرب. فأما أمه فألقاها عن ذاكرته إلى حين مفكرا في أم بديلة، وأما زوجته التي كانت تسهر الليالي تستنسخ له أشعاره فطلقها!!:
"لازم أغير العالم!!"

ونراه في شفته يسخن أرزا ومرقا كانا عنده من يوم أمس، وبعد أن أكل لبس دشداشته ونام منهكا. "في النوم رأى حلما سيفرح به

كثيرا عندما يستيقظ وسيحكيه لمعارفه وأصدقائه رغم ندرتهم أو
انتفائهم:.."

أمه في الشارع في عباؤها السوداء الطويلة. طلبوا منه التوجه
إلى العراق. اتصل بها ليخبرها "أنه سيأتي محملا بالهدايا
والدولارات وما عليها وأخواته إلا انتظاره في البيت وأن تدعو
الجميع."

ها هم أهلها في استقباله كبطل عائد. خروف يذبح أمام عتبة الدار.
العيون الصغيرة والكبيرة ترمقه وترمق الهدايا المرتقبة. المشكلة
أنه رغم تغيير اسمه إلا أن الاسم القديم يلاحقه الآن.

أخذ يوزع الهدايا لكن أحد الأطفال طلب منه هاتف جوال لجدته،
وآخر طلب نفس الشيء لأمه وخالاته. أخته الصغرى تشكو من
"تعبها مع ابنها المريض، وتمنت عليه أن يساعدها في المستقبل،
أما أخته فشكت له سمعها الثقيل، أما أخواه اللذان يكبران فظهرا
له وكأنتهما في سباق نحو القبر.

كان أخوه الثاني يبدو أكبر من عمره بكثير؛ بسبب الرصاصة
التي أصابته في شبابه ومرضه؛ إذن فهو ما يزال حيا يرزق ولم
يمت منذ أكثر من عقدين من الزمان...

تساءل الجميع لماذا لم يدرس الفتحل الطب هناك...

"سألته أخته الصغرى بإلحاح وعفوية: عيني عيونك إشكد حلوة،
كأنما حاطط عدسات. لكزتها أختها الكبرى كي تصمت، بينما
حاولت الكبرى الطرشاء أن تسأله عن سماعة أذن."

وطبعا بعد هذا لن ينسى الكاتب أن يذكرنا أن الفتحل كان نائما:
"هسه قعدت من النوم وحلمت كأني مسافر للعراق..."

وفي قناة فضائية يشاهد الفطحل مشدوها حوارا سياسيا لا يعجبه فيقوم بمداخلة ثم يلتفت إلى جليسه ويسأله: "بالمناسبة أريد أسألك كان اسمي واضح على شاشة التلفزيون (...) كتبوا اسمي بوضوح؟ كتبوا موقفي الشخصي؟ كتبوا اسمي المنسق العام؟"

ويعرض المؤلف علينا حيرة الفطحل مع زوجته البولونية، وزوجته الأخرى، هو الذي "يعاني من سلب الذات منذ طفولته"، وكان قد طلق امرأته العراقية، وصار يرزح تحت أنقاض اختياراته، البولونية فارغة، ثلاثينية تصغره بعقدين. "عسى ولعلها فعلا حامل مني مو من شخص آخر غيري، يا رب تكون حيلى مني".

ويتذكر امرأته الأولى العراقية التي كثيرا ما طلبت منه أن يعرض نفسه على طبيب لأنه عاقر!. هل يقدر أن يسأل البولونية إن كان فعلا أبا للجنين. "راح تثور وتزعل وتقول إني عربي متخلف".

وها هو حلم آخر يجيء ويسقط الفطحل من مكان شاهق لكنه يفتح "عينيه مبتسما: عايش! اطمئن آني عايش، آني بزونة (قطه) أم سبع أرواح".

وها هي البولونية تهاتفه: "ألا زلت نائما أيها الأمير؟ إلى متى تبقى على هذا الحال؟ أفقُ لنفسك أيها الطفيلي؟ أخرج يا فارغ وإبحث لك عن عمل يفيدك، ستصبح أبًا عما قريب، هل تفهم؟ حاول أن تفهم قليلاً ولو أنا يائسة منك يا أبله لأنك طول عمرك هائم ونائم كأنك محنط".

وينتنفض عليها "ها ها، ها؟ ماذا تقولين؟ أي شغل هذا؟ أنا سياسي! أي شغل؟ أنا شاعر! أي شغل هذا؟ أنا معارض للنظام! أنا ضد صدام! هذا شغلي! أنا شاعر! أنا كاتب!".

وتدور رحى الحرب وتلتهب المظاهرات المناوئة لها " صار
الفضح كثيرَ الحضور في المحطات الفضائية، وأصبح يرتدي
البدلات الأنيقة للغاية وأربطة العنق المورّدة، المزركشة، ذات
الألوان المتنوعة كالأحمر والأرجواني، غالباً ما كان يظهر حليق
الذقن مصفف الشعر سبله ويبدو مزيتاً، أصبح وجهه أكبر أو
أسمن وبدت وجنتاه متوردتين رغم سمار بشرته، وأن العز بدأ
واضحاً على ملامح وجهه، قدّمهُ المذيعُ باسم آخر غير الذي
اعتادوا عليه سابقاً حيث أصبح اسمه وثّاب عنبر الناطق الرسمي
باسم حزب البرلمان العراقي، تحدث في البداية قليلاً عن حياته
وقال إن والده اسماه وثّاباً تيمناً بوثبة كانون الثاني، وكان مقدّم
البرنامج الرجل الكبير في السن ذو الخبرة الإعلامية الواسعة
يبدو عليه أنه لا يثق بهذه الادعاءات، ينظر إليه بريية من طرف
عينيه، قاطعه مبتسماً:

- ولكن يا دكتور وثّاب هناك من يقول إن هذا ليس اسمك
الحقيقي، يُقال إن اسمك الأصلي: طايح أو طايح، بل إنه
عبدالجبار وهو الاسم الذي استخدمته مؤخراً قبل السقوط."

بعد هذا "الموجز" الذي أتمنى ألا يكون قد سلب هذا العمل حيويته
واندفاعه، والذي أرجو به أن أكون قد قدمت للقارئ فكرة عامة
وافية، فإنني أرى أن الأمر يتطلب ذكر بعض الملاحظات:

1- نبدأ بالإهداء، "إلى زوجتي فريدة"، فنستشعر الحميمية
المطلقة، والوطن المثالي الذي اصطحبه الكاتب معه إلى بلاد
الغربة. لكنه يهدي الكتاب إلى العراق! العراق الفريد!

لذلك أصر على ذكر اسم الزوجة، وهل هناك متفرد كالعراق،
ونخل العراق، وسماء العراق!

2 - ومازلنا في الإهداء الذي يوجهه الكاتب إلى أبطال قصصه... وليس هناك ما هو أجمل ولا أرقى ولا أنقى من قول هذه الكلمة: "معكم أسخر لا منكم".

3- ومن الذين يوجه لهم إهداءه، الشعراء على اختلاف أنواعهم، فمنهم من يستحق التكريم، ومنهم من يستحق الصفع كما قال شاعر.

- نخرج من الإهداء لنقرأ باستمتاع ونجد أن الكاتب يمزج بين الخاص والعام؛ فكما صور الفطحلَ صور معه المجتمع العراقي في أدنى صورهِ السلبية.

4- تركيز الكاتب على استخدام الحلم وإن كان ينبه القارئ دائماً قبل الدخول في مملكة النوم وإلا فبعد مغادرتها، ويصر على هذا الوضوح ولعل معه أسبابه.

5- لا شك أن الكاتب قصد أيضاً تعرية المجتمع العراقي وفضح الشخصية الوصلية

وتعاونها مع الاحتلال، وعندما وصف ظهور الفطحل في الفضائيات

فقد كان يعني مجموعة من العراقيين لفظتهم المنافى فعادوا ينتهزون أية فرصة للشهرة

فوقعوا في فخ نصبوه لأنفسهم. هؤلاء فقاعات ليس لهم في نظره أي دور في العراق .

كذلك الجو العربي العام من خلال استخدام اللهجات المصرية والسورية وغيرها لكي يؤكد على أننا: كلنا في الفخ شرق!!

6 - وأخيراً فيجب التنويه على أن مؤلف الفطحل كاتب له أسلوبه المتميز الذي يعبر بصدق عن شخصيته وانتماءاته. يكتب القصة كأنها يكتب سيرة ذاتية لمؤلف. إن أبطال قصصه يتماهون معه

في اغترابه وتشوفه إلى وطنه: "يا ترى هل ستبقى رائحة جريد
النخل وسعفه بعيدة المنال؟"

أقول إن مؤلف الفطحل له أسلوبه الساخر المحبب حيث خفة
الظل، واللحاحات الذكية، كل ذلك لا يخفى على أحد .

محمد السنباطي، روائي وشاعر و مترجم مصري

د. لمياء ياسين حمزة

د. شازاد كريم عثمان

السُّخْرِيَّةُ فِي رِوَايَةِ "الْفَطْحَل" لِلْكَاتِبِ زَهْرِيرِ يَاسِينِ شَلْبِيهِ

"المُلخَص"

يتناول هذا البحث موضوع السُّخْرِيَّةِ فِي السَّرْدِيَّاتِ، وَتَحْدِيداً فِي رِوَايَةِ "الْفَطْحَل" لـ(زَهْرِيرِ يَاسِينِ شَلْبِيهِ)، إِذْ يَكْرِّسُهَا الرِّوَايِيُّ لِمُعَالَجَةِ قَضَايَا سِيَاسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ مَعْتَمِداً عَلَى عِدَّةِ أَسَالِيْبٍ، مِثْلَ "المِحَاكَاةِ السَّاحِرَةِ"، الَّتِي تَتَمَيِّزُ بِالتَّهَكُّمِ المَبْطُنِّ وَالفِكَاهَةِ فِي تَنَاوُلِ المَوَاضِيْعِ الحَسَّاسَةِ وَالمُعَقَّدَةِ لِتَجْعَلَهَا أَكْثَرَ قَبُولاً وَسَهولَةً الفِهْمِ عَلَى القَارِئِ.

إنَّ المَوْلفَ لَمْ يَكْتُبْ عَلَى غِلافِ نَصِهِ هَذَا "رِوَايَةً" كَالْعَادَةِ، بَرَأِينَا لَيْسَ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْتَنِعْ بِانْتِمَائِهِ إِلَى نَوْعِ الرِّوَايَةِ، بَلْ بِالْعَكْسِ لِأَنَّهُ أَرَادَ إِضَافَةَ سِمَةِ السُّخْرِيَّةِ عَلَيْهِ، الَّتِي تَتَمَيِّزُ بِهَا "المِحَاكَاةُ السَّاحِرَةُ" وَالتَّرْكِيزُ عَلَيْهَا، فَهَذَا المِصْطَلَحُ لَيْسَ اسْتِعَاضَةً أَوْ بَدِيلاً عَنِ الرِّوَايَةِ! وَكَمَا نَرَى، فَإِنَّ مَقْدَمَ هَذَا النِّصِّ الكَاتِبِ الرَّاحِلِ عَدنانَ المَبَارِكِ (1935-2017) أَصَرَ عَلَى تَسْمِيَّتِهِ "رِوَايَةً" حَيْثُ يَصَوِّرُ مَوْلفُهُ المَجْتَمَعَ العِرَاقِيَّ وَظَوَاهِرَهُ الاجْتِمَاعِيَّةَ، وَوَأَقَعَ الفِرْدَ العِرَاقِيَّ فِي الغُرْبَةِ مِنْ خِلالِ شَخْصِيَّةِ "الْفَطْحَل" وَالَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنْهُ- الَّذِينَ لَجَّأُوا إِلَى خَارِجِ البِلَادِ لِأَسْبَابِ سِيَاسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا.

ولِهذا السَّبَبِ اخْتَرْتُ الكِتَابَةَ عَنِ رِوَايَةِ "الْفَطْحَل"، لِحَدَاثَةِ الثَّمِينَةِ وَأَصَالَتِهَا وَجَدِّيَّتِهَا وَأَهْمِيَّتِهَا، وَلِأَنِّي أَوَّلُ مَنْ يَكْتُبُ عَنْهَا وَيُثِيرُهَا بِمَنْهَجِيَّةٍ أَكَادِيمِيَّةٍ. وَتَنَاوُلُ البَحْثِ مَفْهُومَ السُّخْرِيَّةِ، وَأَهْمِيَّتِهَا وَدَوَاقِعِهَا، وَأَهْمُ المَرْجِعِيَّاتِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي وَظَفَهَا الرِّوَايِيُّ، وَوَضَّحَ السُّخْرِيَّةَ مِنْ خِلالِ عِدَّةِ جَوَانِبٍ مِثْلَ الشَّخْصِيَّاتِ الكَارِيكاتُورِيَّةِ، وَالسُّخْرِيَّةِ الحَزِينَةِ وَالسُّودَاءِ اللَذَعَةِ، وَالأَحْدَاثِ الكُومِيديَّةِ، وَاللُغَةِ وَالتَّعْلِيقاتِ السَّاحِرَةِ، ثُمَّ النِّقْدَ الاجْتِمَاعِيَّ وَالسِّيَاسِيَّ طَوْرًا بِالمِزَاجِ وَالهَزْلِ وَالتَّهَكُّمِ، وَتَارَةً بِالشُّوقِ إِلَى الوَطَنِ الأَصْلِيِّ وَالأَهْلِ حَيْثُ يَسْتَعْمِدُ كَلِمَاتٍ شَعْبِيَّةً مَسْتَمَدَّةً مِنَ اللُّهْجَةِ العِرَاقِيَّةِ مِثْلَ "مَسوَدَن"، كِلَاتوشِي، صَرْمِ بَارِهِ"، وَأَحْيَانًا أُخْرَى نَادِرَةً "بِالْأَزْدَرَاءِ" حَيْثُ

ينتقد بعض الناس المولعين بإهانة إنسانٍ آخر بمفرداتٍ غير لائقة مثل "أعور" بدلاً من "كريم العين"، وطبعاً، ينأى الكاتب بنفسه عنها كما سنبين ذلك لاحقاً في بحثنا الحالي.

وأتبعْتُ المنهج الوصفي التحليلي الذي كان له دور مهم في شرح ظاهرة الفَطْحَلِ ووصفها وصفاً دقيقاً عبر ربط الأحداث الواقعيَّة بالخياليَّة.

وفي الخاتمة ثبتتُ النتائج التي توصل إليها البحث، والتي تؤكد أنَّ "الفَطْحَل" ظاهرة عالميَّة موجودة عند المجتمعات الغربيَّة والشرقيَّة.

الكلمات المفتاحيَّة:

السُّخْرِيَّة، السُّخْرِيَّة في السَّرديات، رواية الفَطْحَل، أنواع السُّخْرِيَّة، المرجعيَّات الثقافيَّة، التأثيرات الأجنبيَّة.

Satire in the Novel "Al-Fathal" by Zuhair Yassin Shlaibah

"Abstract"

This research explores the theme of **satire** in narratives, specifically in the novel *Al-Fathal* by Zuhair Yassin Shleibah. The author employs satire to address political and social issues using various techniques, such as "**parody**," which features implicit sarcasm and humor to make sensitive and complex topics more accessible and easier for readers to comprehend.

The author did not label his work as a "**novel**" on the cover, as is customary. In our view, this was not because he doubted its classification as a novel, but

rather because he wanted to emphasize the satirical nature of the work, which is characteristic of **parody**. This designation is not a replacement or substitute for the novel itself! As we see, the late writer Adnan Al-Mubarak, who wrote the preface to this work, insisted on calling it a **novel**. The author portrays Iraqi society, its social phenomena, and the reality of Iraqis in exile through the character of *Al-Fathal* and those who mock him—individuals who fled the country for political or other reasons.

For this reason, I chose to write about *Al-Fathal*, given the novelty, originality, seriousness, and significance of its theme. I am proud to say that I am the first to academically explore and analyze it. This study examines the **concept of satire, its importance, motivations, and the cultural references employed by the novelist**. It highlights different aspects of satire, including **caricatured characters, sharp satire, comedic events, satirical language, witty remarks, and social and political critique through satire**. I adopted a **descriptive-analytical approach**, which played a crucial role in explaining and accurately depicting the phenomenon of *Al-Fathal*, connecting real events with fictional elements.

In conclusion, the study confirms that *Al-Fathal* represents a **universal phenomenon** present in both **Western and Eastern societies**.

Keywords:

Satire, satire in narratives, *Al-Fathal* novel, types of satire, cultural references, foreign influences.

المقدمة:

إنَّ السُّخْرِيَّةَ وسيلةً تعبيرية، تتميز بصيغتها وأسلوبها النقدي اللاذع، وتخفي دلالات مضمرة، بلغة خاصة وبسيطة ساخرة. لذا يحاول الكاتب من خلالها نقد الأوضاع السياسيَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة، فهي "طريقة فنيَّة أدبيَّة ذكيَّة لبقة في الإبانة عن آراء ومواقف ذات رؤية خاصة وبصيغة فنية متميزة وهي أسلوب نقدي هادف في التعبير عن أفعال معينة كعدم الرضا في تناقضات الحياة"¹.

كما إنَّ السُّخْرِيَّة نوعٌ من الهزء قوامه الإمتاع والتسليه وتُعد من أرقى أنواع الكوميديا والفكاهة، فهي "الهزء بشيء ما، لا ينسجم من القناعة العقلية، ولا يستقيم مع المفاهيم المنتظمة في عرف الفرد أو الجماعة، ففي كلِّ انقطاع عن المألوف شيء ما يثير الضحك"²، وهي تشارك في إسباغ المعنى الواقعي على الكلمات من خلال التناقضات اللفظية وهذا يرجع إلى عبقرية الكاتب من خلال التلاعب بالكلمات والإيحاءات، أي يكون معناها خفياً، تخفي المعنى الحقيقي بعكس الهجاء الذي يكون مباشراً، في إبراز عيوب المهجو. فالسُّخْرِيَّة كالإمتاع وهدفها في معظم الأحيان إصلاح المجتمع، وإنها تختلف عن الهجاء من خلال بواعثها والوظيفة والغرض.

وتكمن أهمية السُّخْرِيَّة في الأدب لأنها وسيلةٌ تعبير حادة عن الانتقادات والمعاناة أو الإساءة بشكل ساخر، حيث تحمل غالباً في طياتها مغزىً سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً لإبراز الفساد أو الخلل أو

¹ السخرية في الأدب الجزائري الحديث، محمد ناصر بوحجام، مطبعة عربية، د.ط، 2004: 32.

² السخرية في مسرح أنطون غندور، سوزان عكاري، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 1994: 24.

الظلم بطريقة هزلية مضحكة. وتكون السخرية عادة للتسلية والاستمتاع، مع إنها تساعد الكاتب لإيصال فكرته بسهولة إلى المتلقي.

وللسُّخْرِيَّةِ دوافع عديدة، منها المساهمة في رفع الروح المعنوية والثقة بالنفس بالاستعلاء على الخوف، وهي كأسلوب فني تنفع في إزالة الضيق والهمّ من قلوب الناس، وردّ خطرٍ قائمٍ على المجتمع، أو خطر متوقع عليه، فهو عامل إنساني شريف لا يعبر بذلك عن رأي صاحبه فحسب، بل رأي الناس والمجتمع. والسُّخْرِيَّةُ وسيلة للانتقام فبواسطتها يستطيع الكاتب مواجهة تلك الإهانات التي يتعرض لها، حيث تترجم الحاجة الروحية للمجتمع³.

ومن خلال حواراتي مع الكاتب د. زهير ياسين شليبه*، أجبني على بعض الاستفسارات وطريقته في الكتابة، فقد ذكر لي مثلاً بأنه كان

³ ينظر: أدب السخرية بخلاء الجاحظ وموليير دراسة مقارنة، فاطمة زروقي وخالدية سعدي، رسالة ماجستير في الأدب الحديث، جامعة ابن خلدون تيارت، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، 2019-2020: 25-26.

* ولد الدكتور زهير ياسين شليبه لأب معلّم في مدينة ميسان وانتقلت عائلته بعد خمسة أعوام إلى بغداد عام 1954، استاذ جامعي متقاعد، يعيش في الغربية منذ عام 1974 يكتب بأسلوبه الساخر، وهو واحد من الكتاب العرب القلائل في الغربية الذي يتناول القضايا السياسية والاجتماعية بشكل مبتكر ومتميز. درس زهير شليبه الآداب والصحافة وعلم النفس وأساليب العمل الاجتماعي، واشتغل بالتعليم الجامعي والبحث العلمي والترجمة من الروسية والدنمركية إلى العربية. وله مجموعة من المؤلفات الأكاديمية والإبداعية وفي الترجمات منها: (غائب طعمة فرمان دراسة نقدية مقارنة عن الرواية العراقية 1996) و(ميخائيل باختين ودراسات أخرى عن الرواية 2000) و(كوابيس المنفى. مجموعة قصصية قصيرة 2003) و(الفتحل. محاكاة وقصص ساخرة

منذ نعومة أظفاره يفكر بالخروج عن المألوف واستخدام السخرية، ولا يحب "اجترار" الأسلوب السردي التقليدي والحبكات الاستهلاكية و"المنفلوطيات"، بل يسخر منه ويتهمك، خصوصاً عندما يكتب بعض الكتاب والشعراء بطريقة متكررة وصيغ رتيبة خالية من الإحساس العميق والشغف والحماس والرغبة في التجديد والحداثة وعمق المضمون والحكمة والشعور بضرورة العمل بأشكالٍ جديدةٍ والبحث دوماً عنها. ومن هذا المنطلق اختار الكاتب زهير شليبه أسلوب سرديته غير الاعتيادية حتى بعنوانها: "الطفل"⁴، وصمّم بنفسه في البداية غلافها عندما نشرها لأول مرة قبل الاحتلال الأمريكي ببعض السنين في موقع القصة العراقية، التي كان يشرف عليها بنفسه مع الكاتب العراقي الراحل عدنان المبارك (1935-2016)، مواكباً كلّ تفصيلات عمله في الإصدار الثاني بما فيه ألوان الغلاف، ولوحته التي رسمها أو استوحاها له التشكيلي المغربي مصطفى جباري من نص "الطفل" بعد أن اطلع عليه وأهداها له⁵.

المرجعيات الثقافية:

إنّ زهير شليبه من الروائيين المعاصرين، ممن ارتبطت نتاجاته بالمرجعيات الثقافية التي تحمل في ذاكرته الثقافية الفنون القصصية

(2005) و(مختارات من الشعر الدنمركي 2000) و أنطولوجيا الشعر الدنمركي الحديث (2005) و(في الأدب العربي الحديث. دراسات وحوارات في التنويرية العربية والاستشراق الروسي. 2025) و(جودليا. سردية عابرة للأجناس (2025)

⁴ الطفل، زهير ياسين شليبه، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2008.

⁵ أجريت مقابلة شخصية مع الكاتب والروائي الدكتور زهير ياسين شليبه عبر المواقع الاجتماعية بتاريخ 30-1-2025، 25-2-2025 وهي (غير منشورة وقد أذن الروائي بنشرها). (الباحث).

المتنوعة بوعي وقصدية، والمرجعيات الثقافية التي ساهمت في تكوين شخصيته الثقافية الواسعة والعميقة كثيرة، منها: القراءات الأولى التي لها أثر واضح على ثقافته ومعرفته، وكما يقول إنه فتح عينيه على مكتبة صغيرة لوالده، الذي ينتمي إلى جيل المعلمين العراقيين الأوائل، لكنها كانت متنوعة وغنية بـ"قصص أطفال" و"قصص من القرآن"، و"النظرات" و"العبرات"، والروايات الغربية، منها مثلاً الأولى التي قرأها رواية فرنسية مترجمة "بائعة الخبز" لمؤلفها كزافيه دي مونتابين، طويلة جداً ورائعة! أثرت فيه تأثيراً كبيراً من حيث الموضوع والأسلوب. وروايات نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله و"النخلة والجيران" لغائب طعمة فرمان، وكذلك قرأ كتب سلامة موسى الأولى المشهورة بما فيها عن "نظرية داروين". وحدثني أيضاً قائلاً " في السبعينات بدأت بقراءة ما توفّر من كتب وقصص عراقية متداولة لمحمد خضير وأحمد خلف وعبد الرحمن الربيعي وآخرين... كما كنا نقرأ كتباً متنوعة إضافة إلى الأدبية، مثل لورنس العرب وبرتوكولات بني صهيون وعن العراق مثل ملحمة جلجامش، أتذكر قرأتُ كتاباً كبيراً عن اليزيدية، وقرأتُ "أرواح مينة" و"المفتش العام" لغوغول، وبعض كتب سارتر مثل الغثيان ودروب الحرية والذباب و"دكتور جيفاكو" لباسترناك التي اعجبتني جداً ورواية "الغريب" لألبير كاميو ومن الكتب الروسية "الأم" لغوركي، "الحرب والسلام" لتولستوي وأغلب كتب دوستويفسكي المتوفرة آنذ رغم صعوبتها مثل "الأخوة كارامازوف" و"الجريمة والعقاب" ورواية "مذلون مهانون" التي أحببتها جداً وأسهل عليّ من التي سبقتها حيث كنتُ صغيراً بعد تخرجي من السادس الابتدائي وسنوات المتوسطة، وبعدها تطورت القراءات وتنوعت، وصرنا كشباب متحمس للغاية وبشكل مبكر من أعمارنا قبل بلوغ سن الرشد الرسمي نبحث عن الكتب ليس في شارع المتنبي فحسب، بل في مكتبة التحرير الكائنة في شارع السعدون لدرجة الهوس وحتى الخطر، واستمرت هذه الحالة حتى

تخرجي من الإعدادية ودخولي في الجامعة المستنصرية...والخ"6،
من هنا نرى أنه منذ بداية حياته كان أكثر ميلاً إلى الآداب الأجنبية.
فأنا بوصفي باحثاً أنظر نظرةً شاملةً إلى الأديب زهير شليبه بوصفه
إنساناً اضطرَّ إلى ترك بلده ولم يكن طريق الغربة سهلاً بالنسبة له
وللمتقفين العراقيين الآخرين، كما يتصور بعض الناس الذين بقوا
في الداخل رغم قساوة وضعهم.

د. لمياء ياسين حمزه، أستاذة جامعية في أربيل، العراق

د. شازاد كريم، أستاذ جامعي في أربيل، العراق

⁶ حواراتي مع الكاتب زهير شليبه. (الباحث).

Zouhair Yassin Shlaiba

The Genius

Den Geni

Sharq Gharb forlaget, Danmark

1. udgave

Danmark 2009

Copyright: Zouhair Shlaiba

Omslag: Mustafa Jabbari

Produktion: Markez al-Hadharate al-Arabiye

Kairo, Ægypten

ISBN 978-87-985964-7-9

Fotografisk, mekanisk, eller anden form for gengivelse eller mangfoldiggørelse er kun tilladt ifølge gældende Copy-Dan aftaler.

حقوق النشر للمؤلف

لا يُسمح بإعادة الإصدار التصويري أو الإلكتروني أو أي شكل من الاستنساخ والنشر والاقتباسات الطويلة والتوزيع بدون أخذ الموافقة الخطية من المؤلف الدكتور زهير ياسين الشليبه بموجب اتفاقات Copy-Dan دان كوبي السارية.

Fotografisk, mekanisk, eller anden form for gengivelse eller mangfoldiggørelse er kun tilladt ifølge gældende Copy-Dan aftaler.

The Genius

Den Geni

Sharq Gharb forlaget, Danmark

شرق غرب للنشر

الطبعة الأولى 2009

1. udgave

Danmark 2009

Copyright: Zouhair Shlaiba

Omslag: Mustafa Jabbari

ISBN 978-87-985964-7-9

زهير ياسين شامية القطمحل



محاكاة ساخرة



زهير ياسين شامية

القطمحل

مركز الحضارة العربية



وجدت أن أعرف النقاد، تلك المذاهب، جديفة على السحرة والتهاكم
يتضمن مقال مسجوع، إذ أوجهه مع أي كاتب آخر
لهما سحرية عظيمة، إذ أتمكن أن تشبهها لأنها لا تتراءى أبداً ولا تلتصق
على حد، ورائد، ضحكك بصوت عالٍ وأنا أقرأ بعض الفقرات التي إن يفهم
ولاها إلا المرأسي.

فؤاد القطمحل

من رواية شخصية إلى الحكمة
قوسري ١٩٩٦/٢

التكرار رواية "القطمحل" لزهير ياسين شامية بالأسلوب اللغوية، الأيضاً
الوقت هنا مع صوت السحرة، أي صوت آخر غير رواية، ولا أظن مسجوع
تلقية، شبهة تاملت حتى، رغم كل المواقف التي يتخذها المؤلف من مقلته
ويطال إلى أن زهير شامية يروي حياة مقلته على الطريقة الشعبية، بمزاج
التيارة والجملة العرفية.

يقوم زهير شامية بحل مقلته، تعجب الحقيقة، الاختلاق فيما يخص صورة
القطمحل، أهدى أن لكسني الحقيقة والاختلاق لقطمحل، أهدى أي التاريخي
قبل كل شيء، لكن خارج النص، مائة والأراني، وأكاتب، يمل كما الزرية
حامل، رغبة التي يري صورة، تحت تنسي، الأصوات، أوزار، شعري، فخر، صفات
بالأصابع، بل، يفتوننا المؤلف، منسبة إلى بعض القطمحل، التي حصل القر
من تقصيرها.

إن زهير شامية منتج هنا، أي بالمرزبات العربية القديمة، فمستبدل
الأخرى، فكل رواية، القومية، والأقضية، خاصة، وهناك ملاحق، نفس، رواية،
في حقله، من، ولتكن، الأبحاث، التفسيرية، وبين، والقوميين، والرايانيين
والقواتيين، والديويين، وزهير.

صلاه الدير



رؤية القارئ للقطمحل، مسجوع، الحجازي - المغرب